كلاريس ليسبكتور

قريباً من القلب مكتبة المتوحّش

رواية

ترجمة: صفاء جبران

دار الآداب

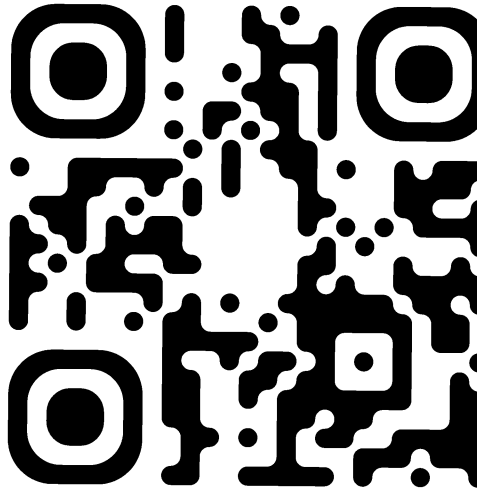

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

قريبًا من القلب المتوحِّش

قريبًا من القلب المتوحِّش

كلاريس ليسبكتور / كاتبة برازيليَّة

ترجمة: صفاء جبران

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2024

Clarice Lispector
© Paulo Gurgel Valente
© Perto do coração selvagem, 1944

ISBN 978-9953-89-760-8

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:
www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

كلاريس ليسبكتور

مكتبة
t.me/soramnqraa

قريبًا من القلب المتوحِّش

رواية

ترجمة: صفاء جبران

دار الآداب ـ بيروت

الفهرس

الجزء الأوَّل **9**

الأب 11

يوم جوانا 17

...الأمّ... 25

نزهة جوانا 33

...العمَّة... 37

أفراح جوانا 45

... الحمَّام... 53

المرأة ذات الصوت وجوانا 81

أوتافيو 89

الجزء الثاني **115**

الزواج 117

المأوى في المعلّم 125
الأسرة الصغيرة 131
اللقاء بأوتافيو 145
ليديا 153
الرجُل 175
المأوى في الرجُل 181
الأفعى 193
رحيل الرجال 207
الرحلة 215

«كان وحيدًا. مُهمَلًا، سعيدًا وقريبًا من قلبِ الحياة المتوحِّش».

جيمس جويس

الجزء الأوَّل

الأب...

مكتبة
t.me/soramnqraa

آلةُ الأبِ تضرب تِك ـ تِك ...تِك ـ تِك ـ تِك ... تستيقظُ الساعة تِن ـ دْلِن من دون غُبار. يَجرُّ الصمت نفسه زززززز. والخزانة، ماذا تقول؟ ملابس ـ ملابس ـ ملابس. لا، لا. بين الساعة والآلة والصمت، ثمَّةَ أُذنٌ تُنصِت، كبيرة، ورديَّة اللَّون وميِّتة. كانت الأصوات الثلاثة متَّصلةً بضوءِ النهار وصريرِ أوراق الشجر، تفرك بعضها بعضًا بزهوّ.

سَندت جبينها على زجاج النافذة اللَّامع والبارد، تَنظر إلى فناء الجيران الخلفيّ، حيث العالم الكبير للدجاجات ـ التي ـ لم ـ تكن ـ تعلم ـ أنَّها ـ ستموت. وكأنَّ أنفها قريبًا جدًّا من الأرض الساخنة، كانت قادرةً من موقعها على استنشاق تلك الرَّائحة الكريهة والجافَّة ذاتها، مُدركةً، مدركةً تمامًا أنَّ دودةً تَتمطَّى باطمئنانٍ قبل أن تأكلها دجاجةٌ سيأكلها بدورهم الناس.

مرَّت لحظةٌ شديدةُ الوطأة، ثقيلةٌ كأنَّها الأبد، خاوية. توسَّعت حدقتاها، وانتظرت. لا شيء، بَياض وحسب. لكنْ فجأةً، اهتزَّ كلُّ ما

حولها، أُعيدَ تشغيل النهار مرَّةً أخرى. فها هي الآلة تخبّ، وسيجارة الأب تُعبّ، والصمت وأوراق الشجر والدجاج العاري والضوء، الأشياء منتعشةٌ نشيطةٌ مثل إبريق ماءٍ يَغلي على النار. لم يكن ينقص سوى تِن ـ دْلن الساعة، الذي كان يضفي رونقًا على الأشياء. أغمضَت عينيْها، وتظاهرتْ بسماعه وبسماع صوت موسيقى إيقاعيَّةٍ غير موجودة. ارتفعت على أصابع قدميْها، وخطَت ثلاث خطواتٍ راقصة، خفيفةً جدًّا، ومجنَّحة.

ثمَّ ما لبثت أن نظرَت بدهشةٍ إلى كلِّ شيءٍ باستياءٍ، كأنَّها تناولت الكثير من ذلك المزيج العجيب غير المتجانس. «مَرْحبًا، مَرْحبًا، مَرْحبًا...»، تمتمت مُتعَبة: «ما الذي سيحدث الآن، الآن، الآن؟». وكالعادة، لبرهةٍ من الوقت ، لن يحدث شيءٌ إذا ظلَّت تنتظر ما سيحدث، أتفهم؟ أبعدَت عن رأسها تلك الفكرة الصَّعبة، وتسلَّت بحركةِ قدمها العارية على الأرضيَّة الخشبيَّة المغبرَّة. فركتْ قدمها ونظرتْ إلى والدها بطرفِ عينها، مترقِّبةً نظرته الحانقة. لكنَّ شيئًا لم يحدث. لا شيء، لا شيء. من الصعب شفْطُ الناس كما تفعل المكنسة الكهربائيَّة.

ـ أبي، لقد ألَّفتُ قصيدة.

ـ ما عنوانها؟

ـ «أنا والشمس» ـ وبعد توقُّفٍ طفيف، باشرت بالإلقاء: «أكلت دجاجات الفناء دودتَيْن، لكنَّني لم أرهما».

ـ حسنًا، وما علاقتكما، أنتِ والشمس، بالقصيدة؟

نظرَت إليه لبرهة. لم يفهم...

ـ الشمس تسطع على الديدان، يا أبي، وأنا التي ألَّفتُ القصيدة ولم أرَ الديدان... ـ ثمَّ صمتَت قليلًا قبل أن تضيف:

ـ يمكنني تأليف قصيدةٍ أخرى، الآن، الآن: «يا شمس، تعالي العبي معي»، وقصيدةٍ أطول أيضًا: «رأيتُ غيمةً صغيرة، مسكينةٌ الدودة، لا أظنُّ أنَّها رأتها».

ـ شِعرٌ جميل، يا صغيرتي، جميل، كيف يُصنَع شعرٌ جميلٌ كهذا؟

ـ ليس صعبًا، يكفي أن تتفوَّه بالكلمات...

كانت قد نزعت زيَّ دميتها وألبسَتها ملابس جديدة، تخيَّلتْها ذاهبةً إلى حفلةٍ حيث ستتألَّق بين البنات الأخريات. دهسَت سيَّارةٌ زرقاء أرليت، ممَّا أدَّى إلى مقتلها. ثمَّ جاءت الجنِّيَّة وأعادتْها إلى الحياة. ابنتها، الجنيَّة، السيَّارة الزرقاء، لم تكن كلُّها سوى جوانا ذاتها، وإلَّا لكانت اللُّعبة مملَّة. لطالما عثرت على طرقٍ لتمنحَ نفسها الدور الرئيسيَّ في الحكاية، لا سيما عندما تضع الأحداث شخصيَّةً ما في دائرة الضوء. كانت تستخدُم ذراعيها بجدٍّ وصمت. ولم يكن ضروريًّا أن تكون قريبةً من أرليت لكي تلعب معها. ومع أنَّها تمتلك العديد من الأشياء، إلَّا أنَّها لا تزال تستمتع بقطع الكرتون. تحدِّق بها للحظةٍ فتصير كلُّ قطعةٍ منها تلميذة. تلعبُ جوانا دور المعلِّمة، وأمَّا التلميذات، فواحدةٌ جيِّدةٌ وأخرى سيِّئة. نعم، نعم، إذن، ماذا؟ ماذا الآن، الآن؟ وكالعادة، لن يحدث أيُّ شيءٍ لطالما أنَّها... هناك.

اختلقَت رجلًا صغيرًا بحجم سبَّابتها، يرتدي سروالًا طويلًا وربطة عُنق. وضعَته في جيب زيِّها المدرسيّ. كان الرجل الصغير طيِّبَ القلب حقًّا: لطيفٌ، صوته عميق، وكان يقول من داخل جيبها: «يا جلالة الملكة جوانا، هلَّا تتلطَّفين عليَّ، فتُعيريني سمعك لدقيقةٍ واحدةٍ، دقيقةٍ واحدةٍ لا غير؟ هل تسمحين لي بمقاطعة حضرتك المشغولة؟»، ثمَّ يُعلن: «أنا في خدمتِك، أيَّتُها الأميرة. شبَّيْكِ لبَّيكِ!».

ـ أبي، ماذا أفعل، يا أبي؟

ـ التفتي إلى واجباتك الدراسيَّة.

ـ لقد أنجزتها كلَّها.

ـ اذهبي للعب.

ـ لعبت أيضًا.

ـ إذن، لا تضايقيني!

دارت حول نفسها ثمَّ توقَّفت ساكنة، تراقب من دون اكتراثٍ السقف والجدران التي أخذت تدور وتتلاشى. مشتْ على أطراف أصابعها، تدوس بخفَّةٍ ألواح الأرضيَّة المُظلمة. أغمضت عينيْها ومشتْ باسطةً ذراعيْها إلى الأمام إلى أن اصطدمت بقطعة أثاثٍ ما. لكن ثمَّة ما يحول بينها وبين الأشياء: كلَّما قبضَت على شيء، كذُبابةٍ مثلًا، ثمَّ ألقت نظرةً خاطفةً عليه ـ مع أنَّها تحرص على عدم السماح لأيِّ شيءٍ بالهروب ـ فإنَّها لا تجد سوى يدها ورديَّة اللَّون وخائبة الرجاء. (أجل، أعلم، أعلم أنَّه الهواء، الهواء! لكن ما النفع منه، فهو لا يُفسِّر الأشياء). وكان ذلك أحد أسرارها إذ لم تسمح لنفسها بالبوح، ولا حتَّى لوالدِها، بأنَّها لا تتمكَّن أبدًا من القبضِ على «الشيء». كلُّ الأشياء المهمَّة فعلًا كانت عصيَّةً على القول. لا تتحدَّث إلَّا بالهراء مع الناس، حتَّى عندما تُسِرُّ لروث ببعض الأمور، فكانت سرعان ما تغضب من ذلك. كان من الأجدى التزام الصمت. وهناك أيضًا شيءٌ آخر: حينما تشعر بألمٍ ما، تراقب عقارب الساعة متألِّمة، فترى الدقائق تمر بينما الألم يستمرّ. أو حتَّى عندما لا يؤلمها أيُّ شيء، كانت تقف أمام الساعة مختلسةً النظر، حيث يكون كلُّ

ما لا تشعر به أكبر من الدقائق التي تحسبها الساعة. وفي حالات الغبطة أو الغضب ، فكانت تركض إلى الساعة وتراقب الثواني عبثًا.

مشت إلى النافذة، ورسمت صليبًا على حافَّتها وبصقت إلى خارج العلامة في خطٍّ مُستقيم. لو بصقت مرَّةً أخرى ـ ولكن لن تستطيع أن تفعل ذلك مرَّةً أخرى إلَّا في الليل ـ لما حلَّت الكارثة. عندها سيكون اللّٰه صديقًا مميَّزًا لها، صديقًا مميَّزًا بحقٍّ بمقدوره أن.. أن، ماذا؟

ـ أبي، ماذا أفعل؟

ـ كما قلت لك من قبل، اذهبي والعبي واتركيني وشأني!

ـ لكنَّني لعبت، أقسم لك.

ضحك والدها، وقال:

ـ لكنَّ اللَّعب لا ينتهي.

ـ بلى، ينتهي.

ـ اختلقي لعبةً أخرى.

ـ لا رغبةَ لي باللَّعب ولا بالدَّرس.

ـ حسنًا، ماذا تريدين أن تفعلي؟

فكَّرت جوانا بالأمر.

ـ لا شيء ممَّا أعلمه...

ـ هل تريدين أن تطيري؟

سألها والده بذهنٍ شارد.

ـ لا، أجابت جوانا، وصمتت لبرهةٍ ثمَّ قالت ماذا أفعل؟

رعد والدها هذه المرَّة:

ـ اضربي رأسك بالحائط!

اِبتعدت وهي تجدِّل بعض شعرها الأملس الطويل، وتردِّد بصوتٍ خفيض: «أبدًا، أبدًا، أبدًا، أجَل، أجَل!». كانت قد تعلَّمت مؤخَّرًا كيف تُسوِّي الجديلة. مشتْ حتَّى الطاولة الصغيرة، حيث تضع كتبها، ولعبت معها متأمِّلةً بها عن بعد. ربَّة منزل، زوج، أولاد، الأخضر للرجل، الأبيض للامرأة، القرمزيُّ يمكن أن يكون ابنًا أو ابنة. هل «أبدًا» للرجل أو للمرأة؟ لمَ لا يكون الـ«أبدًا» ابنًا أو ابنة؟ وماذا عن «أجَل»؟ آه، هناك أشياء كثيرةٌ مستحيلة. من الممكن قضاء فترة الظهيرة بأكملها في التَّفكير. مثلًا: من كان أوَّل الناطقين بـ: «أبدًا»؟

أنهى والدها عمله ووجدها جالسةً تبكي.

ـ ما بك، يا صغيرتي؟ حملها ونظر من دون اندهاشٍ إلى وجهها الصغير، المتوهِّج الحزين ـ ماذا جرى؟

ـ ليس لديَّ ما أفعله.

أبدًا، أبدًا، أجَل، أجَل! يكون كلُّ شيءٍ مثل ضجيج الترام قبل النوم إلى أن تشعر بالخوف قليلًا فتغفو. يطبِقُ فم الآلة الكاتبة كفم امرأةٍ عجوز، وكان كلُّ ذلك يُسرِّع ضربات قلبها مثل ضجيج الترام، إلَّا أنَّها لم تتمكَّن من النوم. إنَّه عناقُ الأب. يتأمَّل الأب قليلًا: (لكن لا أحد يمكنه فعلُ كلِّ شيءٍ تجاه الآخرين، علينا أن نساعدهم. ما زالت صغيرةً تركض بحرِّيَّة، هزيلة، ومبكِّرة....). تنهَّد بسرعةٍ وهزَّ رأسه. بيضةٌ صغيرة، أجل، بيضةٌ صغيرةٌ حيَّة. ماذا سيحدث لجوانا؟

يومُ جوانا

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنَّه اليقين بأنَّني قادرةٌ على الشرّ، فكَّرت جوانا.

وإلَّا ما هو هذا الإحساس بطاقةٍ محبوسة، مستعدَّةٍ للتفجُّر بالعنف، وتلك الرَّغبة بالانصياع كلِّيًّا، بعينيْن مغمضتيْن وثقةٍ طائشة، للوحش؟ أليس في الشرّ وحدَه يمكن للإنسان التنفُّس من دون خوف، قابلاً الهواء ووبرأتيْهِ؟ حتَّى اللَّذة بعيْنها ستكون عندي في ذروتها إذا ما كانت نابعةً من الشرّ، فكَّرتْ متفاجئة. شعرتْ بوجود وحشٍ في داخلها، مليءٍ بالتناقضات والأنانيَّة والحيويَّة.

فكَّرتْ بزوجها، الذي كان سيستغربها بسبب تلك الخواطر. حاولت أن تتذكَّر هيئة أوتافيو. لكن في اللحظة التي شعرت فيها أنَّه غادر المنزل، تغيَّرت، وركَّزت على نفسها، وكأنَّه قد استوقفها لبرهة، قبل أن تستمرَّ في عيش خيط طفولتها. تنساه، وتتنقلُ من غرفةٍ إلى أخرى بوحدةٍ عَميقة. لا يصلُها من الحيِّ الهادئ ولا من المنازل البعيدة أيُّ صوتٍ. وعند شعورها بالحرِّيَّة، لم تعرف هي نفسها بمَ تُفكِّر.

نعم، شعرت بوجود حيوانٍ مثاليٍّ في داخلها. تشمئزُّ لمجرَّد التفكير بإطلاق سراحه. رُبَّما تَخوُّفًا من نقصٍ في الجماليَّة. أو هو الخوف من الوحي.... لا، لا! تُكرِّر، يجب ألَّا تخافي من الإبداع. هناك في الأعماق، قد يشمئزُّ منها الحيوان نفسه، لأنَّها ما زالت ترغب في إرضاءِ شخصٍ قويٍّ مثل عمَّتها الميِّتة، وبأن تكون محبوبةً من قبلها، فيسرع بعد ذلك إلى دعسها، وإلى نبذها من دون أدنى تفكير. ولأنَّ أفضلَ جملة، وهي دومًا الأكثر طراوة، كانت: (يثيرُ الخير فيَّ الرغبةَ بالتقيُّؤ). الخير فاترٌ خفيف. تفوح منه رائحة اللَّحم النيء المحفوظ منذ مدَّة لكن لمَّا يَفسد بعد، لذا من الممكن إنعاشه بين وقتٍ وآخر إذا ما مزجته بالقليل من التوابل المناسبة: قطعةٌ من اللحم، فاترةٌ هادئة.

في أحد الأيَّام، قبل زواجها، وعندما كانت عمَّتها لا تزال على قيد الحياة، شاهدت رجلًا جشِعًا يأكل. اختلست النظر إلى عينيْه المنتفختيْن، اللَّامعتيْن والغبيَّتيْن، وهما تحاولان ألَّا تضيِّعا أدنى أثرٍ للنكهة. ويداه، يداه! واحدةٌ تُمسك بشوكةٍ غرز فيها قطعة لحمٍ دامية ـ ليس لحمًا فاترًا هادئًا، لكن حيًّا، ساخرًا، فاجرًا ـ واليد الأخرى تحفُّ بالشرشف، تخدشه بعصبيَّةٍ أثناء إصراره على التهام لُقمةٍ أخرى. كانت قدماه تحت الطاولة تدقَّان لحنًا غير مسموع، موسيقى الشيطان، عنفٌ صافٍ وغير محسور. وأمَّا الشراسة، فتعدَّدت ألوانها... حول شفتيْه وعند قاعدة أنفه، احمرار، وتحت عينيْه الصغيرتيْن، اصفرارٌ وزُرقة. رجفت، اقشعرَّ بدنها وهي جالسةٌ أمام فنجان قهوتها البسيط. ولكنَّها لن تعرف لاحقًا ما إذا كان ذلك بدافع الاشمئزاز أم الانبهار والشهوة. كلاهما، بلا شكّ.. كانت تعرف أنَّ ذلك الرجل شديدُ القوَّة. لم تشعر بأنَّها قادرةٌ على تناول الطعام مثلما فعل؛

كانت بطبيعة الحال رصينة، لكنَّ الاستعراض أربكها. كانت تنفعلُ أيضًا أثناء قراءة رواياتٍ مُقزِّزةٍ يكون فيها الشرُّ باردًا وقاسيًا، كأنَّه حوضٌ مليءٌ بمياهٍ متجمِّدة. وأيضًا، حينما تشاهد أحدهم يشرب الماء، تكتشف أنَّها عطشانةٌ كثيرًا منذ زمن. رُبَّما كان مُجرَّدَ نقصٍ في الحياة: كانت تعيش أقلَّ ممَّا تستطيع، وتتخيَّل أنَّ عطشها يتطلَّب فيضانات. رُبَّما مجرَّدَ رشفاتٍ قليلة... آه، إليكِ هذا الدرس، سوف تتعلَّمين منه. كانت عمَّتها ستقول: (لا تمضِ قُدُمًا أبدًا، ولا تختلسي النظر أبدًا قبل التأكُّد من أنَّ ما تريدين سرقته موجودٌ في مكانٍ ما ومُحلَّلٌ لك). أم لا؟ السرقة تجعل كلَّ شيءٍ أكثرَ قيمة. طعم الشرّ ـ المضغ الأحمر، ابتلاع النار الحلوة.

(لا للاتِّهام. يجب البحث عن أساس الأنانيَّة: كلُّ شيءٍ ليس أنا لا يثير اهتمامي، فمن المستحيل أن يكون هناك أكثر ممَّا أنا عليه ـ ومع ذلك، أتجاوز نفسي حتَّى عندما لا أهذي، فأنا أكثر من نفسي عادة؛ لديَّ جسدٌ وكلُّ ما أفعلُه هو استمرارٌ لبدايتي، فإن كانت حضارة المايا لا تهمُّني، فذلك لأنَّني لا أملك شيئًا في داخلي يمكنه التواصُل مع نُقوشِها البارزة. أنا أقبل بكُلِّ ما يأتي منِّي لأنَّني لا أدرك الأسباب، ومن الممكن أنَّني أدوس شيئًا حيويًّا من دون علمي بذلك. هذا هو تواضعي الأعظم)، هذا ما فكَّرَت به.

والأسوأ من ذلك كلِّه، أنَّ بوسعها شطب كلِّ ما فكَّرت فيه للتوّ.. فبمُجرَّد تشييدها لأفكارها، تتحوَّل هذه بدورها إلى تماثيل في الحديقة، تنظر إليها إذ تعبر الحديقة ماضيةً في طريقها.

كانت مبتهجةً في ذلك اليوم، وجميلةً أيضًا. ومصابةً بقليلٍ من الحمَّى. لِمَ هذه الرومانسيَّة؟ قليلٌ من الحمى؟ (في الحقيقة، هذا

وضعي: عينان مُتوهِّجتان، وقوَّةٌ وضعف، ونبضات قلبٍ مُضطربة). يلفح جسدَها نسيمٌ خفيف، نسيم الصيف، فترتجف بردًا وحرارةً في آنٍ معًا. ثمَّ خطر في ذهنها، بسرعةٍ كبيرة، أنَّها لا تستطيع التوقُّف عن الابتكار. (ذلك لأنَّني ما زلت صغيرةً جدًّا، وكلَّما لمسوني أو لم يلمسوني، أشعر)، تأمَّلَت. تُفكِّر الآن مثلًا بجداول شقراء، أجل، بالضبط، لأنَّ هذه الأخيرة غير موجودةٍ في الواقع. (أرأيتِ؟ وهكذا يكون الهروب. أجل، ولكن ماذا عن تلك الجداول التي ذهَّبتها الشمس، هي شقراء بطريقةٍ ما... يعني في الحقيقة أنا لم أتخيَّل ذلك من فراغ). إنَّها دائمًا الوقعة نفسها: لا الشرُّ ولا الخيال. في الشرّ، في المركز النهائيّ، هناك الشعور البسيط والخالي من الصفات، أعمى كحجرٍ متدحرج. وفي الخيال، وهو وحده يملك قوَّة الشرّ، ليس هناك إلَّا الرؤية الموسَّعة والمتحوِّلة: وتحتها، الحقيقة الجامدة. الكذب فالتعثُّر بالحقيقة. وحتَّى في نطاق حُرِّيَّتها، وعند اختيارها لطرُقٍ جديدةٍ مُبهجة، لم تكن تستوعبها إلَّا لاحقًا. أن تكون حرَّةً يعني أن تتبع نفسها، وها هي مرَّةً أخرى في المسار نفسه. لا ترى إلَّا ما في داخلها. لقد فقدَت طعمَ التخيُّل. (ماذا عن اليوم الذي بكيتُ فيه؟ شعرتُ برغبةٍ مُعيَّنةٍ في الكذب أيضًا ـ كنت أدرس الرياضيَّات وشعرتُ فجأةً بالاستحالة الهائلة والباردة للمعجزة. أنظرُ من خلال هذه النافذة والحقيقة الوحيدة، الحقيقة التي لم أستطع قولها لذلك الرجل، مُوقِفةً إيَّاه، من دون أن يهرب منِّي، الحقيقة الوحيدة هي أنَّني أعيش. بإخلاص، أنا أعيش. من أنا؟ حسنًا، هذا كثير. أتذكَّر دراسةً لونيَّةً أنجزها باخ فيتوه ذهني. إنَّها باردةٌ نقيَّةٌ مثل الجليد، ومع ذلك بمقدور المرء النوم عليها. أفقد الوعي، لكن لا يهمّ، إنَّني أجد صفاءً أكثر في الهلوسة. عجيبٌ انعدام قدرتي على قول من أنا، أقصد،

أنا أعرف كلَّ شيءٍ جيّدًا، لكنَّني لا أستطيع قوله. وأخشى قوله أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، لأنَّ في اللَّحظة التي أحاول فيها القول، لا أفشل في التعبير عمَّا أشعر به فحسب، بل ما أشعر به يتحوَّل ببطءٍ إلى ما أقوله. أو، على الأقلّ، إنَّ ما يُحرِّكني ليس ما أشعر به، بل ما أقوله. أنا أشعر بمن أنا والانطباع موجودٌ في أعلى جزءٍ من دماغي، على شفتيّ ـ خاصَّةً على لساني ـ، على بشرة ذراعيّ، كما وأنَّه يسري في أعماق جسدي، لكن أين؟ أين بالضبط؟ لا أستطيع القول. الطعم رماديّ، أحمر قليلًا، وأزرق قليلًا في الأجزاء القديمة. ويتحرَّك مثلَ الهُلام، ببطء. ويصير حادًّا أحيانًا، فيجرحني ويصطدم بي. حسنًا، التَّفكير الآن بسماءٍ زرقاء، لكن قبل كلِّ شيءٍ من أين يأتي هذا اليقين أنَّني على قيد الحياة؟ لا، أنا لستُ على ما يرام. لأنَّ لا أحد يسأل نفسه هذه الأسئلة وأنا... لكن يكفي أن تهدأ من أجل أن ترى فقط، فَتحْتَ كلِّ الحقائق، تكمُن الحقيقة الوحيدة غير القابلة للاختزال وهي حقيقة الوجود.. وتحتَ كلِّ هذه الشكوك ـ الدِّراسة اللونيَّة ـ أعلم أنَّ كلَّ شيءٍ مثاليٌّ لأنَّه يتبع، درجةً تلو أخرى، مساره المصيريَّ فيما يتعلَّق بنفسه. لا شيء يُفلِت من كمال الأشياء. وهذه هي حالُ كلِّ شيء. لكنَّ هذا لا يُفسِّر لماذا أنفعلُ عندما يسعل أوتافيو ويضع يده على صدره، هكذا؛ أو عندما يُدخِّن ويسقط الرماد على شاربه من دون أن يلاحظ. آه، إنَّها الشفقة إذن، فهي كلُّ ما أشعر به بعد ذلك، الشفقة هي طريقتي في المحبَّة، وفي الكراهية والتواصل. هي ما يدعمني ضدَّ العالم، تمامًا كما يعيش شخصٌ بالرَّغبة، وآخر بالخوف. الشفقة على الأشياء التي تحدث من دون عِلمي، لكنَّني مُتعبة، على الرَّغم من ابتهاجي اليوم، ابتهاجٌ لا أفقَهُ مصدرَه، مثل أصبوحةٍ صيفيَّة. أنا متعبة، وبشدَّةٍ الآن! دعنا نبكي معًا

بخفوت. لأنَّنا عانينا، لكنَّنا مضينا بلطف. وجعٌ تعِبٌ في دمعةٍ سَهلة. أمَّا الآن، فإنَّه التوق للشِّعْر، وأنَّني أعترفُ بهذا، يا إلهي. دعنا ننام كفًّا بكفّ. يتدحرج العالم وفي مكانٍ ما؛ هناك أشياء لا أعرفها. دعنا ننام على الإله وعلى السرّ. سفينةٌ هادئةٌ وهشَّةٌ تطفو على البحر، هو النوم).

لماذا كانت ساخنةً وخفيفةً للغاية، مثل الهواء الذي يأتي من موقدٍ يُرفَعُ غطاؤه؟

كان اليوم مثل أيِّ يومٍ آخر وربَّما هذا ما يُسبِّب تراكم الحياة. كانت قد استيقظت مليئةً بضوء النهار الذي اجتاحها. كانت لا تزال على السرير، فكَّرت في الرمال والبحر، وشرب مياه البحر في منزل عمَّتها الراحلة، وفي الشعور، لا سيما الشعور. انتظرَتْ بضع ثوانٍ على السرير، ولأنَّ شيئًا لم يحدث، عاشت يومًا عاديًّا. لم تكن قد تحرَّرَت بعدُ من الرَّغبة ـ القوَّة ـ المعجزة، منذ صغرها. تَكرَّرت الصيغة مرارًا وتكرارًا: الشعور بالشيء من دون امتلاكه. كلُّ ما تحتاجه هو أن توافقها الأمور، أن تجعلها خفيفةً وصافيةً وصائمةً من أجل الحصول على الخيال. وهذا صعب، مثل الطيران، ومثل أن تتلقى مترنِّحةً بين ذراعيْها شيئًا ثمينًا للغاية، طفلًا، على سبيل المثال. على الرَّغم من وجودها وحدَها عند نقطةٍ ما من اللعبة، كانت تفقد الإحساس بأنَّها تكذب ـ وتخشى غيابها عن جميع أفكارها. رغبتْ بالبحر وتحسَّستْ الشراشف على السرير. استمرَّ النهار وقد تركها وراءه وحيدة.

كانت لا تزال مستلقيةً بصمت، من دون تفكير، كما يحدث أحيانًا. تأمَّلتْ المنزل المليء بأشعَّة الشمس، كانت النوافذ حينذاك شامخةً ولامعةً كما لو كانت هي الضوء نفسه. سبق لأوتافيو أن خرج

بالفعل. لا أحد في المنزل، ولا أحد في داخلها كذلك، مِمَّا يفسح المجال للأفكار الأكثر انفصالًا عن الواقع، في حال رغبت بذلك. (إن نظرتُ إلى نفسي على الأرض، من النجوم العالية، لخَلَوْتُ من نفسي). ليس ليلًا، ولا نجوم، ومن المستحيل رؤية الذات من هذه المسافة. شرد ذهنها، تذكَّرت شخصًا ما ـ أسنانه كبيرةٌ ومتفرّقة، عيناه من غير رموش، يقول واثقًا من طرافة قوله، لكن بإخلاص: (حياتي ليليَّةٌ بصورةٍ هائلة). بعد انتهائه، يظلُّ ذلك الشخص واقفًا هناك، هادئًا كعجلٍ في الليل، يُحرِّك رأسه من وقتٍ لآخر بطريقةٍ غير منطقيَّة، أو بدون هدف، ثمَّ يعود إلى التَّركيز على الغباء. ملأ العالم بالذهول. آه، ذلك الشخص، كان رجلًا من أيَّام طفولتها، وفي ذاكرتها، باقةً رطبةً من البنفسج الكبير، يرتجف بالنضارة. في تلك اللحظة، وكانت أكثر وعيًا، لو أرادت، ولو سمحت لنفسها بالتنحّي، لتمكَّنت من استعادة طفولتها بأكملها... الوقت القصير الذي قضته مع والدها، والانتقال إلى منزل عمَّتها، والمعلِّم الذي علَّمها العيش، والبلوغ الذي يتصاعد بوتيرةٍ غامضة، والمدرسة الداخليَّة... زواجها من أوتافيو... لكن كلُّ ذلك كان أقصر بكثير، ومجرَّد نظرةٍ مفاجئةٍ بسيطةٍ كانت قادرةً على استنزاف كلِّ تلك الوقائع.

أجل، كانت محمومةً قليلًا. لو كانت الخطيئة موجودة، فقد أخطأت. كلُّ حياتها كانت خطأ، كانت تافهة. أين المرأة ذات الصوت؟ أين النساء اللواتي كنَّ مُجرَّد إناث؟ وماذا عن استمرار ما كانت عليه عندما كانت طفلة؟ حمَّى خفيفة، نتيجة تلك الأيَّام التي تشرَّدت فيها من مكانٍ إلى آخر، تنبذ الأشياء ذاتها وتحبُّها ألف مرَّة. من بين تلك

الليالي التي تعيشها في ظلامٍ وصمت، تغمز النجوم الصغيرة في الأعالي. الشابَّة مُستلقيةٌ على السرير، عينٌ يقظةٌ في العتمة. والسرير الأبيض الضبابيُّ يسبح في الظلام. التعب يزحف على جسدها، وصفاء الذهن يتجنَّب الأخطبوط. أحلامٌ رثَّة، وبِداياتُ أحلام، وأوتافيو يقطن في غرفة النوم الأخرى، وفجأةً كلُّ تراخي الانتظار يتركَّز على حركة جسمٍ سريعةٍ وعصبيَّة، فصرخةٍ صامتة، ثمَّ البرد، فالنوم.

...الأمّ...

ذات يوم، زارهم صديق الأب، تعانقا بقوَّة، وعند العشاء، حدَّقت جوانا مذهولةً ومشفقةً على دجاجةٍ صفراء عاريةٍ على الطاولة. كان والدها والرجل يشربان النبيذ، ومن وقتٍ إلى آخر كان الرجل يُردِّد:

ـ لا أستطيع أن أصدِّق أنَّك دبَّرت لنفسِك ابنة..

يلتفت الوالد ضاحكًا إلى جوانا، ويقول:

ـ لقد ابتعتُها عند زاوية الشارع...

كان والدها مُبتهجًا وجادًّا في الوقت نفسه، وكان يمعس الخبز بأصابعه ويحوّله إلى كُرات. ويحتسي بين فينةٍ وأخرى رشفةً كبيرةً من النبيذ. التفتَ الرجل إلى جوانا، وسألها:

ـ هل تعلمين أنَّ الخنازير تقول خِن، خِن، خِن؟

أجاب والدها:

ـ لديْك موهبةٌ لهذا، يا ألفريدو...

كان اسم الرجل ألفريدو.

تابع والدها: ألم تلاحِظ أنَّ الفتاة أكبر من أن تلعب بما «تقوله» الخنازير...

ضحكوا جميعًا وكذلك جوانا. أعطاها والدها جناحَ دجاجٍ آخر، فأكلته من دون خبز.

ـ ما شعورك بأن تكون لديْك ابنة؟ سأل الرجل وهو يمضغ.

مسح والدها فمه بمنديله، وأمال رأسه جانبًا، وقال مبتسمًا:

ـ أحيانًا أشعرُ وكأنَّني أُمسك ببيضةٍ ساخنةٍ في يدي، وأحيانًا أخرى، بلا شيء: فقدانٌ كلِّيٌّ للذاكرة... وفي بعض الأحيان، أشعر بأنَّ لديَّ فتاةً خاصَّتي، فعلًا لي.

ـ فتاة، فتاة، فلاة، فناة، قطاة... غنَّى الرجل ناظرًا إلى جوانا.

ـ ماذا تريدين أن تكوني عندما تكبرين وتصيرين صبيَّة؟

ـ ليس لديْها أدنى فكرةٍ عن أيِّ شيءٍ، يا صديقي، قال والدها، ولكن إن لم يكن ذلك سيحزنها فيمكنني أن أخبرك بخططها. أخبرتني أنَّها تريد أن تصير بطلةً عندما تكبر...

ضحك الرجل كثيرًا من دون توقُّف. توقَّف فجأةً، وأمسك بذقن جوانا، وخلال ذلك لم تتمكَّن من المضغ:

ـ لن تبكي لأنَّ سرَّك خرج من الحقيبة، أليس كذلك، يا فتاة؟

دارَ حديثٌ عن أشياءٍ جرت بالتَّأكيد قبل ولادتها. وكذلك عن أحداثٍ عاديَّةٍ يوميَّة، مُجرَّد كلمات ـ وكلُّها من مرحلة ما قبل ولادتها.

كانت تُفضِّل ألفَ مرَّةٍ لو أمطرَت، لأنَّ النوم أسهلُ بكثيرٍ عندما لا تَخشى الظلام. بحث الرجلان عن قُبَّعتيْهما يريدان الخروج، فنهضت وشدَّت معطفَ والدها:

ـ أُمكث قليلًا بعد...

تبادل الرجلان النظر وكانت لحظةً لم تكن أكيدةً فيها من أنَّهما باقيان أو مغادران. لكن عندما أظهرا بعض الجدِّيَّة ثمَّ ضحكا سويًّا، عرفت أنَّهما سيبقيان. على الأقلّ إلى أن يَتسرَّب النُّعاس إليها إلى درجة أن تغفو من دون صوتِ المطر، ومن دون صوتِ الناس، ومن دون التَّفكيرِ في أنحاء المنزل الأسود، الفارغ، الصامت.

جلسا ودخَّنا.. بدأ الضوء يغمز في عينيْها وفي اليوم التالي، بمجرَّد نهوضها من النوم، سوف تلقي نظرةً خاطفةً على فناء الجيران لتتفقَّد الدجاجات لأنَّها اليوم أكلت دجاجًا مشويًّا.

ـ لم أقدِر على نسيانها، قال الوالد. لا يعني ذلك أنَّني كنت أفكِّر بها من دون تَوقُّف. مجرَّدُ تفكيرٍ عابرٍ من وقتٍ إلى آخر، مثل ملاحظةٍ تذكيريَّةٍ للتَّفكير لاحقًا. وعندما يصل هذا الـ لاحقًا، لم أكن أوليه الكثير من الاهتمام.. كان مجرَّدَ نخزةٍ طفيفةٍ غير مؤلمة، مثل آه! غير مُحاكة، لحظة تأمُّلٍ مُبهمةً يليها النسيان. كان اسمُها... نظرَ إلى جوانا قبل أن يُكمِل.. إلزا. ما زلت أذكر أنَّني قلت لها: إلزا، اسمٌ مثل كيسٍ فارغ. كانت مُحنَّكة، غير سويَّة، أنت تعرفُ ما أقصده، أليس كذلك؟ متسلِّطة. سريعةً جدًّا وقاسيةً في استنتاجاتها، مستقلَّةً جدًّا ومريرةً إلى درجةٍ أنَّه في المرَّة الأولى التي تحدَّثنا فيها، وَصفتُها بالفجَّة! تخيَّل... ضحِكَت، ثمَّ استعادَت الجدِّيَّة. وقتئذٍ، حاولتُ أن أتخَّيل ما تفعله في اللَّيل، لقد

بدا لي أنَّه كان مستحيلًا أن تنام. لا، لم تكن لتستسلمَ أبدًا. وذلك اللون الجافّ ـ لحسن الحظّ أنَّ الفتاة لا تُشبِهُها ـ لا يتناسب مع قميصِ نوم... تَقضي اللَّيل مُصلِّية، محدِّقةً في السماء المُظلمة، أو ساهرةً تُعاين أحدهم. إنَّ ذاكرتي ضعيفة، لا أتذكَّر لماذا كنت أُسمِّيها بالفجَّة، ولكنَّها لم تكن ضعيفةً إلى درجة أن أنساها. كنتُ أراها تتمشَّى على الرمال، بخطواتٍ قاسية، بوجهٍ عابس، شارد. الشيء الأكثر غرابة، يا ألفريدو، هو أنَّه لم يكن من المُمكن وجودُ أيِّ رمال. ومع ذلك كانت الرؤية عنيدةً ومقاومةً للتفسيرات.

كان الرجل يُدخِّن، شبهَ مستلقٍ على الكرسيّ. وكانت جوانا تخدشُ بظفرها جلدَ الكرسيِّ الأحمر القديم.

ـ مرَّةً، استيقظتُ في منتصف الليل وكنتُ أشعر بالحمَّى، ما زلت أشعر بلساني في فمي، ساخنًا وجافًّا وخشنًا كقطعة قماش. أنت تعلم كم يُخيفني الألم، أُفضِّل أن أبيعَ روحي. حسنًا، فكَّرتُ بها، شيءٌ لا يصدَّق. كنتُ في الثانية والثلاثين من عمري، إن لم تخُنِّي ذاكرتي. وكنتُ قد التقيت بها بصورةٍ عابرةٍ عندما كنت في العشرين. وفي لحظة كرب، ومن بين العديد من الأصدقاء (ومنهم أنت الذي لم أكن أعلم ما الذي حلَّ بك)، في تلك اللحظة، فكَّرتُ بها، بحقِّ الجحيم!...

ضحك الصديق: فعلًا.. الجحيم!

ـ ليست لديْك أيُّ فكرة: لم أرَ أبدًا شخصًا يَغضبُ من الناس على ذلك النحو، غضبًا حقيقيًّا ممزوجًا بازدراء، وفي الوقت ذاته، طيِّبة، طيِّبةٌ جدًّا! هل أنا مخطئ؟ لم أكن معجبًا بذلك النوع من الطيبة: وكأنَّها تَهزأ منَّا. لكنَّني اعتدتُ على ذلك. لم تكن بحاجةٍ إليَّ، ولا أنا إليها، هذه

هي الحقيقة. لكنَّنا كنَّا دائمًا معًا. أمَّا الذي ما زلتُ أرغبُ في معرفته، وأدفعُ أيَّ شيءٍ مقابل معرفته، هو ما الذي كانت تبالغ بالتفكير به. أنت الذي تَعرِفني جيِّدًا، ستجدني بهذه البساطة مُقارنةً بها. لذا، تخيَّل الانطباعَ الذي تركته على عائلتي الفقيرة والصغيرة: كان الأمر كما لو أنَّني أحضرت إلى حضنها الورديِّ الواسع ـ أتذكر، ألفريدو؟ ضحكا ـ كان الأمر كما لو أنَّني جلبتُ جرثوم الجدريّ، أو كأنَّني كافر، واللَّه أعلم ماذا بعد..... أيًّا كان، اَملُ حقًّا ألَّا تُكرِّرها هذه الطفلة، ولا أنا، من أجل اللَّه... لحسن الحظِّ لديَّ انطباعٌ بأنَّ جوانا ستتبع طريقها الخاصّ.

ـ ثمَّ ماذا؟ سأل الرجل.

ـ ثمَّ... لا شيء. لقد توُفِّيَت حينما استطاعت.

ـ انظُر، ابنتك على وشكِ أن تغفو، فاصنع معروفًا وضعها في السرير.

لكنَّها لم تكن نائمة. عيناها شبه مغمضتين، وقد مالت رأسها إلى جانبٍ واحد، كان ذلك يُعادل تقريبًا هطول المطر، كلُّ شيءٍ مختلطٌ قليلًا. بهذه الطريقة، عندما تستلقي وتسحب الغطاء، ستكون أكثر اعتيادًا على النوم ولن تشعر بالظلام يُثقِل صدرها. خاصَّةً اليوم، وهي خائفةٌ من إلزا. لكن لا يمكن أن تخافي من والدتك. الأمُّ مثل الأب. وبينما كان والدها يحملها إلى الممرِّ المؤدِّي إلى غُرفتها، كانت تميل برأسها نحوَه، تشمَّمت رائحةً قويَّةً وصلتها من ذراعيْه. وقالت، من دون أن تتكلَّم: لا، لا، لا... ولكي تُروِّح عن نفسها فكَّرت: غدًا، أوَّل شيءٍ غدًا، مشاهدة الدجاجات الحيَّة..

ارتجفَ ضوء الشمس الأخير في الخارج على الفروع الخضراء. خدش الحمام الأرض المتربة. من وقتٍ إلى آخر، كان النَّسيم وصمتُ

فناء المدرسة يصلان إلى الفصل الدِّراسيّ. وهكذا صار كلُّ شيءٍ أخفّ، وطفا صوت المعلِّم مثل العلم الأبيض.

ـ وبعد ذلك، عاش مع عائلته بأكملها في سعادةٍ دائمة ـ فاصل ـ حفيف أوراق الشجر في الخارج، كان يومًا صيفيًّا.

حضِّروا مُلخَّص هذه القصَّة للفصل القادم.

لا يزال الأطفال مُنغمِسين في القصَّة، يَتحرَّكون ببطء، نظراتهم خفيفة، وأفواههم راضية.

ـ علامَ نحصل حينما نكون سعداء؟ وكان صوتها سهمًا واضحًا حادًّا. نظرت الأستاذة نحوها:

ـ هلَّا تُكرِّرين السؤال...؟

صمت. ابتسمَت المعلِّمة وهي تُكدِّس الكتب.

ـ اِسألي مرَّةً أخرى، لم أسمعك بوضوح.

ـ أودُّ أن أعلم: بعد أن تكون سعيدًا، ماذا يحدث؟ ماذا يتلو ذلك؟

كرَّرت البنت، بعناد.

حدَّقت المرأة في وجهها مُندهشةً.

ـ يا لها من فكرة! أظنُّ أنَّني لم أفهمْ ما تعنينه، يا لها من فكرة، اطرحي السُّؤال بطريقةٍ أخرى...

ـ الشعور بالسعادة، لكي نحصلَ على ماذا؟

احمرَّ وجهُ المعلِّمة، لم يعلم أحدٌ ما يجعلها تحمرّ. مرَّرت نظرها بكلِّ الفصل وسمحت للتلاميذ بالاستراحة.

جاء البوَّاب لاستدعاء جوانا إلى المكتب. كانت المدرِّسة هُناك.

ـ اجلسي، هل لعبتِ كثيرًا؟

ـ قليلًا..

ـ ماذا تريدين أن تصيري عندما تكبرين؟

ـ لا أعرف.

ـ حسنًا. انظري، لديَّ فكرة، احمرَّ وجهها. خُذي ورقةً واكتبي السؤال الذي طرحته عليَّ اليوم، واحتفظي به لمدَّةٍ طويلة. عندما تكبرين، اقرئيه، نظرَت إليها. من يعرف؟ رُبَّما في يومٍ من الأيَّام ستتمكَّنين من الإجابة عليه بنفسك بطريقةٍ أو بأخرى...

تلاشى تَعبيرُها الجادّ، احمرَّ وجهها. أو رُبَّما لن يكون مُهمًّا، على الأقلِّ سوف تستمتعين بـ ...

ـ لا.

ـ لا، ماذا؟

ـ لا أحبُّ أن أستمتع، قالت جوانا بافتخار.

احمرَّ وجه المدرِّسة ثانية، وقالت:

ـ حسنًا، اذهبي للعب.

عندما وصلَت جوانا إلى الباب في خطوتيْن، نادتْها المدرِّسة، وقد احمرَّ وجهها، حتَّى عنقها هذه المرَّة، عيناها منخفضتان، تُحرِّك أوراقًا على المكتب.

ـ ألا تظنِّين أنَّه كان غريبًا... مُضحكًا أنَّني قلت لك أن تكتبي السؤال للاحتفاظ به؟

ـ لا.

عادت إلى الفناء.

نُزهة جوانا

ـ أنا أشردُ كثيرًا، قالت جوانا لأوتافيو.

تمامًا كما أنَّ المساحة المُحاطة بأربعة جدران لها قيمةٌ مُحدَّدة، غير مُتأتِّيةٍ من حقيقة كونها مساحة، بل من خلال كونها مُحاطةً بالجدران. لقد حوَّلها أوتافيو إلى شيءٍ لم يكن هي، بل هو نفسه، والذي تَلقَّته جوانا بدافع الرأفة على كليْهما، لأنَّهما لم يَتمكَّنا من تحرير نفسيْهما بالحب، وهي قَبِلت الاستسلام لخوفِها من المعاناة، وعدم قُدرَتِها على التصرُّف خارج حُدود العصيان. عدا عن ذلك: كيف تتواصل مع رجلٍ إن لم تسمحْ له بسجنِها؟ كيف تَمنعه من تشييدِ جدرانه الأربعة على جسدها وروحها؟ وهل هناك طريقةٌ للحصول على الأشياء من دون أن تَستملكها الأشياء؟

كانت فترة ما بعد الظهيرة عاريةً صافية، من دون بدايةٍ ولا نهاية. طارت الطيور السَّوداء الرشيقة واضحةً في الهواء الطلق، طارت من دون

أن ترافقها عينُ إنسانٍ ولا بنظرةٍ واحدة. وبعيدًا جدًّا كان الجبل مُعلَّقًا، وسميكًا مُغلقًا. كانت هناك طريقتان للنظر إليه، الأولى أن تتخيَّل أنَّه كان بعيدًا وضخمًا، والثانية أنَّه كان صغيرًا وقريبًا، ولكنَّه في كلِّ حالٍ كان جبلًا غَبيًّا، وبُنِّيًّا وصلبًا. كم كانت تكره الطبيعة أحيانًا. من دون أن تَفقه السَّبب، بدا لها التَّفكير الأخير، المَعْني بالجبل بأنَّه أنجز شيئًا، فضربت بكفِّها على الطاولة بقوَّة: «هذا هو». فذلك الشيء الذي امتدَّ داخل جوانا كجسدٍ كَسول، نحيفٍ وخشن، عميقًا بداخلها، جافًّا تمامًا، مثل ابتسامةٍ عديمة اللعاب، مثل عيونٍ عصبيَّةٍ عافَت النوم، تمَّ توكيده أمام الجبل الواقف. ما لم تستطع استحواذه بيدها يصبح الآن مَجيدًا وعاليًا وحرًّا، وكان من غير المُجدي مُحاولة تلخيصِه: هواءٌ نقيّ، ظهيرة صيف. لأنَّه كان هُناك بالتَّأكيد أكثر من ذلك. انتصارٌ عديمُ الفائدة على الأشجار المورِقة، لا شيء يُقام به من بين كلِّ الأشياء. آه، يا إلهي، هذا، نعم، هذا: لو كان الله موجودًا، لهجر ذلك العالم المُباغِت النظيف للغاية، مثل منزلٍ في يوم السبت، هادئ، خالٍ من الغبار، تفوحُ منه رائحة الصابون. ابتسمَت جوانا. هل لأنَّ منزلًا نظيفًا لامعًا يُشعِرها بالضياع، بالوحشة، مثل دَيرٍ تتوهُ في مَمرَّاته؟ وكانت هناك أشياءُ كثيرةٌ ما زالت تُلاحِظها. وهكذا، لو تَحمَّلت الجليد على الكبد، لعبرتها أحاسيس بعيدةٌ وحادَّةٌ لأفكارٍ مُشرقةٍ وسريعة، وإن كان عليها أن تتكلَّم، فستقول: يا للسموّ، مادَّةً يديْها إلى الأمام، وقد تُغلِق عينيْها.

ـ إذًا، أنا أشردُ كثيرًا، كرَّرت.

شعرَت وكأنَّها غصنٌ جافٌّ مغروزٌ في الهواء. هشّ، مُغطًّى باللحاء القديم. رُبَّما كانت عطشى، لكن لم يكن هناك ماءٌ قريب. وعلاوةً على

ذلك، كان اليقين الخانق بأنَّه إذا احتضنها رجلٌ في تلك اللَّحظة، فلن تشعر بحلاوةٍ ناعمةٍ في أعصابها، ولكن بعصير الليمون يَلدغُها، وجسدها كحطبةٍ بالقرب من النار، مهزومة، جافَّةٍ تُطقطِق. لم تستطع تهدئة نفسها بالقول: مُجرَّد فاصل، ولسوف تأتي الحياة بعد ذلك مثل موجةٍ من الدم، تغسلني، وترطِّب خشبيَ الجافّ. لم تستطع خداع نفسها، فهي متأكِّدةٌ أنَّها كانت حيَّة، وأنَّ تلك اللحظات لم تكن إلَّا ذروة أمرٍ شاقّ، تجربةً مؤلمةً يجب أن تكون مُمتنَّةً لها: تقريبًا كإحساسها بأنَّ الوقت لا يمرُّ فيها وبأنَّها مُتجرِّدةٌ مِنه.

ـ لقد لاحظتُ أنَّك تُحبِّين المشي، قال أوتافيو وهو يلتقط غصنًا يابسًا. في الواقع، كنت تُحبِّين المشي حتَّى قبل أن نتزوَّج.

ـ أجل، كثيرًا، أجابَت.

كان بوسعها أن تُقدِّم له فكرةً ما، فتخلق بذلك علاقةً جديدةً بينهما. كان هذا أكثر ما تحبُّ فعله بصحبة الآخرين. لم تكن مُضطرَّةً لمتابعة الماضي ويمكنها بكلمةٍ واحدةٍ أن تَبتكر مَسارًا للحياة. إذا قالت: أنا حاملٌ في الشهر الثالث، فهذا كافٍ! شيءٌ ما سوف يعيش بينهما. على الرَّغم من أنَّ أوتافيو لم يكن مُحفِّزًا على نحوٍ خاصّ. معه، الاحتمال الأقرب هو الارتباط بما قد حدث. ومع ذلك، تحت نظرته أن «اعفيني، اعفيني»، كانت تفتحُ يدها من وقتٍ إلى آخر وتترك طائرًا صغيرًا يَنطلق فجأة. ومع ذلك، في بعض الأحيان، ربَّما بسبب طبيعة ما كانت تقوله، فإنَّه لا يمتدُّ أيُّ جسرٍ بينهما، بل على العكس، يُولَد فاصلٌ زمنيّ. «أوتافيو»، سألَته بغتة، «هل خطر ببالك يومًا أنَّ نقطة، نقطةً واحدةً من دون أبعاد، هي أقصى درجات العزلة؟ لا يُمكن للنقطة حتَّى

الاعتماد على نفسها، فغالبًا ما تكون خارج نفسها». وكأنَّها ألقت جمرةً على زوجها، بدأت العبارة تقفز من جانبٍ إلى آخر، تلذع كفَّيْه إلى أن تخلَّص منها بعبارةٍ أخرى، باردةٍ مثل الرماد، رمادٍ يُغطِّي الفاصل الزمنيّ: «إنَّها تمطر، أنا جائع، إنَّه يومٌ جميل». رُبَّما لأنَّها لم تكن تُجيد اللّعب. لكنَّها كانت تُحبُّه، تحبُّ طريقته تلك في التقاط الأغصان الجافَّة.

تنفَّست هواء المساء الدافئ اللَّطيف، أمَّا كلُّ ما كان ظمآن فيها فظلَّ متوتِّرًا وصلبًا مثل شخصٍ معصوب العينيْن بانتظار طلقٍ ناريّ.

هبط الليل وظلَّت تتنفَّس بالوتيرة العقيمة نفسها. ولكن عندما بزغ الفجر مُضيئًا غرفة النوم بحلاوة، وبرزت الأشياء طازجة، شعرت بالصباح الجديد يُحبَّب بنفسه من بين الشراشف، فتحت عينيْها. جلست وسط السرير. وشعرت في أعماقها كما لو أنَّ الموت غير موجود، كما لو أنَّ الحبَّ يُمكنه أن يصهرها، كما لو أنَّ الأبديَّة هي التَّجديد.

...العمَّة...

كانت الرِّحلة طويلةً ومن صوب الشجيرات البعيدة وصلتها باردةً رائحة الحرج الرَّطبة.

كان الوقت مُبكِّرًا جدًّا في الصباح ولم يكن لدى جوانا الوقت الكافي لغسل وجهها. بجانبها كانت الخادمة تَتسلَّى ـ بتهجئة الإعلانات في الترام. كانت جوانا قد أسندت صدغها الأيمن على المقعد وسمحت لنفسها بالاستمتاع بضوضاء العجلات الجميل، المنقولة عبر الخشب بنعاس. كانت الأرض تجري بسرعةٍ تحت عينيْها المنخفضتيْن، خاطفة، رماديَّة، مرسومةً بخطوطٍ سريعةٍ عابرة. لو فتحَت عينيْها لرأت كلَّ حجرٍ وانتهى اللُّغز. لذا، أبقتهُما شبهَ مغلقتيْن فبدا لها أنَّ الترام يتسارع أكثر فأكثر جاعلًا ريح الصباح المالحة والعذبة تهبُّ بقوَّة.

كانت قد تناولت القهوة مع كعكةٍ غريبةٍ داكنة ـ بطعم النبيذ والصراصير ـ التي قدَّموها لها بعطفٍ وشفقةٍ إلى درجة أنَّها خجلت من رفضها. ولكنَّها ثقلت الآن في معدتها وجعلتها تشعر بحزنٍ جسديٍّ

بالإضافة إلى ذلك الحزن الآخر ـ الشيء الساكن خلف الستار ـ الذي تنام وتستيقظ معه.

ـ هذه الرمال الغريقة مُهلِكة! تذمَّرت الخادمة.

عبرت الممرَّ الرمليَّ المؤدِّي إلى منزل عمَّتها، مُعلِنًا اقتراب الشاطئ. من تحت حُبيبات الرمل، نبتت أعشابٌ رقيقةٌ داكنةٌ التفَّت بقسوةٍ على سطح البياض الناعم. هبَّت الرياح العاتية من البحر غير المرئيّ، حاملةً الملح والرمل وصوت المياه المُتعب، فأربكت التنانير بين السيقان، ولعقت بشراسةٍ جلد جوانا والخادمة.

ـ رياحٌ بغيضة! تَمتمت الخادمة من بين أسنانِها.

رفعت عاصفةٌ أقوى تنُّورتها إلى وجهها، وكشفَت عن فخذيْها الداكنيْن العضليَّيْن. كانت أشجار جوز الهند ملتويةً بيأسٍ، أمَّا الضوء الذي كان قبل قليلٍ مُحجبًا وعنيفًا، فقد انعكس على الرمال وعلى السَّماء في آنٍ واحد، من دون أن تُظهِر الشمس نفسها بعد. يا إلهي، ماذا حدث للأشياء؟ كان كلُّ شيءٍ يصرخ: لا! لا!

كان مَنزل العمَّة ملجأً لا يدخله الضوء ولا الرياح. جلست الخادمة مُتنهِّدةً في غرفة الدخول القاتمة، حيث، من بين الأثاث الثقيل الداكن، تَوهَّجت قليلًا ابتساماتُ الرجال المؤطَّرين. بقيت جوانا واقفة، بالكاد تتنفَّس تلك الرائحة الفاترة التي جاءت حلوةً وساكنةً بعد هواء المحيط اللَّاذع. العفن والشاي مع السكَّر.

وأخيرًا انفتح باب المنزل من الداخل وانطلقت منه عمَّتها في رداءٍ مزركشٍ بزهورٍ كبيرة، وهبَّت نحوها. وقبل أن تتمكَّن من التحرُّك

للدِّفاع عن نفسها، دُفِنتْ جوانا بين كُتلتيْن من اللَّحم الناعم الدافئ، تهتزَّان وتتأوَّهان. من الداخل، هناك من داخل الظلام، وكأنَّه آتٍ من وراء وسادة، سمعت صوت الدموع:

ـ يا لليتيمة المسكينة...

شعرَت بوجهها يُسحَبُ بعنفٍ بعيدًا عن حضن العمَّة بيديْها السمينتيْن، راقبَتْها لبرهة. وذهبت العمَّة من حركةٍ إلى أخرى دون مرحلةٍ انتقاليَّة، في هزَّاتٍ سريعةٍ وفظَّة. اندلعت موجةٌ جديدةٌ من البكاء في جسدها وتلقَّت جوانا قبلاتٍ موجعةً على عينيْها وفمها ورقبتها. كان لسان العمَّة وفمها ناعميْن ودافئيْن مثل ألسنة الكلاب وأفواهها. أغمضت جوانا عينيْها للحظةٍ وابتلعت غثيانها والكعكة الداكنة ترتفع من بطنها تصحبها رعشةٌ في جميع أنحاء جسدها. سحبت العمَّة منديلًا كبيرًا مُجعَّدًا وتمخَّطت. ظلَّت الخادمة جالسةً هناك، تُحدِّق في اللوحات، بساقين راكدين وفمٍ مفتوح. كان حضن العمَّة عميقًا، يمكن للمرء أن يَدُسَّ يده فيه كما لو كان يُدخِلها في حقيبةٍ ليسحب مُفاجأة، مخلوقًا، صندوقًا، أو أيَّ شيءٍ آخر. عَلا الشهيقُ وتعلَّى، وفاحت من داخل المنزل رائحة الفاصوليا الممزوجة بالثوم. في مكانٍ ما، بلا شكّ، شخصٌ ما سوف يشرب جرعاتٍ كبيرةً من زيت الزيتون. (يمكن لصدْر العمَّة أن يَدفن شخصًا بأكمله!).

ـ اتركيني وشأني! صرخت جوانا بحدَّة، وضربت قدمها على الأرض، توسَّعت عيناها، واهتزَّ جسمها.

انحنت العمَّة على البيانو، وقد فوجئت. فقالت الخادمة:

ـ نعم، من الأفضل أن تَترُكيها، إنَّها مُتعبةٌ فقط.

كانت جوانا تلهثُ بوجهٍ شاحب. توتَّرت. جالت عيناها المظلمتان بقاعة المدخل الصغيرة. كانت الجدران سميكة، كانت مُحاصَرة، مُحاصَرة! رجلٌ من اللَّوحة، رجلٌ حدَّق بها من بين شاربيْه وكان من المُمكن أن يذوب ثديا عمَّتها وينسكبا عليها كالدهن الساخن. دفعت الباب الثقيل وفرَّت.

هبَّت موجةٌ من الريح والرمال نحو القاعة، رفعت الستارة جالبةً نسيمًا مُنعشًا. من خلال الباب المفتوح، كان المنديل على فمها يُغطّي شهيقها وفجأتها ويخفيهما- يا لخيبة الأمل الرهيبة - خلال لحظاتٍ شاهدت العمَّة ساقَي ابنة أخيها النحيلتيْن والعاريتيْن تركضان، تركضان بين السماء والأرض، حتَّى اختفيتا متَّجهتيْن نحو الشاطئ.

بظهر يديْها، جفَّفت جوانا وجهها المبلَّل بالقبلات والدموع. وأخذت نفَسًا عميقًا وكانت لا تزال تشعر بطعم ذلك اللّعاب الفاتر والعطر الحلو الذي جاء من حضن العمّة. غير قادرةٍ على تَحمُّل المزيد، ارتفع الغضب والاشمئزاز في موجاتٍ عنيفةٍ فمالت نحو تجويفٍ بين الصخور وتقيَّأت، بعينين مغمضتين وجسدٍ أليمٍ وانتقاميّ.

كانت الريح تلعقها بوقاحةٍ تقريبًا. أمَّا هي، فكانت شاحبةً وضعيفة، وتنفُّسها خافتٌ، شعرت أنَّ الريح مالحة، مرحة، تجري بجسدها، داخل جسدها، وتُنشِّطه. فتحَت عينيْها قليلًا. هناك في البعيد، يَتلألأ البحر في موجاتٍ قصديريَّة، يكون مُستلقيًا هناك، عميقًا، ضخمًا، صافيًا، ولكن كلَّما اقترب يَصيرُ كثيفًا، وثائرًا، وملتفًّا حول نفسه. ثمَّ، فوق الرمال الصامتة، يتمدَّد، يتمدَّد ... مثل جسدٍ حيّ. وراء المويجات كان البحر - البحر. البحر، قالت بهدوء، صوتها أجشّ.

نزلَت من الصخور، وسارت بتراخٍ عبر الشاطئ الانفراديِّ حتَّى تلقَّت الماء عند قدميْها. قَرفصت وساقاها ترتجفان، وشربت القليل من البحر. وهكذا تمادَت في الاستراحة. في بعض الأحيان، كانت تُبقي عينيْها نصفَ مُغلقة، عند مستوى سطح البحر، تَتردَّد، لقد كان المنظر حادًّا جدًّا ـ فقط الخط الأخضر الطويل، كان يُوحِّد عينيْها بالماء إلى ما لا نهاية. انفجرَت الشمس عبر الغيوم وكان البريق الصغير المتلألئ على المياه عبارةً عن حرائق صغيرةٍ تشتعلُ وتخبو. وكان البحر ينظرُ من وراء أمواجِه، من بعيد، هادئًا، بلا تنهُّد ولا أحضان. كبير. كبير. كبير، فابتسمَت. وفجأة، هكذا تمامًا، وعلى نحوٍ غير مُتوقَّع، شعرَت بشيءٍ قويٍّ في داخلها، شيءٍ مُضحكٍ جعلها تهتزُّ قليلًا. لكنَّ الجوَّ لم يكن باردًا، ولم تكن حزينة، لقد كان شيئًا كبيرًا آتيًا من البحر، ومن طعمِ الملح في فَمها ومنها، من ذاتها. لم يكن حُزنًا، كانت سعادةً فظيعةً تقريبًا... في كلِّ مرَّةٍ كانت تنظر إلى البحر وإلى وميض البحر الهادئ، تشعر بذلك الشدِّ ثُمَّ التراخي في جسدها، في خصرها، في صدرها. لم تكن متأكِّدةً ممَّا إذا كان يجب أن تضحك لأنَّه لم يكن هناك أيُّ شيءٍ مضحكٍ بالضبط. على العكس من ذلك، آه، على العكس من ذلك، فقد كان وراء ذلك، كلُّ ما حدث بالأمس. غَطَّت وجهها بكفَّيْها، وأخذت تنتظرُ بخجلٍ تقريبًا، وشعرت بحرارة ضحكتها وبأنَّ زفيرها يجري امتصاصُه مرَّةً أخرى. انزلَق الماء على قدميْها العاريتيْن، وهو يهدر بين أصابع قدميْها، ويبتعدُ صافيًا، مثل وحشٍ شفَّاف، شفَّافٍ وحيّ ... كانت ترغب بِشربه، بِعضِّه ببطء. أمسكَت به بكفَّيْها المقعَّرتيْن. تلألأ المسبح الصغير الهادئ بصفاءٍ في ضوء الشمس، فَتَرَ، فانزلق، ثمَّ هرب. امتصَّه الرمل بسرعةٍ وظلَّ عَطِشًا كما لو أنَّه لم يشرب الماء من قبل. بلَّلت وجهَها فيه، ومرَّرت لسانها على كفِّها الفارغ المالح. كان الملح والشمس

سهامًا صغيرةً لامعةً تولَدُ هُنا وهناك، تلاذعها وتشدُّ جلد وجهها المبلَّل. زادت سعادتها، التي تجمَّعت في حلقها مثل كيسٍ من الهواء. ولكن الآن كانت سعادةً جدِّيَّة، من دون الرَّغبة في الضحك. لقد كانت سعادةً تكاد تُثير الدموع. (يا إلهي!)، جاءت الفكرة إليها ببطء. من دون خوف، لم يكن رماديًّا ولا مبكيًا كما كان حتَّى الآن، بل عارٍ وصامتٌ تحت الشمس مثل الرمال البيضاء. (مات أبي). (مات أبي). تنفَّست ببطء. (مات أبي). فقط الآن تَحقَّقت من أنَّ والدها قد مات. الآن، بجوار البحر، حيث كان الوميض زخَّاتٍ من أسماك الماء. مات والدها مثلما كان البحر عميقًا! فجأةً فهمَت. شعرَت أنَّ والدها مات، تمامًا مثلما لا يستطيع المرء رؤية أعماق البحر.

لم تكن منهكةً من البكاء. لقد فهمت أنَّ أباها قد انتهى. كان هذا كلَّ شيء. وكان حزنها تعبًا كبيرًا وثقيلًا، دون غضب. سارت برفقته على طول الشاطئ الهائل. نظرت إلى قدميْها الغامقتيْن والرَّفيعتيْن مثل غُصنيْن سويًّا في بياضٍ هادئ، يَغرقان ومن ثمَّ ينتفضان بشكلٍ إيقاعيّ، في نفَسٍ واحد. مشَت، مشَت ولم يكن هناك ما يمكن فعله: لقد مات والدُها.

استلقتْ على بطنها فوق الرمال، تحمي وجهها بيديْها، ولم تترك سوى صدعٍ صغيرٍ للهواء. وشيئًا فشيئًا صار كلُّ شيءٍ داكنًا ثمَّ تكوَّنت هالاتٌ وبقعٌ حمراء وظهرت كُراتٌ ممتلئةٌ ومرتعشة، تنمو وتنكمشُ ببطء. عقصت حبَّات الرمل بشرتها، واندفنت فيها. حتَّى وهي مغمضة العينيْن وجفونها مغلقة، شعرت أنَّ البحر قد امتصَّ الأمواج مرَّةً أخرى بسرعة، بسرعة، لتعود بعد ذلك بخنوع، بكفٍّ مفتوحة، وبدنٍ فضفاض. كان من الجيِّد سماع ضجَّتها. (أنا شخص). وسيتبع ذلك الكثير من الأشياء. ماذا؟ مهما حدث سيناقض نفسه ـ كانت ستقول لنفسها. لن يفهم أحدٌ

بأيِّ شكلٍ من الأشكال: كانت تُفكِّر في شيءٍ واحدٍ ثمَّ لا تعرف كيف تسرده بالطريقة ذاتها، لا سيما عندما يتعلَّق الأمر بالتَّفكير في أنَّ كلَّ شيءٍ كان مُستحيلًا. على سبيل المثال، في بعض الأحيان، كانت لديْها فكرةٌ فتتساءل مُندهشة: لماذا لم أفكِّر في ذلك من قبل؟ لم يكن الأمر مثل رؤية خدشٍ صغيرٍ فجأةً في الطاولة والقول: يا للعجب، لم ألاحِظ ذلك من قبل! لم يكن... شيءٌ ما لم يكن موجودًا قبل التَّفكير فيه. مثلًا: علامات أصابع غوستافو لم تكن حيَّةً قبل أن يُقال: علامات أصابع غوستافو... فالذي كان قيد التَّفكير، تفكيرًا يصير. أو أكثر: ليس كلُّ ما يفكِّر به يصير موجودًا في الوجود من تلك النقطة فصاعدا... (لأنَّه إذا قلتُ: عَمَّتي تتناول الغداء مع عمِّي، فأنا لا أجلب أيَّ شيءٍ إلى الحياة. أو حتَّى لو قرَّرتُ: أنا ذاهبةٌ في نزهةٍ على الأقدام. حسنًا، أنا أذهب للتمشِّي، ولكن لن يوجد أيُّ شيءٍ. أمَّا إذا قلت، على سبيل المثال: الزهور على القبر، فهذا شيءٌ لم يكن له وجودٌ قبل أن أفكِّر في الزهور على القبر). وكذلك الأمر مع الموسيقى. لماذا لا تعزف بمُفردها كلُّ قطعةٍ موسيقيَّةٍ موجودة؟ ـ كانت تنظر إلى البيانو المفتوح ـ كان يحتوي على كلِّ الموسيقى... تتَّسع عيناها، مظلمتان، غامضتان. «كلُّ شيء، كلُّ شيء». حينها بدأت تكذب ـ لقد كانت شخصًا قد بدأ بالفعل. كان من المستحيل شرحُ كلِّ شيء، مثل كلمة «أبدًا»، لا مُذكَّرةٌ ولا مُؤنَّثة. لكن مع ذلك ألم تكن تعرف متى تقول «أجل»؟ لقد فعلت. أوه، كانت تعلم وصارت تعلم المزيد والمزيد. على سبيل المثال، البحر. كان البحر كثيرًا. كانت ترغب بالغرق في رماله وهي تُفكِّر في الأمر، أو تَفتح عينيْها على مِصراعيْهما للتَّحديق، لكنَّها لم تكن تجد أيَّ شيءٍ تُحدِّق فيه. في مَنزل عمَّتها، لا شكَّ أنَّها ستحصل على الحلويَّات في الأيَّام القليلة الأولى. وسوف تستحمُّ في حوض

الاستحمام الأزرق والأبيض، لأنَّها كانت ستعيش في المنزل. وفي كلِّ ليلة، عندما يَحلُّ الظلام سترتدي ثوب النوم، وتذهب للنوم. في الصباح، القهوة مع الحليب والبسكويت. كانت عمَّتها دائمًا تصنع البسكويت الكبير. لكن من دون ملح. مثل شخصٍ يرتدي ملابس سوداء يبحث عن الترام. ستغمس البسكويت في البحر قبل تناوله. ستتناولُ قضمةً ثمَّ تطير إلى المنزل لترتشفَ القهوة. وهكذا. ثمَّ ستلعب في الفناء، حيث هناك عصيٌّ وزجاجات. ولكن قبل كلِّ شيء، ستمضي إلى حظيرة الدجاج القديمة الخالية من الدجاج. كانت رائحتها كرائحة الأوساخ وقذارة الأشياء الجافَّة. ولكن يمكن للمرء أن يجلس فيها، قريبًا جدًّا من أرضيَّتها، وينظر إليها. تتكوَّن الأرضيَّة من العديد من القطع إلى درجة أنَّه سيُصاب المرء بالصداع لكثرة عددها. كان للحظيرة سياجٌ وكلُّ شيء؛ ستكون منزلها. وكانت هناك أيضًا مزرعة عمِّها، التي كانت تزورها من وقتٍ إلى آخر، ولكنَّها من الآن وصاعدًا ستقضي فيها العطلة. ها هي تحصلُ على الكثير من الأشياء الجديدة، أليس كذلك؟ أغرقت وجهها في يديْها. أوه، مُخيف، مُخيف. لكنَّ الأمر لم يكن مُخيفًا فقط. كان الأمر كمن ينتهي من شيءٍ ما ثمَّ يقول: «لقد انتهيت تمامًا، يا أستاذة». فتردُّ الأخيرة عليه بـ: «اجلس هناك وانتظِر الجميع». تجلس هناك منتظرًا بهدوء، كما لو كنتَ داخل كنيسة، كنيسةٍ عاليةٍ من دون أن تقول أيَّ شيء. تماثيل القدِّيسين نحيلةٌ ورفيعةٌ وباردةُ الملمس. قدِّيسون باردون وربَّانيُّون. ولا شيء يقول أيَّ شيء. أوه، مُخيف، مُخيف. لكنَّ الأمر لم يكن مُخيفًا فقط. ليس لديَّ أيُّ شيء أفعله أيضًا، بل حتَّى لا أدري ماذا قد أفعل. مثل النظر إلى شيءٍ جميل، إلى صوصٍ صغيرٍ لطيف، البحر، عقدةٍ في الحلق. لكنَّ الأمر لم يكن كذلك. عيونٌ مفتوحةٌ وامِضة، تختلطُ مع الأشياء وراء الستارة.

أفراحُ جوانا

تلك الحرِّيَّة التي كانت تشعرُ بها في بعض الأحيان لم تكن نتيجة تأمُّلاتٍ واضحة، بل حصيلة حالةٍ مصنوعةٍ من تصوُّراتٍ عضويَّةٍ للغاية، بحيث لا يُمكن صِياغتُها في الأفكار. أحيانًا، في عمق الإحساس، كانت ترتجف لفكرةٍ تَهَبُها وعيًا طفيفًا بنوعها ولونها.

حالةٌ انزلقَت إليها عندما غَمغمَت: الأبديَّة. الفكر نفسه يكتسبُ نوعيَّة الأبديَّة. قادرٌ على التعمُّق والتوسُّع على نحوٍ كبير، دون أيِّ مُحتوى أو شكلٍ فعليّ، ولا أبعادَ أيضًا. ذلك الانطباع بأنَّها إذا تمكَّنت من البقاء داخل الشعور لبضع لحظاتٍ أخرى، فسوف تحصلُ على فَرحة ـ بسهولة، مثل رؤيةِ بَقيَّة العالم بمُجرَّد الانحناءِ من الأرض نحو الفضاء. لم تكن الأبديَّة مجرَّدَ وقت، بل كانت شيئًا مثل اليقين المتجذِّر بعمقٍ بأنَّها لا تستطيعُ احتواءه في جسدها بسببِ الموت. كانت استحالةُ تجاوزِ الأبديَّة هي الأبديَّةُ بعيْنها. وكان الشعورُ بالنقاء المُطلَق والمجرَّد تقريبًا أبديًّا

أيضًا. ففكرةُ الأبديَّة كانت موجودةً في استحالة معرفة عدد البشر الذين سيأتون بعد جَسدها والذي سيبعد يومًا ما عن الحاضر بسرعةِ شهاب.

بَعد تَحديدها للأبديَّة، صارت التَّفسيرات تُولَد قاتلةً مثل ضرباتِ قلبها. لن تُغيِّر مُصطلحًا واحدًا لأنَّ في هذا حقيقتُها. لكن، ما إن تنبتُ حتَّى تصبح فارغةً مَنطقيًّا. ومع ذلك، فإنَّ تعريف الأبديَّة على أنَّها مقدارٌ أكبر من الوقت، وأكبر حتَّى من الوقت الذي يُمكن للعقل البشريِّ استيعابه كفكرةٍ لم يسمح بفهم مُدَّتها. كانت جودتها بالضبط في عدم وجود مقدارٍ لها، وبأنَّها ليست قابلةً للقياس ولا للتقسيم، لأنَّ كلَّ ما يُمكن قياسه وتقسيمه لا بُدَّ له بدايةٌ ونهاية. لم تكن الأبديَّة المقدار الكبير بلا حدودٍ والقابل للتلف، بل الأبديَّة تعني التعاقُب.

ثمَّ أدركَت جوانا فجأةً أنَّه يمكن العثور على أقصى درجات الجمال في التعاقب، وأنَّ الحركة تُفسِّر الشكل ـ كان عاليًا ونقيًّا صراخها: الحركة تُفسِّر الشَّكل! ـ وكان الألم موجودًا أيضًا في التعاقب، لأنَّ الجسم كان أبطأ من حركة الاستمراريَّة غير المُنقطِعة. يَستوعب الخيالُ مستقبلَ الحاضر ويستحوذُ عليه، بينما يظلُّ الجسد هناك في بداية الطريق، يعيش بوتيرةٍ أخرى، أعمى عن تجربة الرُّوح... من خلال هذه التصوُّرات ـ من خلالها، صنعَت جوانا شيئًا ما ـ تواصلَتْ بفرحٍ كان كافيًا في حدِّ ذاته.

كانت هناك العديد من المشاعر الجيِّدة؛ تَسلُّق التلّ، والوقوف عند القمَّة، والإحساس بالأرض المُستولَى عليها، من دون النظر إليها، وهناك، في البعيد، المزرعة، والريح تعبث بملابسها وشعرها. ذراعاها طليقتان، وقلبها ينغلق وينفتح بعنف، لكنَّ الوجه مُشرِقٌ وهادئٌ تحت

الشمس. ومعرفةُ أنَّ الأرض تحت قدميْها كانت عميقةً وسرِّيَّةً إلى درجة أنَّه لم يكن هناك أيُّ خوفٍ من غَزو الإدراك القابل لحلِّ لُغزِها. وقد انطوت في هذا الإحساس فضيلةٌ من المجد.

لحظاتٌ معيَّنةٌ من الموسيقى. كانت الموسيقى من صنفِ التفكير. كلاهما يَتذبذب في الحركة نفسها والنوع. من نوعيَّة الفكر الحميمة عيْنها، إلى درجة أنَّه عند سماعها، يكشف الفكر عن نفسه.. من الفكر الحميميِّ عيْنه إلى درجة أنَّ جوانا عندما سَمِعت شخصًا يُكرِّر أدنى الفروق الصوتيَّة الدقيقة، فُوجِئت وكأنَّها تَعرَّضت للغزو والتشتُّت. فهي لا تشعر بتناغم الموسيقى عندما تصيرُ هذه شائعة، إذْ لا تُعدُّ ملكها. أو حتَّى عندما كانت تستمعُ للقطعة عدَّة مرَّات ـ ممَّا يُدمِّر التشابه: لأنَّ أفكارها لا تَتكرَّر أبدًا، في حين أنَّ الموسيقى تُجدِّد نفسها تمامًا كما هي ـ كانت الأفكار مثل الموسيقى فقط من حيث تَكوينها. لم تكن جوانا مُتعلِّقةً كثيرًا بجميع الأصوات سوى الصافية منها، حيث لم يكن ما تُحبُّه مأساويًّا ولا هزليًّا.

كانت هناك الكثير من الأشياء التي يُمكن رؤيتها أيضًا. كذلك لحظاتٌ بصريَّةٌ معيَّنةٌ من قبيل «الزهور على القبر»: ما شُوهِد يصيرُ مَوجودًا. ومع ذلك، لم تكن جوانا تَتوقَّع الرؤية في مُعجزةٍ ولا مبشَّرًا بها من قِبل الملاك جبرائيل. كانت تَتفاجأ بما تُبصِرُه بالفعل، كأنَّها ترى ما تراه فجأةً ولأوَّل مرَّة، وتدركُ فجأةً أيضًا أنَّه كان موجودًا طوال الوقت. وهكذا، فإنَّ كلبًا ينبحُ باتِّجاه السماء هو مشهدٌ لا يتطلَّب أيَّ شيءٍ آخر ليشرحَه... أو بابًا مفتوحًا يتأرجح جيئةً وذهابًا، وصريرًا في سكون بعد الظهر... وفجأةً، أجل، كان هناك الشيء الحقيقيّ. صورةٌ قديمةٌ لشخصٍ لا تعرفه ولن تتعرَّف عليه أبدًا، لأنَّ الصورة قديمةٌ أو لأنَّ الشخص الذي

فيها قد تحوَّل إلى تُراب ـ وكان ذلك من دون أيِّ تعمُّدٍ في التواضع، يبثُّ فيها للحظةٍ مشاعر هانئةً وهادئة. وعمودٌ من دون راية، منتصبٌ وصامت، غُرِز في يومٍ صيفيّ ـ أعمى الوجه والبدن. للحصول على رؤية، ليس ضروريًّا أن يكون الشيءُ حزينًا أو سعيدًا أو مُعبِّرًا عن نفسه. ليس عليه إلَّا أن يوجَد وحسب، والأفضل أن يكون ذلك الشيء ثابتًا وصامتًا، من أجل الشعور بالعلامة فيه. من أجل اللَّـه، علامة الوجود... لكن لا ينبغي البحث عنها فكلُّ ما هو موجود، موجودٌ بالضرورة... لأنَّ الرؤية تَتكوَّن من تجاوز رمز الشيء في الشيء عيْنِه.

كانت اكتشافاتها مُتشوِّشة؛ وهذا بالضبط ما يضفي عليها سحرًا. كيف تُبيِّن لنفسها، على سبيل المثال، أنَّ الخطوط الطويلة والحادَّة تَحمل العلامة بوضوح؟ كانت رفيعةً ونحيلة. في أيِّ لحظةٍ يمكنها أن تتوقَّف عن كونِها خطوطًا، وتعود إلى حالتها كما في البداية. تتوقَّف، دائمًا تتوقَّف، ليس لأنَّها وصلت، ولكن لأنَّه لا يُمكن لأحدٍ أن يُوصِلها إلى نهاية. كانت الدوائر أكثرَ كمالًا وأقلَّ مأساويَّة، ولم تكن تُحفِّزُها بما فيه الكفاية. كانت الدوائر من صنيعة الإنسان، مكتملةً من قَبْلِ الموت، ولا يمكن حتَّى للإله أن يُكمِّلها بصورةٍ أفضل. في حين أنَّ الخطوط المستقيمة والدقيقة والقائمة بذاتها ـ كانت مثل الأفكار.

هناك أشياءٌ مُربِكةٌ أخرى. هكذا تذكَّرت جوانا ـ الفتاة أمام البحر: السلام الذي تجلَّى في عيني البقرة، السلام الآتي من جسد البحر الراقد، من رحِم البحر العميق، من القطِّ اليابس على الرصيف. كلُّ شيءٍ واحد، كلُّ شيءٍ واحد... كانت تهتف، يَكمُن ارتباكُها في التشابكِ بين البحر والقطِّ والبقرة من جهةٍ وبين ذاتها من جهةٍ أخرى.

نجمَ ارتباكُها أيضًا عن عدم معرفة ما إذا كانت قد هتفت «كلُّ شيءٍ واحد» عندما كانت لا تزال صغيرة، تُحدِّق في البحر، أو عندما تذكَّرت الأمر لاحقًا. ومع ذلك، فإنَّ ارتباكها لم يُضفِ سحرًا فحسب، بل جلب بالواقع بأسره.

في كلِّ حال، بدا لها أنَّه في حال وضعَت ترتيبًا وتفسيرًا واضحين لما شعرت به، لدمَّرت جوهر «كلُّ شيءٍ واحد». ففي ارتباكِها، كانت هي الحقيقة ذاتها من دون إدراك، وربَّما هذا ما وهبها قوَّة الحياة أكثر من معرفة الحقيقة.

تِلك الحقيقة التي، على الرَّغم من الكشف عنها، لم تستطع جوانا استخدامها لأنَّها لم تكن جُزءًا من جِذعها، بل من جُذورها التي تربط جسدها بكلِّ شيءٍ لم يَعُد ملكها، لا يمكن تقديره، لا يمكن تَحسُّسه.

أوه، كان هناك العديد من أسباب الفرح، الفرح من دون ضحك، فرحٌ جدِّيٌّ، عميقٌ، طَريّ. كانت كلَّما اكتشفَت أشياءً عن نفسها في اللحظة ذاتها حينما تقولها، سارَت أفكارها بالتوازي مع الكلمات. ذات يوم، أخبرت أوتافيو قِصصًا عن جوانا ـ الفتاة، حدثت أيَّامَ الخادمة التي كانت تُتقِن اللعب أكثر من أيِّ شخصٍ آخر. كانت تلعب لعبة الحلم.

ـ هل أنتِ نائمة؟

ـ جدًّا.

ـ استيقظي إذًا، إنَّه بعد منتصف الليل... هل حلمتِ؟

في البداية كانت تحلم بالأغنام، وبالذهاب إلى المدرسة، وبالقطط التي تشرب الحليب. وشيئًا فشيئًا صارت تحلم بالأغنام الزرقاء، وبالذهاب

إلى المدرسة من داخل الغابة، وبالقطط التي تشرب الحليب من صحونٍ ذهبيَّة. ثمَّ أخذت أحلامها تَتكثَّف أكثر وأكثر وتتَّخذ ألوانًا من الصعب إسالتها في كلمات.

ـ حلمتُ بكُرات بيضاء كانت ترتفعُ من الداخل...

ـ أيُّ كُرات؟ من الداخل، أين؟

ـ لا أعلم، ولكنَّها كانت ترتفع..

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد الاستماع إليها، قال أوتافيو:

ـ أعتقدُ أنَّهم تخلُّوا عنك وكنت ما زلتِ صغيرةً جدًّا... مَنزل عمَّتك... الغرباء... ثمَّ المدرسة الداخليَّة...

فكَّرت جوانا: لكن كان هناك المعلِّم. وأجابت:

ـ لا... ماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا بي؟ أليس من الرائع أنَّني حظيتُ بطفولة؟ لا أحد يستطيع سلبها منِّي... وفي تلك اللحظة، بدأت فعلًا في الاستماع إلى نفسها، بفضول.

ـ أنا لا أتمنَّى العودة إلى طفولتي ولا حتَّى لثانيةٍ واحدة ـ تابع أوتافيو مندهشًا، ومن دون شكٍّ مَرَّت بباله أيَّامُ ابنة عَمِّه إيزابيل وليديا الحلوة ـ ولا حتَّى لثانيةٍ واحدة.

ـ ولا أنا ـ سارعت جوانا إلى الردّ ـ ولا لثانيةٍ واحدة. أنا لا أفتقدُ ذلك، أتفهمني؟ وفي هذه اللحظة، أعلنت بصوتٍ عال، مُتمهِّلة، مَفتونة: «أنا لا أفتقد ذلك، لأنَّني أملكُ طفولتي الآن أكثرَ ممَّا كنتُ عليه أثناء حدوثها...».

أجل، كان هناك العديد من الأشياء السعيدة الممزوجة بالدم.

وكان بإمكان جوانا أيضًا أن تُفكِّر وتشعر في اتِّجاهاتٍ عديدةٍ ومختلفةٍ في الوقت ذاته. بهذه الطريقة، وبينما كان أوتافيو يَتكلَّم وهي تستمع إليه، كانت تحدِّق أيضًا من خلال النافذة في سيِّدةٍ عجوز تحت الشمس، قذرةٍ وخفيفةٍ وسريعة ـ غصنٍ يرتعش في النسيم. غصنٌ يابسٌ ملآن بأنوثةٍ شديدة، فكَّرت جوانا، وأنَّه كان بإمكان تلك المسكينة إنجابُ طفلٍ لو لم تُيبِّس الحياة جسدها. بعد ذلك، حتَّى عندما كانت جوانا تُجيب أوتافيو، تذكَّرت الشِّعر الذي كتبه والدها خصِّيصًا لها لتتسلَّى به عند حدوث واحدةٍ من تلك الـ «ماذا أفعل»؟

صديقتان: أقحوانةٌ وبَنفسجة

الأولى عمياء، والثانية مَجنونة

العمياءُ تفهمُ كلام المَجنونة

وترى كلَّ ما لا يراه مَن يرى

مثل دولابٍ يدورُ ويدور، يخضُّ الهواء، مُولِّدًا النسيم.

حتَّى المعاناة كانت جيِّدة؛ لأنَّه حتَّى عند حدوث أدنى معاناة، كانت توجدُ أيضًا ـ مثل نهرٍ مُنفصِل.

كان بإمكانها كذلك انتظار اللحظة القادمة. تَتقدَّم.. وتَتقدَّم... وفجأةً تستعجلُ والجةَ الحاضر لتذوبَ فيه. فلحظةٌ أخرى قادمة.. تَتقدَّم وتَتقدَّم..

...الحمَّام...

عندما ذهبت العمَّة لدفع ثمنِ المشتريات، أخذَت جوانا الكتاب ووضعتْه بعنايةٍ بين الكتب الأخرى، تحت إبطِها. شحبَ وجهُ العمَّة.

في الخارج، اختارت كلماتها بعناية:

ـ جوانا ... جوانا، رأيتُ...

نظرَت جوانا إليها بسرعة. بقيَت صامتة.

ـ لكن أليس لديْك ما تقولينه؟ قالت عمَّتُها بصوتٍ دامع ـ يا إلهي، ماذا سيحدُث لك؟

ـ لا تقلقي، يا عمَّتي.

ـ لكنَّك ما زلت فتاةً صَغيرة... هل تُدرِكين ماذا فعلت؟

ـ نعم.

ـ هل تعلمينَ ما اسمُ ما ...؟

ـ لقد سَرقتُ الكتاب، أليس كذلك؟

ـ لكن، يا إلهي! لم أعُدْ أعلم ماذا أفعل ـ وها هي تعترفُ أيضًا!

ـ أنتِ أرغمتِني على الاعتراف، يا سيِّدتي.

ـ هل تعتقدين أنَّه لا خطبَ بذلك... أنَّه لا بأسَ في السرقة؟

ـ حسنًا ... رُبَّما لا.

ـ لماذا إذن؟

ـ لأنَّني أستطيع.

ـ ماذا، يا للكِ؟! صرخت العمَّة.

ـ نعم، لقد سرقت لأنَّني أردتُ ذلك. سوف أسرق فقط عندما أرغبُ بذلك. لا ضررَ في ذلك.

ـ يا إلهي، ارحمني! ومتى يكون في الأمر ضرر، يا جوانا؟

ـ عندما نسرقُ ونخاف. أمَّا أنا فلست سعيدةً ولا حزينة.

حدَّقت العمَّة بها عاجزة:

ـ لقد صرتِ صبيَّةً تقريبًا، يا ابنتي، وقريبًا سوف تُعَدِّين من الكبار، وسرعان ما سنضطرُّ إلى تطويل فستانك... أتوسَّلُ إليك: أقسِمي بأنَّك لن تفعلي ذلك مرَّةً أخرى، أقسِمي، أقسِمي باسم الأب.

نظرت جوانا إليها بفضول.

ـ ولكنَّني إذ أقول لك إنَّني لا أستطيع فعل أيِّ شيءٍ، فهذا ... ـ كان الشرح عديمَ الفائدة ـ حسنًا، أقسِم، أقسِمُ باسمِ أبي.

في وقتٍ لاحق، عندما مرَّت بغرفةِ عمَّتها، سمعتها جوانا، تتحدَّث بصوتٍ مُنخفضٍ تُقاطِعه التنهيدات. ضغطَت جوانا أذنها على الباب، في المكان ذاتِه حيث كانت علامةُ رأسِها ظاهرة.

ـ مثل شيطانٍ صَغير... لقد بلغتُ هذا السنّ، ومع كلِّ تجربتي في الحياة، وبعد تربية ابنةٍ مُتزوِّجةٍ الآن، جوانا تُجمِّدني ... لم تُسبِّب لنا أرماندا أيَّ مُشكلة، أدعو اللَّه أن يَحفظها بهذه الطريقة لزوجِها. لا أستطيعُ الاعتناء بهذه الفتاة بعد الآن، ألبرتو، أقسِم... يمكنني تحمُّل أيَّ شيء، ولكنَّ السرقة!... تخيَّل... أذهلَتني. لقد أخبرتُ الأب فيليسيو، وطلبتُ منه أن ينصحني... استعجبَ مثلي... آه، لا أستطيعُ الاستمرار! حتَّى هُنا في المنزل، فهي دائمًا ساكنة، كما لو أنَّها لا تحتاجُ إلى أيِّ شخص... وعندما تنظرُ إليك، تُحدِّق في عينيْكَ مباشرة، وكأنَّها تدوسنا.

ـ أجل ـ قال العمُّ متمهِّلًا ـ لعلَّ نظام المدرسة الداخليَّة الصارم يُروِّضها. الأب فيليسيو على حَقّ. أعتقد أنَّه لو كان أخي لا يزال على قيد الحياة، لَما تردَّد في إرسال جوانا إلى مدرسةٍ داخليَّةٍ بعد رؤيتها تسرق... من بين جميع الخطايا، السرقة بالتَّحديد هي التي تُسِيء إلى اللَّه أكثر من غيرها... لكن ما يُزعجني قليلًا في الأمر هو: لم يكن والدها الهامل، ليجد أيَّ مشكلةٍ في إرسال جوانا إلى مدرسةٍ إصلاحيَّةٍ حتَّى... لكنَّني، أشعر بالأسف على جوانا، مِسكينة. كما تعلمين، لم نكن لنرسل أرماندا بعيدًا، حتَّى لو سرقَت كلَّ شيءٍ في المكتبة.

ـ الأمرُ مختلِف! الأمرُ مختلِف! انفجرَت العمَّة مُدافعة. أرماندا، حتَّى لو سرقَت، هي إنسانة! لكنَّ هذه الفتاة.. لا داعي للشعور بالأسف نحوها، يا ألبرتو! أنا الضحيَّة هُنا حتَّى عندما لا تكون جوانا في المنزل،

أشعر بالاضطراب.. يبدو الأمر جُنونيًّا، كما لو أنَّها تُراقِبني... تَقرأ أفكاري... أكون أضحك أحيانًا، فجأةً أتوقَّف وأتجمَّد. بعد فترةٍ، هُنا في منزلي، في بيتي، حيث ربَّيتُ ابنتي، سأضطرُّ إلى الاعتذار لتلك الفتاة التي لا أعرف بما أسمِّيها. أفعى. إنَّها أفعى باردة، يا ألبرتو، لا محبَّة فيها ولا امتنان. لا فائدة من مَحبَّتنا لنا، ولا فائدة من الإحسان إليها. أعتقد أنَّها قادرةٌ على قتل شخصٍ ما...

ـ لا تقولي هذا!! صرخ العمُّ مَصدومًا. لو كان والد جوانا أيَّ شخصٍ آخر، لتحرَّك في قبرِه الآن!

ـ سامِحني، إنَّها تُذهِلني، تدفعني للتفوُّه بمثل هذه الهرطقات... إنَّها مخلوقةٌ غريبة، يا ألبرتو، لا صديقَ لها ولا ربّ! فليُسامحني ربِّي!

تَحرَّكت يدا جوانا بطريقةٍ لاإراديَّة. نظرَت إليهما بفضوليَّةٍ عابرةٍ ثمَّ نسيتهما فورًا. كان السقف أبيض، كان السقف أبيض. حتَّى كتفيْها، اللتين كانتا تعتبرهما دائمًا بعيدتين عنها، أخذتا تخفقان بالحياة، ترتجفان. من كانت؟ الأفعى، نعم، نعم، أين المفرّ؟ لم تشعُر بالضعف، بل على العكس، استحوذَت على حماسةٍ غير مألوفة، ممزوجةٍ بسعادةٍ ما، مُظلمةٍ وعنيفة. أنا أعاني، فكَّرت فجأةً وفوجئت بنفسها. (أنا أعاني)، أخبرَها وعيٌ مُنفصِل. وفجأةً أخذ ذلك الكائن الآخر يلوحُ في الأفق ويحلُّ محلَّ الشخص الذي كان يعاني. لن يَحدث شيءٌ إذا ظلَّت تنتظرُ ما سيحدث... يمكن أن تتوقَّف الأحداث وتظلَّ تطرق فارغةً مثل الثواني على مدار الساعة. صارت جوفاء لبضع ثوان، تُراقب نفسها عن كثب، وتُدقِّق في عودة الألم. لا، لم تكن تُريد ذلك! وكما لو كانت توقف نفسها، مليئةً بالشرر، صفعَت وجهَها.

لجأتْ مرَّةً أخرى إلى مُعلِّمها، الذي لم يكن يعلم وقتذاك أنَّها أفعى...

سَمح لها المعلِّم بالدخول مرَّةً أخرى بأعجوبة. وبأعجوبةٍ اخترق عالمَ جوانا الغامض وتحرَّك فيه بخفَّةٍ ونعومة.

ـ ليس الأمر أن تكون لنا قيمةٌ أكبر عند الآخرين، فيما يَتعلَّق بالإنسان المثاليّ. الأمر أن تكون لك قيمةٌ داخل نفسك. هل تفهمين، يا جوانا؟

ـ نعم، نعم ...

تكلَّمَ طوال فترة ما بعد الظهر.

ـ إنَّ السعي وراء المُتعة هو ما يُلخِّص الحياة الحيوانيَّة. أمَّا الحياة البشريَّة، فهي أكثرُ تَعقيدًا: إنَّها تتلخَّص في السَّعي وراء المتعة والخوف منها، وقبل كلِّ شيءٍ إلى عدم الرضا عن الوقتِ بينهما. ما أقولُهُ مُبسَّطٌ بعضَ الشيء، لكن لا يهمُّ في الوقت الحاليّ. هل تَفهمين؟ كلُّ اشتياقٍ هو سعيٌ وراء المتعة. كلُّ ندمٍ وشفقةٍ وإحسانٍ هو الخوف منها. كلُّ يأسٍ والبحث عن طرقٍ بديلةٍ هو عدمُ رضا. هذا هو الملخَّص، إذا كنت تَرغبين في ذلك. هل تَفهمين؟

ـ نعم.

ـ أولئك الذين يَحرمون أنفسهم من المتعة، الذين يَتصرَّفون مثل الرهبان، بأيِّ مَعنى من المعاني، لديْهم قدرةٌ هائلةٌ على المتعة، قدرةٌ خطيرة ـ وبالتالي خوفٌ أكبر. فقط من يَخاف من إطلاق النار على الجميع يحتفظُ بأسلحته خلف قفلٍ ومفتاح.

ـ نعم ...

ـ لقد قلت: أولئك الذين يَحرمون أنفسهم... لأنَّ هناك... المسطَّحين المجبولين من التربة التي لن تُزهِر أبدًا من دون سَماد.

ـ أنا؟

ـ أنت؟ لا، من أجل السماء... أنتِ واحدةٌ من أولئك الذين يَقتلون من أجل أن يُزهروا.

استمرَّت في الاستماع إليه وكان الأمر كما لو أنَّ عمَّتها وعمَّها لم يكونا مَوجودين أبدًا، كما لو أنَّها والمعلِّم في عزلةٍ داخل فترة ما بعد الظهر، داخل الفهم.

ـ لا، قال المعلم، أنا حقًّا لا أعرف ما هي النصيحة التي سأُقدِّمها لك. قولي لي أوَّلًا وقبلَ كلِّ شيء: ما الجيِّد وما السيِّئ؟

ـ لا أعرف.

ـ «لا أعرف» ليست إجابة. تعلَّمي أن تَعثري على كلِّ ما هو موجودٌ بداخلك.

ـ جيِّدٌ هو العيش... تلعثمَت. سيِّئٌ هو...

ـ هل...؟

ـ سيِّئٌ هو عدم العيش..

ـ الموت؟ سأل.

ـ لا، لا... تأوَّهت.

ـ ماذا إذن؟ قولي.

ـ السيِّئ هو ألَّا نعيش، هذا كلُّ شيء. الموت شيءٌ آخر. الموت يختلف عن الخير والشرّ.

ـ أجل، وافقَ من دون إدراك. على أيِّ حال. قولي لي الآن، على سبيل المثال: من هو أعظم رجلٍ حيّ، في رأيك؟

فكَّرت وفكَّرت ولم تُجِب.

ـ ما هو أكثرُ شيءٍ تُحبّينه؟ حاول مرَّةً أخرى.

أشرقَ وجهُ جوانا، واستعدَّت للكلام، ولكنَّها اكتشفت فجأةً أنَّها لا تدري ماذا تقول.

ـ لا أعرف، لا أعرف، قالت يائسة.

ـ لكن كيف لا؟ لماذا إذن كنت على وشك الضحك بسرور؟ سأل المعلِّم مُندهشًا.

ـ لا أعرف.

رَمقها المعلِّم بنظرةٍ قاسيةٍ، وقال:

ـ لا بأس أنَّكِ لا تعلمين من هو أعظم رجلٍ ما زال على قيد الحياة، على الرَّغم من أنَّك تَعرفين الكثير منهم. لكن ما يُزعجني أنَّك لا تعلمين بما تشعرين.

نظرَت إليه مُرتبكة.

ـ انظُر، أكثرُ شيءٍ أحبُّه في العالم... أنا أشعر به هنا بداخلي، ينفتح... يمكنني تقريبًا أن أقول ما هو.. ولكن لا أستطيع.

ـ حاولي أن تشرحي، قال، وقد عقد حاجبيْه.

ـ إنَّه مثل شيءٍ سيكون... إنَّه مثل... إنَّه مثل...

انحنى إلى الأمام، مُطالبًا بالجدِّيَّة.

ـ إنَّه مثل الرغبة في التنفُّس كثيرًا، ولكن أيضًا الخوف... لا أعلم... لا أعلم، يَكاد يُؤلمني. إنَّه كلُّ شيء... إنَّه كلُّ شيء.

ـ كلُّ شيء...؟ سأل المعلِّم بنظرةٍ حائرة.

أومأت برأسها، منفعلة، غامضة، حادَّة: كلُّ شيء... استمرَّ في التأمُّل للحظة، بوجهها الصغير المعذَّب والقويّ.

ـ لا بأس.

بدا راضيًا لكنَّها لم تفقه السَّبب إذ لم تقل أيَّ شيءٍ «عن ذلك». ولكن بما أنَّه قال «لا بأس»، فكَّرت بحماسةٍ مذعنةً الروح، بما أنَّه قال لا بأس، فهذا يعني أنَّها الحقيقة..

ـ من هو أكثر شخصٍ أنتِ مُعجبةٌ به؟ باستثنائي. «باستثنائي»، قال المعلِّم وأكمل: إذا لم تُساعديني، فلن أتمكَّن من التعرُّف عليك، ولن أتمكَّن من توجيهك.

ـ لا أعرف، قالت جوانا وهي تشبك أصابعها تحت الطاولة.

ـ لماذا لا تقولين اسم أحد الرجال العظماء المعروفين؟ أنتِ تعرفين ما لا يقلُّ عن عشرةٍ منهم. إنَّك صادقةٌ بإفراط، بإفراط، قالَ باستياء.

ـ لا أعرف.

ـ لا بأس، ليس مُهمًّا ـ قال بهدوء. إيَّاكِ أن تُعاني لأنَّه ليس لديْكِ رأيٌ في هذا الموضوع أو ذاك. لا تعاني أبدًا لأنَّكِ هذا الشيء أو سواه.

على أيِّ حال، أظنُّ أنَّك ستَقبلين هذه النصيحة فقط. واعتادي على ذلك: ما شعرتِ به ـ حول أكثر ما يعجبكِ في العالم ـ رُبَّما كان فقط على حساب عدم وجود رأيٍ دقيقٍ حول الرجال العظماء. سيَتعيَّن عليكِ التَّخلِّي عن أشياءٍ كثيرةٍ من أجل الحصول على أخرى. صمت لبرهةٍ قبل أن يسألها:

ـ هل يُزعِجك ذلك؟

فكَّرت جوانا للحظة، برأسها الداكن المائل، وعيناها مفتوحتان وواسعتان.

ـ ولكن إذا كنت تملكُ أعلى شيء، قالت ببطء، ألا يعني ذلك أنَّك تملك بالفعل كلَّ الأشياء تحته، إذا جاز التعبير؟

هزَّ المعلِّم رأسه. قال:

ـ لا. ليس دائمًا. في بعض الأحيان يملك المرء أعلى شيءٍ وفي نهاية حياته يشعُر كما لو... ـ نظرَ إليها جانبًا ـ يشعر كما لو أنَّه سيموت بَتولًا. كما ترين، قد لا تكون المسألة في أنَّ هناك أشياءً أعلى أو أدنى، مختلفةً في الطبيعة. هل تفهمين؟

أجل، كانت تفهمُ كلماته، كلَّ ما تتضمَّنُه. ولكن مع ذلك شعرت أنَّ في كلماته بابًا زائفًا، مُتنكِّرًا، يمكن من خلاله العثور على مَعناها الحقيقيّ.

ـ إنَّها أكثرُ ممَّا قلته، يا سيِّدي، أنهت جوانا تفسيره.

بحركةٍ مُفاجئة، قبل تفسير نفسه، مدَّ المعلِّم يده على الطاولة. ارتجفت جوانا بسرور، وأعطته يدها، وقد احمرَّت وجنتاها من الخجل.

ـ ماذا...؟ قالت بهدوء. لقد كانت تحبُّ ذلك الرجل كما لو أنَّها عشبةٌ هشَّةٌ تطويها الريح وتجلدها.

لم يُجِب، لكنَّ عينيْه كانتا قويَّتيْن ومُشفِقتيْن.

ـ ماذا...؟ سألت وقد شعرت بالخوف فجأة: ماذا سيحدث لي؟

ـ لا أدري، أجاب بعد صمتٍ قصير. رُبَّما ستكونين سعيدةً في مرحلةٍ ما، لا أفهم، قد تكون سعادةً يحسِدُك عليها عددٌ قليلٌ من الناس. لا أدري حتَّى إن كان ممكنًا تسميتها بالسعادة. قد لا تجدين أبدًا أيَّ شخصٍ آخر يشعُر معك، مثل...

دخلت زوجة المعلِّم إلى الغرفة، طويلة، جميلةً تقريبًا بشعرها القصير والأنيق والنحاسيّ. وعلاوةً على ذلك، يتحرَّك فخذاها الطويلان الهادئان من دون هُدًى، لكنَّهما واثقان من نفسهما إلى حدٍّ مُخيف. ما الذي كان المعلِّم على وشك قوله، فكَّرت جوانا، قبل أن تأتي «هي»؟ أيَّ شخصٍ آخر يشعُر معك... مثلي؟ آه تلك المرأة. رمقتها بنظرةٍ سريعةٍ وخفضت عينيها الغاضبتيْن. كان المعلِّم بعيدًا مرَّةً أخرى وقد سحب يده وشدَّ شفتيه، غير مبالٍ كما لو أنَّ جوانا ليست سوى صَديقته الصغيرة، على حدِّ تعبير زوجته.

اقتربَت الزوجة، ووضعت يدها الطويلة، البيضاء، كالشمعة، والجذابة بصورةٍ غريبة على كتف زوجها. ورأت جوانا، مليئةً بالألم الذي جعل من الصعب عليها ابتلاع لعابها، التناقض الجميل بين الكائنيْن. شعرُه لا يزال أسود، جسده هائلٌ مثل حيوانٍ ضَخم.

ـ هل ترغب في تناول العشاء الآن؟ سألته زوجته.

كان يلعب بقلم رصاصٍ بين أصابعه.

ـ نعم، سأخرج مبكِّرًا.

ابتسمت الزوجة لجوانا وغادرت ببطء.

كانت لا تزال غير آمنة، واعتقدت أنَّ مرور هذا المخلوق عبر الغرفة أوضح مرَّةً أخرى أنَّ مُعلِّمها كان رجلًا وأنَّ جوانا لم تكن حتَّى شابَّةً بعد. هل سينتبه أيضًا، يا إلهي، هل سينتبه على الأقلّ أيضًا لمدى كراهية تلك المرأة البيضاء، ولمدى معرفتها بكيفيَّة تدمير أيِّ مُحادثةٍ سابقة؟

ـ هل ستدرِّس هذا المساء، يا أستاذ؟ سألت بتردُّدٍ فقط للحفاظ على استمرار المحادثة. واحمرَّ وجهها وهي تنطق بكلماتٍ بيضاء، عرجاء خاليةٍ من تلك النبرة التي استخدمتها زوجته عندما سألت، جميلةً وهادئة: هل ترغب في عشاءٍ مبكِّر؟

ـ نعم، عندي حصصٌ الليلة، أجاب وهو يعبث بأوراقه فوق الطاولة.

نهضت جوانا لتغادر، ولكن فجأة، قبل أن تُدرك حركتها، جلست مرَّةً أخرى. أخفضَت رأسها وانفجرَت في البكاء وهي تُخفي عينيْها. كان الصمت يحيطُ بها، وكان يُمكِنها سماعُ خطواتٍ بطيئةٍ ومكتومةٍ لشخصٍ ما في المنزل. مرَّت دقيقةٌ طويلةٌ قبل أن تشعر بثقلٍ خفيفٍ وناعمٍ على رأسها، اليد. يده. سمعت صوت قلبها الأجوف، وتوقَّفت عن التنفُّس. ركَّزت نفسها بالكامل على شعرِها الذي كان يعيشُ الآن فوق كلِّ شيء، عملاقًا، عصبيًّا، كثيفًا تحت تلك الأصابع الغريبة المتلهِّفة. رفعت يدٌ أخرى ذقنها وسمحت لنفسها بأن تُرى خاضعة، مرتجِفة.

ـ ما الأمر؟ سألها، هل هذا بسبب حديثنا؟

غيرُ قادرةٍ على الكلام، نفت بهزَّةٍ من رأسها.

ـ ماذا إذن؟ أصرَّ بصوتٍ حازم.

ـ كلُّ ما في الأمر أنَّني قبيحة، أجابت بطاعة، صوتها عالقٌ في حلقها.

بُغتَ. فتح عينيْه على مصراعيْهما، واخترقها بالمباغتة، حاول أن يضحك، ثمَّ قال:

ـ كدتُ أنسى ما كنتُ أقوله لفتاتي الصغيرة... من قال إنَّك قبيحة؟ قال ضاحكًا مرَّةً أخرى. قِفي!

وقفت، وقلبها مضغوط، مدركةً أنَّ ركبتيْها كانتا رماديَّتيْن قاتمتيْن كالعادة.

ـ لم يكتمل الشَّكل بعد، لكن كلُّ هذا سيتحسَّن، لا تقلقي، قال.

حدَّقت فيه من داخل دموعها الأخيرة. كيف تشرحُ له؟ لم تكن تبحث عن مؤاساة، لن يفهم... استقبل المعلِّم تحديقها بحاجبَيْن مرتفعيْن. ماذا؟ ماذا؟ تساءل باستياء.

حبسَت أنفاسها.

ـ يُمكنني الانتظار.

لم يتنفَّس المعلِّم لبضع ثوانٍ أيضًا. سأل، بالنبرة نفسها، الباردة المبهوتة:

ـ انتظار ماذا؟

ـ حتَّى أصبح جميلة، جميلة مثل «هي».

كان الذنب ذنبه، كان أوَّل ما خطر له، مثل صفعةٍ على الوجه. لقد كان ذنبه لأنَّه مال نحو جوانا أكثر من اللَّازم، لأنَّه سعى، نعم، سعى (لا تنكر ذلك، لا تنكره)، معتقدًا أنَّه سيُفلت من العقاب، وعده بالشباب، تلك الساق الهشَّة المتحمِّسة. وقبل أن يَتمكَّن من كبح جماح فكره ـ يداه مشدودتان تحت الطاولة ـ أتى من دون رحمة: إنَّها أنانيَّة الشيخوخة وجوعُها الغاشم، هي التي تقترب. آه، كم كَرِه نفسه لمُجرَّد التَّفكير بذلك. هل كانت «هي» الزوجة الأجمل؟ الأخرى كانت أيضًا. وأخرى هذه الليلة أيضًا. ولكن من كانت تملك الإبهام في جسدها، وتلكما الساقان المتوترتان، والثديان لم يَتبرعما بعد ـ هي المعجزة: التي لم تُولَد بعد، داخ فكره وغبش نظره ـ، من كان مثل المياه العذبة الصافية؟ إنَّه جوع الشيخوخة الذي كان يَقترب. تراجع مَرعوبًا وغاضبًا وجبانًا.

دَخلت زوجته مرَّةً أخرى. كانت قد غيَّرت ملابسها للمساء، جسدها مفتولٌ ومقيدٌ الآن خلف رداءٍ أزرق. تأمَّلها الزوج بنظراتٍ مُبهَمة، بلهاء إلى حدٍّ ما. أمَّا هي فقد تلقَّت نظراته، برصانة، وبغموضٍ وشبه ابتسامةٍ خلف وجهها. تقلَّصت جوانا، تضاءلت وامتقعت أمام تلك البشرة المشعَّة. شعرت بِعيْب المشهد السابق يغسلها ويقلِّل من شأنها على نحوٍ مثيرٍ للسخريَّة.

ـ سأذهب، قالت.

نظرت الزوجة إليها مباشرةً في عينيْها، أم كانت تتخيَّلُ ذلك؟ متفهِّمة، متفهِّمة! ثمَّ رفعت رأسها، عيناها صافيتان وهادئتان، يلوِّحان بالنصر وربَّما القليل من التعطُّف.

ـ متى تأتين مرَّةً أخرى، يا جوانا؟ يجب أن تأتي للنقاش مرَّاتٍ أكثر مع الأستاذ..

مع الأستاذ، قالت لاهيةً بحميميَّة، وكانت بيضاء وناعمة. ليست بائسةً وجاهلة، وليست منبوذة، وليسَ لديْها ركبتان وسختان مثل جوانا، مثل جوانا! نهضت جوانا وكانت تعلم أنَّ تنُّورتها كانت قصيرة، وأنَّ بلوزتها كانت مُتشبِّثةً بصدرها الصغير والمتردِّد. الهرب، الركض إلى الشاطئ، الاستلقاء على الرِّمال، إخفاءُ وجهها في الرِّمال، الاستماع إلى صوت البحر.

صافحت المرأة الناعمة، وصافحت يده الكبيرة، أكبر من يد الرجل.

ـ ألا تُريدين أن تأخذي الكتاب؟

التفتت جوانا ورأته. رأت نظرته. آه، لقد أشرق الاكتشاف بداخلها، نظرةٌ تشبِه المصافحة، نظرةٌ تعلم أنَّها تتوق إلى الشاطئ. ولكن لماذا كانت ضعيفةً جدًّا، ومن دون فرح؟ ماذا حدث؟ قبل ساعاتٍ قليلةٍ كان الناس يُنادونها بالأفعى، وكان المعلِّم يتهرَّب، وزوجته تنتظر... ما الذي كان يجري؟ كان كلُّ شيءٍ يتراجع... وفجأةً، برز الجوُّ في وعيها مثل صرخة، يلوح في الأفق بكلِّ تفاصيله، يُغرِق الناس في موجةٍ كبيرة... كانت قدماها تطفوان. فقد صارت الغرفة التي أمضت فيها الكثير من فترات ما بعد الظهيرة تلمعُ في تصاعدِ أوركسترا خرساء، تنتقم منها بسبب سهوها. اكتشفت جوانا، دفعةً واحدة، الطاقة المطمئنة لتلك الغرفة الهادئة. كانت غريبة، صامتة، غائبة، كما لو أنَّ أحدًا لم تطأ قدمه فيها من قبل، كما لو كانت مصنوعةً من ذِكريات. ظلَّت الأشياء مخفيةً

حتَّى الآن ثمَّ بدأت تقتربُ من جوانا، وتحيطُ بها، مُتوهِّجةً في غيهب الغسق.

في حيرةٍ من أمرها، رأت التمثال العاري فوق الخزانة البلَّوريَّة المتلألئة، بخطوطٍ ممحوَّةٍ بهدوءٍ كما لو كانت في نهاية الحركة. صمتُ الكراسي الأنيقة غير المتحرِّكة تَواصلَ مع دماغها، وأفرغَهُ ببطء... سمعت خطواتٍ سريعةً في الخارج، ورأت المرأة الكبيرة والجادَّة تنظر إليها، والرجل القويَّ منحني الظهر أيضًا. ماذا يتوقَّعان منها؟ ذُعِرت. تساءلت. شعرت بغلاف الكتاب الصلب بين أصابعها، بعيدًا، بعيدًا كما لو أنَّ هاويةً تفصله عن يديْها. ماذا بعد؟ لماذا كان لكلِّ كائنٍ حيٍّ ما يقوله لها؟ لماذا، لماذا؟

وبماذا يُطالبون باستنزافهم لها؟ دوخة، سريعةٌ مثل دوَّامة، داهمت رأسها، وجعلت ركبتيْها تنثنيان. كانت تقف أمامهما لبضع دقائق، عاجزةً عن الكلام، تتحسَّس المنزل، لكن لماذا لم يُفاجأ الناس تمامًا بسلوكها الذي كان بالنِّسبة إليهم مُبهمًا؟ آه، كان بإمكانهما أن يَتوقَّعا أيَّ شيءٍ منها، الأفعى، حتَّى الأشياء التي بَدت غريبة، الأفعى، يا للألم، السعادة تؤلِم. بَرز الاثنان من الظلّ، واقفين أمامها، وفقط في نظرة المعلِّم كانت هناك بعض البغتة.

ـ شعرت بالدوار، أخبرَتهم بصوتٍ منخفضٍ واستمرَّت الخزانة البلَّوريَّة في التألُّق مثل تمثال قدِّيس.

بالكاد نطقت، وما زال بصرها معتَّمًا، شعرت جوانا بحركةٍ غير محسوسةٍ تقريبًا في زوجة المعلِّم. حدَّقتا في بعضهما البعض، ولمحة ما لئيمة، وعطشى ومهينةٌ لاحت من المرأة فتحت لجوانا بابًا للفهم، مذهولة...

كانت نوبة الدوار الثانية في ذلك اليوم! أجل، نوبة الدوار الثانية في ذلك اليوم! مثل البوق... حدَّقت فيهما بشدَّة. سأغادر هذا المنزل، صرخت مضطربة. فصارت الغرفة منغلقةً أكثر فأكثر، من لحظةٍ إلى أخرى كانت ستوقظُ الغضب في الرجل وزوجته! مثل المطر ينفجر، مثل المطر ينهمر...

غَرِقت قدماها في الرمال وارتفعت مرَّةً أخرى ثقيلة. إنَّه اللَّيل، والبحر يَتدحرج مُظلِمًا، وعَصبيًّا، وكانت الأمواج تقضمُ بعضها بعضًا على الشاطئ. عشَّشت الريح في شعرها، ممَّا جعل غرَّتها القصيرة تُرفرف بجنون. لم تَعُد جوانا تَشعر بالدوار، وقد ثقلَت ذراعها الغاشمة على صدرها، وهو وزنٌ لا بأسَ به. شيءٌ ما سيحدث قريبًا، فكَّرت بسرعة. كانت هذه نوبة الدوار الثانية في يومٍ واحد! هذا الصباح، عندما نَهضت من السرير، والآن... أنا على قيد الحياة أكثر فأكثر، فهمَت بصورةٍ غامضة. بدأت في الركض. أصبحت فجأةً أكثر حُرِّيَّة، وأكثر غضبًا من كلِّ شيء، شعرت بالانتصار. ومع ذلك، لم يكن الأمر غضبًا، بل حُبًّا. كان الحبُّ قَويًّا إلى درجة أنَّ شغفه لا يُكبَح إلَّا في قوَّة الكراهية. الآن أنا أفعى وحدي. تذكَّرت أنَّها انفصلت كُلِّيًّا عن معلِّمها، وأنَّه بعد تلك المحادثة لن تستطيع العودة أبدًا... شعرت أنَّه صار بعيدًا، في المكان الذي تَتذكَّره الآن باستغرابٍ ومن دون ألفة. وحدها...

كانت عمَّتها وعمُّها قد جلسا على الطاولة. ولكن لأيٍّ منهما ستقول: أنا أقوى كلَّ يوم، أقوى؛ إنَّني أكبر، أنا تقريبًا امرأة؟ لن تقول لهما، ولا لأحد. لأنَّها أيضًا لن تَتمكَّن من سؤال أيِّ شخص: أخبرني، كيف هي الأشياء؟ ومن سماع: لا أعرف أيضًا، كما أجابها مُعلِّمها. ها هو يظهر أمامها كما فعل في اللَّحظة الأخيرة، يَميل نحوها، مَذهولًا أو

شرسًا، لم تكن مُتأكِّدة، لكنَّه تراجع، نعم، تراجع. شعرت بأنَّ إجابته لا تهمُّ كثيرًا. ما يهمُّ هو أنَّ سؤالها قد قُبِل، وبإمكانه أن يكون موجودًا. كانت عمَّتها ستُجيب قائلة: أيَّ أشياء؟ وإذا فهمت يومًا ما، فسوف تقول بلا شكّ: الأشياء هكذا وبهذه الطريقة وعلى هذه الحال. والآن مع من ستتكلَّم جوانا على نحوٍ طبيعيٍّ عن الأشياء التي تكون موجودةً بالطريقة نفسها التي يَتكلَّم فيها المرء عن أشياءٍ أخرى، تلك الموجودة فحسب؟

الأشياء الموجودة، والبعض الآخر الذي يوجد وحسب...

فاجأت نفسها بالفكرة الجديدة غير المُتوقَّعة، والتي ستعيش منذ ذلك الحين مثل الزهور على القبر، التي ستعيش، والتي ستعيش، وأفكارٍ أخرى ستولد وتعيش، وحتَّى هي نفسها كانت أكثر حَيويَّة. اخترقت السعادة قلبها، شرسة، أضاءت جسدها. ضغطت على الكأس بين أصابعها، وشربت الماء وعيناها مُغمضتان كما لو كان نَبيذًا، نبيذًا دمويًّا ومَجيدًا، دمُ الربّ. أجل، لم تشرح لأيٍّ منهما أنَّ كلَّ شيءٍ يتغيَّر ببطء... وضعت ابتسامتها جانبًا كمن يُطفئ المصباح أخيرًا ويُقرِّر الذهاب إلى الفراش. لم تَعد المخلوقات مقبولةً في داخلها حيث كانت تَنصهر فيها. وأصبحَت طريقة تعاملها مع الناس تزداد اختلافًا عن طريقة تعاملها مع نفسها. ولسوف تَختفي حلاوة الطفولة من مَلامِحها الأخيرة، وكان النبع يجفُّ للخارج ولا يُقدِّم لخطى الغرباء إلَّا رمالًا جافَّةً عديمة اللَّون. لكنَّها كانت تسير إلى الأمام، دائمًا إلى الأمام، كمَنْ يسير على الشاطئ، والريح تداعب وجهه، نافخةً شعره إلى الوراء.

كيف تُشارِكُهما بما حدث: كانت نوبة الدوار الثانية في يومٍ واحد؟ حتَّى لو كانت تَتوهَّج لتبوح بسرِّها لشخصٍ ما. لأنَّ لا أحد

آخر في حياتها، ربَّما لا أحد آخر، سيقول لها، كما فَعل مُعلِّمها: نعيش ونموت. جميعهم ينسى، كانوا جميعًا يَعرفون فقط كيف يَلعبون. نظرَت إليهما. تلعبُ عمَّتها بالبيت: طبَّاخة، زوج، ابنة متزوِّجة، زوَّار. يلعب عمُّها بالمال، بالعمل، بالمزرعة، بالشطرنج، بالصحف. تُحاول جوانا تحليلهما، وتشعر بأنَّها بهذه الطريقة ستدمِّرهما. نعم، كانا يتحابَّان بطريقةٍ قديمةٍ بعيدة. من وقتٍ إلى آخر، مَشغولَيْن بألعابهما، وينظران إلى بعضهما بعضًا بلا كلل، كما لو كانا يتأكَّدان من أنَّهما ما زالا موجودَيْن. ثمَّ يَستأنفان المسافة الفاترة التي كانت تَتقلَّص أحيانًا بسبب البرد أو عيد ميلاد أحدهما. لا شكَّ بأنَّهما كانا ينامان معًا، فكَّرت جوانا، ولكن من دون أيِّ استمتاعٍ بالعبث.

سلَّمتها العمَّة طبق الخبز بصمت. لم يرفع العمُّ عينيْه عن الطبق.

كان الطعام أحدَ الاهتمامات الكبيرة للأسرة، كما واصلت جوانا. في أوقات الوجبات، تتَّكئ ذراعاها بثقلٍ على الطاولة، يأكل الرجل وهو يلهث قليلًا، لأنَّه يعاني من مشاكل في القلب، يمضغ، مُهمِلًا بعض الفُتات حول فمه، ويُحدِّق في نقطةٍ ثابتة، مُركِّزًا انتباهه على الأحاسيس الداخليَّة التي ينتجها الطعام فيه. تَسند العمَّة قدمًا إلى الأخرى تحت كرسيِّها، حاجباها عاقدان تأكل بفضولٍ يتجدَّد مع كلِّ لقمة، فتتجدَّد مَلامحها وتتحرَّك، ولكن لماذا لم يَسترخيا في كرسيَّيهما اليوم؟ لماذا حرصا على عدم إحداث أيِّ ضجَّةٍ بأدوات المائدة، وكأنَّ شخصًا ما ميِّتٌ أو نائم؟ أنا السَّبب، حسبت جوانا.

حول الطاولة المظلمة، تحت الضوء الخافت بسبب الأطراف الوسخة للثريَّا، كان الصَّمت قد جلس أيضًا في تلك اللَّيلة. خلال

لحظات، توقَّفت جوانا عن الاستماع إلى صوت مَضغ الفمَّيْن ودقَّات الساعة الخفيفة والعصبيَّة. ثمَّ رفعت العمَّة عينيْها وتجمَّدت مع شوكتها في يدها، وانتظرت بقلقٍ وتواضع. نظرت جوانا بعيدًا، منتصرة، أخفضت رأسها في سعادةٍ عميقةٍ اختلطت، لسببٍ غير مفهوم، بغصَّةٍ مؤلمةٍ في حلقها، وعدم القدرة على البكاء.

ـ ألم تأتِ أرماندا؟ سرَّع صوتُ جوانا دقَّات الساعة، ممَّا أدَّى إلى حركةٍ مفاجئةٍ وسريعةٍ على الطاولة. تبادل العمُّ والعمَّة النظر خلسة. تنهَّدت جوانا بصوتٍ عال: لذلك كانوا خائفين منها، أليس كذلك؟

ـ زوجُ أرماندا ليس تحت الطلب اليوم. لذا لم تأتِ لتناول العشاء، أجابت العمَّة أخيرًا. وفجأةً، استأنفت الأكل. مضغ العمُّ بسرعةٍ أكبر. عاد الصمت دون إذابة نفخة البحر البعيدة. لم تكن لديْهما الشجاعة إذن.

ـ متى أغادر إلى المدرسة الداخليَّة؟ سألت جوانا.

انزلقت مغرفة الحساء من يد العمَّة، وانتشر المرق الداكن اللاذع بسرعةٍ فوق الطاولة. تخلَّى العمُّ عن أدوات المائدة الخاصَّة به على طبقه، ووجهه حزين.

ـ كيف علمتِ بذلك؟ تلعثمَ، مرتبِكًا...

لقد استمعت، عند الباب...

يَصعد البخار من مَفرش المائدة بلطفٍ كما من بقايا النار. جامدةً ومشدوهةً وكأنَّها تواجه شيئًا لا حيلة لها فيه، حدَّقت العمَّة في الحساء المسكوب الذي كان يَبرد بسرعة.

أما المياه العمياء والصمَّاء، ولكن المرحة، فلم يتغيَّر لمعانها ولا فقاعاتها نتيجة التقائها بالطلاء الساطع لحوض الاستحمام. الغرفة خانقةٌ بالأبخرة الدافئة، والمرايا ضَبابيَّة، وعلى بلاط الجدران الرطب استلقى انعكاسُ جسدٍ عارٍ لشابَّة.

تضحك الفتاة بلطفٍ من سعادة الجسد. بزغَت من الماء ساقاها الناعمتان والنحيلتان وثدياها الصغيران. إنَّها بالكاد تعرف نفسها، لم يكن نموُّها قد اكتمل، بل غادرت للتوِّ الطفولة. تمدُّ ساقها، وتنظر إلى قدمها من بعيد، وتحرِّكها بلطفٍ وبطءٍ مثل جناحٍ رهيف. ترفعُ ذراعيْها فوق رأسها نحو السقف الضائع في العتمة، وعيناها مغمضتان، خاليةً من أيِّ إحساس، تتحرَّك فحسب. يطول جسدها، ويتمدَّد، ويتلألأ مُبلَّلًا في شبه العتمة ـ إنَّه خطٌّ مُتوتِّرٌ ومرتعش. تنزل ذراعيْها مرَّةً أخرى فتتكثَّف، بيضاء وآمنة. تضحَك بهدوء، تُحرِّك رقبتها الطويلة من جانبٍ إلى آخر، تميل رأسها إلى الخلف ـ العشب طازجٌ دائمًا، وسيُقبِّلها شخصٌ ما، وستتجمَّع الأرانب الصغيرة الناعمة معًا وعيون بعضها مُغلَقة. تضحك مرَّةً أخرى، في همهمةٍ خفيفةٍ مثل تلك الموجودة في الماء. تَتحسَّس الخصر، الوركيْن، حياتها.

تغوصُ في الحوض كما لو كان البحر. عالمٌ دافئٌ ينغلق عليها بصمتٍ وهدوء. تنزلق الفقاعات الصغيرة بهدوءٍ حتَّى تنطفئ عند التقائها بحافَّة الحوض. تشعر الشابَّة بالمياه تُثقِل جسدها، وتتوقَّف للحظةٍ كما لو أنَّ شخصًا ما قد نقر على كتفها بهدوء. تتنبَّه جيِّدًا إلى ما تشعر به، الغزو الناعم للمدِّ والجزر. ماذا حدث؟ تُصبح كائنًا جادًّا، بحدقَتَيْن واسعتيْن وعميقتيْن. بالكاد تتنفَّس. ماذا حدث؟ العيون

الصامتة والمفتوحة للأشياء تستمرُّ بالتألُّق بين الأبخرة. فوق الجسم ذاته الذي شعر بالسعادة لوجود الماء ـ ماء. لا، لا... لماذا؟ كائناتٌ مولودةٌ في العالم مثل الماء. إنَّها تتلوَّى مُحاوِلةً الفرار.. كلُّ شيء ـ تقول ببطءٍ وكأنَّها تُسلِّم شيئًا ما وتدقِّق في نفسها من دون أن تَفهم نفسها. كلُّ شيء. وهذه العبارة هي السلام، خطيرةٌ وغير مفهومةٍ كالطقوس. الماء يُغطِّي جسدها. لكن ماذا حدث؟ تهمسُ بصوتٍ مُنخفض، تَنطِقُ مَقاطِعَ دافئةً مُنصهِرة.

إنَّ الحمَّام غير حاسِم، ميِّتٌ تقريبًا. لقد استسلمت الأشياء والجدران ولانت وتَحلَّلت في البخار. يَبرد الماء قليلًا على جلدها وترتجفُ من الخوف والضيق.

عندما خرجت من الحوض كانت غريبةً لا تعرف بماذا تشعر. لا يوجد شيءٌ حولها وهي لا تتعرَّف على أيِّ شيء. خفيفةً وحزينة، تتحرَّك ببطء، مُتمهِّلة. يهرول البرد بقدميْه الجليديَّتيْن على ظهرها لكنَّها لا تريد اللعب، تُقلِّص جذعها الجريح البائس. تُجفِّف جسدها من دون حبّ، ذليلةً ومسكينة، تلتفُّ في رداءٍ وكأنَّها في حضنٍ فاتر. منغلقةً داخل نفسها، لا تريد أن تنظر، آه، لا تريد أن تنظر، تنزلق في الممرّ ـ الحلق الطويل الأحمر والداكن والخفيُّ الذي ستغرق من خلاله في الجوهر، في كلِّ شيء. كلُّ شيء، كلُّ شيء، تُردِّد في غموض. تُغلِق نوافذ غرفة النوم ـ كي لا ترى، لا تسمع، لا تشعر. في سريرها الصامت، تطفو في الظلام، تنزوي كما في رَحمٍ مَنسيٍّ وتُنسى. كلُّ شيءٍ غامضٌ وخفيفٌ وأخرس.

خلفها اصطفَّت أسرَّة السكن في المدرسة الداخليَّة في خطٍّ مستقيم. وأمامها انفتحت النافذة على اللَّيل.

لقد اكتشفتُ معجزةً فوق المطر ـ فكَّرت جوانا ـ معجزةً تنقسمُ إلى نجومٍ مُكتنزةٍ رزينةٍ ومتلألئة، مثل تحذيرٍ ثابت: مثل المنارة. ماذا تحاول أن تقول؟ أشعرُ أنَّها تحتوي على السرّ، وهذا الوميض هو الغموض الساكن الذي أسمعه يَتدفَّق بداخلي، ويَبكي في نغماتٍ واسعةٍ ويائسةٍ وعاطفيَّة. يا إلهي، اسمح لي بالتواصل معها على الأقلّ، وبإشباع رغبتي في تقبيلها. اسمح لي بأن أشعر بنورها على شفتيّ، وأن أشعر بها تتوهَّجُ داخل جسدي، وتجعله متلألئًا وشفَّافًا وباردًا ورطبًا مثل الدقائق التي تسبقُ الفجر. لماذا يَظهر فيَّ هذا العطش الغريب؟ أيقظني المطر والنجوم، هذا الخليط البارد الكثيف، وفتح أبواب جُرحي الأخضر الداكن، هذا الجرح الذي تفوح منه رائحة الهاوية حيثُ تتدفَّق المياه. ووحَّدها بالليل. هنا، عند النافذة، يكون الهواء أكثر هدوءًا. نجوم، نجوم، أُصلّي. الكلمة تتشقَّق بين أسناني إلى شظايا هشَّة. لأنَّ المطر لا يسقط بداخلي، أريد أن أكون نَجمة. طهِّرني قليلًا وسأحصل على كتلة تلك الكائنات التي تَختبئ وراء المطر. في هذه اللَّحظة يؤلمني إلهامي في جميع أنحاء جسدي. لحظةً أخرى وسوف تحتاج إلى أن تكون أكثر من مُجرَّد إلهام. وبدلًا من هذه السعادة الخانقة، مثل الهواء الزائد، سأشعر بوضوحٍ بالعجز من امتلاكِ أكثر من الإلهام، من الذهاب إلى أبعدَ من ذلك، من امتلاك الشيء نفسه ـ وأصيرُ حقًّا نجمة. إلى حيث يقود الجنون، الجنون. لكن هذا صحيح. المهمُّ أنَّني ما زلت أظهر في المهجع في هذه اللحظة، الفتيات الأخريات ميِّتاتٌ فوق أسرَّتهنّ، أجسادٌ لا تتحرَّك؟ ما معنى أن تكون في الواقع؟ أنا في الواقع جاثية، عاريةٌ كحيوان، بجانب سريري، روحي يائسةٌ مثل جسدٍ عذراء. بيأس. يختفي السرير ببطء، وتنحسر جدران الغرفة، وتنهار مَهزومة. وأنا في

العالم حرَّةٌ ورشيقةٌ مثل غزالةٍ في السَّهل. أنهض رقيقةً مثل نسمة، وأرفع رأس الزهرة الناعس، قدماي خفيفتان، وأعبر الحقول إلى ما وراء الأرض، والعالم، والوقت، واللَّه. أغوصُ ثمَّ أعوم، كما من الغيوم، من الأراضي التي لا تزالُ غير ممكِنة، آه لا تزال غير مُمكِنة. تلك التي ما زلت لا أعرف كيف أتخيَّلها، لكنَّها ستنبت. أمشي، أنزلق، أمشي وأنزلق... دومًا، من دون توقُّف، أسلِّي شوقي المرهق من الحطِّ في نهايةٍ ما ـ أين رأيتُ قمرًا عاليًا في السماء، أبيضَ وصامتًا؟ رداؤه باهتٌ يرفرف في مهبِّ الريح. الصارية من دون علَم، منتصبةٌ وصامتةٌ مغروزةً في الفضاء... كلُّ شيءٍ ينتظرُ منتصف الليل... ـ إنَّني أخدعُ نفسي، عليَّ أن أرجع. لا أشعر بأنَّ رغبتي في عضِّ النجوم هي مسٌّ من جنون، لكنَّ الأرض لا تزال موجودة، ولأنَّ الحقيقة الأولى هي في الأرض وفي الجسد. إذا كان وميضُ النجوم يُؤلِمني، إذا كان هذا التواصل البعيد مُمكِنًا، فذلك لأنَّ شيئًا يُشبِه النجمة تقريبًا يرتعشُ بداخلي. ها أنا أعود إلى الجسد. العودة إلى جَسدي. عندما تباغتني نفسي في أعماق المرآة أشعرُ بالخوف. أكادُ لا أستطيع التصديق أنَّ لديَّ حدودًا، وأنَّني مُفصَّلةٌ ومحدَّدة. أشعر بأنَّني مشتَّتةٌ في الهواء، أفكِّر داخل كائناتٍ أخرى، أعيشُ في أشياءٍ تتجاوزني. عندما تُباغتني نفسي في المرآة، لا أخافُ لأنَّني أعتقد أنَّني قبيحةٌ أو جميلة، ولكن لأنَّني أكتشفُ اختلاف طبيعتي. ولأنَّني لا أراني لمدَّةٍ أكاد أنسى فيها أنَّني إنسان، أنسى ماضيَّ وأكون مُتحرِّرةً من النهاية ومن الوعي كشيءٍ حيٍّ فقط. كما وأندهشُ من العينيْن المفتوحتيْن على المرآة الشاحبة، ومن أنَّ هناك الكثير من الأشياء في داخلي إلى جانب ما أعرفه، أشياءٍ كثيرةٍ صامتةٍ دائمًا. لماذا لا تتكلَّم؟ هل تعيشُ هذه المنعطفات تحت قميصي من دون عقاب؟

لماذا لا تتكلَّم؟ فمي، الطفوليُّ إلى حدٍّ ما، المتأكِّدُ من مصيرِه، لم يتغيَّر على الرَّغم من تَشتُّتي الكامل. في بعض الأحيان، بعد الاكتشاف يأتي حُبِّي لنفسي، نظرةً ثابتةً في المرآة، ابتسامةً متفهِّمةً لأولئك الذين يُحدِّقون بي. فترةً من استجواب جسدي، من الشراهة، من النوم، من التنزُّه الطويل في الهواء الطلق. إلى أن تُذكِّرني عبارةٌ، أو نظرة ـ مثل المرآة ـ بالدَّهشة من أسرارٍ أخرى، تلك التي تجعلني بلا حدود. مَفتونة، أُغرِق جسدي في قاع البئر، وأُسكِت كلَّ ينابيعه، وأمشي أثناء النوم آخذةً مسارًا آخر. أحلِّل لحظةً لحظة، وأدرك نواةَ كلِّ شيءٍ مصنوعٍ من الزمان أو المكان. أمتلكُ كلَّ لحظة، أربط وعيي بها، مثل خيوطٍ صغيرةٍ غير محسوسةٍ تقريبًا، ولكنَّها مَتينة. هل هذه هي الحياة؟ ومع ذلك، تَفرُّ منِّي. ثمَّة طريقةٌ أخرى لالتقاطها وهو العيش. لكن الأحلام أكثر اكتمالًا من الواقع الذي يغرقني في اللَّاوعي. ما الذي يهمُّ إذن: أن تعيش أو تعرف أنَّك تعيش؟ ـ كلماتٌ نقيَّةٌ جدًّا، قطراتٌ من البلَّور. أشعر بالشَّكل اللَّامع الرطب يَتخبَّط في داخلي. ولكن أين ما أريد أن أقوله، أين هو ما يجب أن أقوله؟ ألهمْني، لديَّ كلُّ شيءٍ تقريبًا. أملك المحيط في انتظار الجوهر. هل هذا كلُّ شيء؟ ـ ماذا يجب على شخصٍ لا يعرف ماذا يفعل أن يفعل بنفسه؟ استخدام الروح والجسد لتحقيق أقصى استفادةٍ من الجسد والروح؟ أو جعل قوَّتهما في قوَّةٍ خارجيَّة؟ أو انتظار أن يولد الحلّ، كنتيجةٍ، من ذاته؟ لا أستطيع أن أقول أيَّ شيءٍ من داخل الشَّكل. كلُّ ما أمتلكه موجودٌ في أعماقي. في يوم من الأيَّام، وأخيرًا بعد الكلام، هل سيظلُّ لديَّ شيءٌ أعيش عليه؟ أم أنَّ كلَّ ما أقوله سيقصر عن الحياة أو يتجاوزها؟ أحاولُ إبعادَ كلِّ ما هو شكلٌ من أشكال الحياة. أحاول عزل نفسي من أجل أن أجد الحياة في حدِّ ذاتها. ومع ذلك،

لقد اعتمدتُ كثيرًا على اللُّعبة التي تلهي وتسلّي، وعندما أبتعد عنها أجد نفسي منبوذةً بفظاظة. في اللحظة التي أغلق فيها الباب خلفي، أنفصل كلّيًا عن الأشياء. كلُّ ما كان ينأى بنفسه عنّي، يغوص بصممٍ في مِياهي البعيدة. أسمع ذلك، السقوط. مرحةً ومسطَّحةً، أنتظر نفسي، أنتظر أن أنهض ببطء وأظهر حقًّا أمام عينيّ. ولكن بدلًا من الوصول إليَّ عن طريق الفرار، أجدُني مَهجورة، وحيدة، مقذوفةً في حجرةٍ بلا أبعاد، حيث الضوء والظلُّ أشباحٌ واجِمة. في داخلي أجدُ الصمت الذي أسعى إليه. لكنَّني فيه أضيع من أيِّ ذاكرةٍ لإنسان، إلى درجة أنَّني أتركُ هذا الانطباع في يقين العزلة الجسديَّة. إن أطلقت صرخة ـ وأتصوَّر أنَّه سيكون من دون إدراك ـ فإنَّ صوتي سيتلقَّى الصدى نفسه غير المبالي لجدران الأرض. إن لم أمرَّ بتجربة العيش لن أجد الحياة، أليس كذلك؟ ولكن، مع ذلك، في العزلة البيضاء بلا قاع حيث أسقط، ما زلت عالقةً بين جبالٍ مُغلقة. عالقة، عالقة. أين الخيال؟ أمشي على مساراتٍ غير مَرئيَّة. الحبس والحرِّيَّة. كلمتان تخطران ببالي. ومع ذلك، لديَّ إحساسٌ أنَّهما ليستا الصحيحتيْن والوحيدتيْن اللَّتيْن لا يمكن الاستغناء عنهما. الحرِّيَّة لا تكفي. ما أرغب فيه ليسَ له اسمٌ بعد. ـ أنا إذن لعبةٌ يُديرون نابضها وبعد توقُّفها عن الحركة لن تعود هناك حياةٌ خاصَّةٌ بها، حياةٌ أعمق. أحاول الاعتراف بهدوءٍ أنَّني قد أجدها فقط إذا بحثتُ عنها في الينابيع الصغيرة، وإلَّا سأموتُ من العطش. رُبَّما لم أخلَق للمياه النقيَّة الغزيرة، ولكن للمياه القليلة التي يَسهُل الوصول إليها. ورُبَّما رَغبتي لينبوع آخر، هذا التشوُّق لهواءٍ يَلفحُ وجهي كمَنْ يصطادُ ليأكل، ولعلَّه مُجرَّد فكرة ـ ولا شيء أكثر من ذلك. وبعد ـ فإنَّ اللحظات النادرة التي أشعرُ بها أحيانًا بالاكتفاء، من الحياة العمياء، والسعادة الشديدة

والهادئة مثل موسيقى الأرغن ـ ألا تُثبِت هذه اللحظات قدرتي على تحقيق سعيي وأنَّ هذا هو عطشُ كياني بأكمله وليست مُجرَّد فكرة؟ إلى جانب ذلك، الفكرة هي الحقيقة! تصرخ نفسي. هذه اللحظات نادرة. في الفصل بالأمس، عندما، فكَّرتُ فجأة، ومن دون تمهيد، من دون أيِّ ترابطٍ بالأشياء: إنَّ الحركة تشرح الشَّكل. الفكرة الواضحة للكمال، الحرِّيَّة المفاجئة التي شعرت بها... وفي ذلك اليوم، في مَزرعة عمِّي، عندما سقطت في النهر. قبل ذلك كنت مغلقة، قاتمة. لكن عندما وقفت، كان الأمر كما لو أنَّني ولدتُ من الماء. خرجتُ مُبتلَّة، ملابسي ملتصقةٌ بجلدي، وشعري يلمع مُنسابًا. شيءٌ ما ضجَّ في داخلي وكان بلا شكٍّ جَسدي فقط. لكن، في معجزةٍ لطيفة، صار كلُّ شيءٍ شفَّافًا وكانت بلا شكٍّ روحي أيضًا. في تلك اللحظة، كنت منغمسةً حقًّا في داخلي، وكان هناك صَمت. بيد أنَّ صمتي، كما فهمت، كان جُزءًا من صمتِ الريف. لم أشعر بأنَّني مَنبوذة. كان الحصان الذي سقطت عنه يَنتظرُني على ضفَّة النهر. امتطيتُه وحلَّقتُ على المنحدرات التي اجتاحتها الظلال وبرَّدَتها. كبحتُه، مرَّرتُ يدي على طول رقبته الدافئة والنابضة. واصلت بوتيرةٍ بطيئة، مُصغيةً إلى إيقاع السعادة بداخلي، عاليةً ونقيَّةً مثل سماء الصيف. مسحتُ ذراعيَّ بيديّ، حيث كان الماء لا يزال يقطر. شعرتُ بالحصان على قيد الحياة بالقرب منِّي، وكان امتدادًا لجسدي. كلانا يتنفَّسُ نابضًا وجديدًا. انفرش لونٌ كئيبٌ ناعمٌ على الحقول الدافئة إثر ما تبقَّى من ضوء الشمس وطافَ نسيمٌ خفيفٌ ببطء. يجب ألَّا أنسى، فكَّرت، أنَّني كنت سعيدة، أنَّني أكثر سعادةً ممَّا يمكن أن يكون عليه المرء. لكنَّني نسيت، لطالما نسيت.

كنت جالسةً في الكاتدرائيَّة، أنتظرُ ساهية، مُتشتِّتة. أتنفَّسُ بعسرٍ العطر البنفسجيَّ البارد الآتي من الصور. فجأةً، وقبل أن أدركَ ما كان يحدث، مثل كارثة، تَفتَّح الأرغن غير المرئيِّ بأصواتٍ كاملةٍ مرتجفةٍ ونقيَّة. من دون ألحان، تقريبًا من دون موسيقى، مُجرَّد اهتزازٍ تقريبًا. تلقَّت الجدران الطويلة والقناطر العالية للكنيسة النوتات وأعادتها صوتيَّةً وعاريةً ومُكثَّفة. عَبرتني، تقاطعَت بداخلي، ملأت أعصابي بالارتجاف وذهني بالأصوات. لم أفكِّر أفكارًا، بل موسيقى. من دون إحساس، تحت وَطأة النشيد، انزلقتُ من على المقعد، ومُدمَّرةً، ركعتُ من دون أن أصلِّي. صمتَ الأرغن فجأةً كما بدأ، مثل وميضِ الإلهام. ظللتُ أتنفَّسُ بهدوء، وبقي جسدي يَهتزُّ حتَّى آخر الأصوات المتبقِّية في الهواء، بطَنينٍ دافئٍ وشفَّاف. وكانت اللحظة مثاليَّةً إلى درجة أنَّني لم أخَف ولم أتشكَّر على أيِّ شيءٍ ولم أنجذِب إلى فكرة الإله. أريدُ أن أموت الآن، صرخَ شيءٌ بداخلي وكان طليقًا أكثرَ منه مُعانيًا. أيُّ لحظةٍ تتلو ذلك ستكون خفيضةً وفارغة. أردتُ أن أرتفع، وحدَهُ الموتُ كنهاية، قادرٌ على حملي إلى الذروة من دون السقوط. كان الناس يَنهضون حولي ويَتحرَّكون. وقفت، مشيتُ نحو الباب، هشَّةً وشاحبة.

المرأة ذات الصَّوت وجوانا

لم تُعِرها جوانا كثيرًا من الانتباه إلَّا عندما سمعَت صوتَها. لهجتُها المنخفضة المنحنية، من دون ارتعاشات، أيقظَتها. حدَّقت في المرأة بفضول. لا بدَّ أنَّها اختبرَت شيئًا لم تمرَّ به جوانا بعد. لم تفهم تلك النغمة البعيدة عن الحياة، البعيدة عن الأيَّام...

تذكَّرت جوانا كيف أنَّها ذات مرَّة، بعد بضعةِ أشهرٍ من زواجها، توجَّهت إلى زوجها لتسأله عن شيءٍ ما. كانا في الخارج. وقبل أن تُنهي جملتها، ممَّا بغت أوتافيو، توقَّفت ـ جبينها مُتغضِّن، وفي عينيها نظرةٌ مَرِحة ـ آه ـ اكتشفت ـ لقد كرَّرتُ للتوِّ أحد الأصواتِ التي سمعتها كثيرًا عندما كانت عزباء، ودائمًا ما تكون في حيرةٍ غامضة. صوتُ امرأةٍ شابَّةٍ بجانب رَجُلها. مثل صوتها الذي صدر للتوِّ قاصدًا أوتافيو: حادّ، فارغ، عالٍ، بنوتاتٍ متطابقةٍ وواضحة. شيءٌ غير مكتمِل، مُنْدَفِع، وإلى حدٍّ ما مُشبَع. يُحاول الصراخ... أيَّامٌ مشرقةٌ، واضحةٌ وجافَّةٌ، صوتٌ وأيَّامٌ لا جنسيَّة، صَبيان في جوقة قدَّاسٍ في الهواء الطلق. وشيءٌ مفقودٌ، يَتَّجه

نحو اليأس الخفيف... تلك النبرةُ الجديدة الزوجيَّة لها تاريخ، تاريخٌ هشٌّ لم تُلاحِظهُ صاحبُة الصَّوت، لكنَّ هذه لاحظَته.

منذُ ذلك اليوم، صارت تشعر جوانا بالأصوات. فهي تفهمها أو لا تفهمها. من المحتمل أنَّه في نهاية حياتها، مع كلِّ جرسٍ ستسمعه، موجةٌ من الذكريات سوف ترتفع إلى ذاكرتها، ولسوف تقول: «كم صوتًا كنتُ أملِك...».

مَالت جوانا نحو المرأة. وصلت إليها وهي تبحثُ عن بيتٍ للسكن، وكانت مُمتنَّةً لأنَّها لم تذهب مع زوجها، هَكذا تتمكَّن من التمعُّن بحرِّيَّةٍ أكثر. وهناك، أجل، كان هناك شيءٌ لم تتوقَّعه، وقفةٌ ما. لكنَّ المرأة لم تلتفت إليها ولا حتَّى بنظرةٍ واحدة. فكَّرت جوانا بما سيكون عليه رأي أوتافيو لو سمعها، فكَّرت أنَّه رُبَّما سيعتبرُها مُبتذَلة، بذلك الأنف الكبير الباهتِ والهادئ. وكانت المخلوقة تشرحُ مزايا المنزل المعلَن للإيجار وعيوبه، بينما تَجري عيناها على الأرض والنافذة والمنظر الخارجيّ، من دون إعْجابٍ، ومن دون اهتمام. جسدها نَظيف، شعرها داكِن. ضخمة، قويَّة. والصوت، صوتٌ أرضيّ، وصلها من دون الاصطدام بأيِّ شيء، ناعمًا، عميقًا وكأنَّه قد قطع مسافاتٍ طويلةً فوق الأرض قبل ينتهي به المطاف إلى حلقها.

ـ مُتزوِّجة؟ سألتها جوانا وهي تحومُ حولها.

ـ أرملةٌ ولي ابنٌ واحد ـ وواصلت تقطير أغنيتها عن الإيجارات في المنطقة.

ـ لا، أعتقد أنَّ البيت ليس مناسبًا. إنَّه كبيرٌ جدًّا لشخصيْن ـ قالت جوانا في عجلةٍ من أمرها، جافيةً بعض الشيء. لكن ـ استطردَت

مُحاوِلةً تحلية كلماتها، مخفيةً لَهفتها ـ هل يُمكنني زيارتكِ بين الحين والآخر للدردشة؟

لم تتفاجأ المرأة. مسحَت يدها على خصرها الكثيف بسبب الأمومة وبطء الحركات: لا أعتقد أنَّ ذلك سيكون مُمكِنًا... سأزور ابني غدًا. إنَّه متزوِّج. سأسافر...

ابتسمَت من غير فرح، من دون عاطفة. فقط: سأسافر. ما الذي كان يثير اهتمام تلك المرأة؟ تساءلت جوانا. قد يكون لها حَبيب...

ـ هل تَعيشين وحدك، يا سيِّدتي؟ سألتها.

ـ أختي الصُّغرى تَطوَّعت للإحسان. أعيشُ مع الأخرى.

ـ أليسَ من المحزنِ العيشُ بدون رجلٍ في المنزل؟ تابعَت جوانا.

ـ هل تعتقدين ذلك؟ علَّقت المرأة.

ـ سألتُك، يا سيِّدتي، إذا كنتِ تعتقدين ذلك، لا أتكلَّم عنِّي. أنا متزوِّجة، قالت في محاولةٍ منها لإضفاء نبرةٍ حميمةٍ على المحادثة.

ـ لا، لا أعتقدُ أنَّه أمرٌ مُحزِن. وابتسمَت بلا لون. حسنًا، أرجو أن تعذريني، سأعود إلى أشغالي، بما أنَّك لستِ مهتمَّةً بالبيت. يجبُ أن أغسل بعض الملابس قبل أن ألتقط بعضَ الهواء من النافذة.

أكملَت جوانا طريقها تشعرُ بالإهانة. (معتوهة، لا شكّ...) ولكن ماذا عن الصوت؟ لم تكن قادرةً على التحرُّر منه خلال ما تبقَّى من فترة ما بعد الظهر. تسابق خيالها للعثور على ابتسامة المرأة، جسدها العريض الهادئ. لم يكن لديْها تاريخ، أدركت جوانا ببطء. لأنَّه، حتَّى لو

حدثت لها أشياء، فهذه الأشياء لم تكن ولم تختلِط بوجودِها الحقيقيّ. الشيء الرئيسيّ ـ بما في ذلك الماضي والحاضر والمستقبل ـ هو أنَّها كانت على قيد الحياة. كانت هذه هي خلفيَّة السرد. في بعض الأحيان بدت هذه الخلفيَّة باهتة، بعيونٍ مُغلقةٍ غير موجودةٍ تقريبًا. لكن كلُّ ما تطلَّبه الأمر هو وقفةٌ صغيرة، صمتٌ قصير، حتَّى تكبر وتبرز في المقدِّمة، بعيونٍ مفتوحةٍ ورقرقةٍ مستمرَّةٍ مثل الماء بين الحجارة. لماذا تَصفُ أكثر من ذلك، أشياءً خارجها لم يكن لديْها شكٌّ في أنَّها حدثت؟ لقد أصيبت بخيبة أمل، عانت من الالتهاب الرئويّ. حدثَت أشياءُ لها. لكنَّها كثَّفت أو أضعفت فقط الضجيج في مَركزها. في نهاية المطاف، لماذا الحديث عن الحقائق والتفاصيل إذا لم يُهيمن عليها أيٌّ مِنها؟ وإذا لم تكن سِوى الحياة التي تمرُّ عبر جَسدها من دون تَوقُّف؟

لم تَمضِ تَساؤلاتها أبدًا باحثةً عن إجابات ـ استمرَّت جوانا في إدراكها. كانت التساؤلات تُولَد مَيِّتة، مُبتسمة، تَتراكمُ من دون رغبةٍ أو أمل. وهي لم تحاول أيَّ حركةٍ خارج نفسها.

قضت سنواتٍ عديدةً من وجودها عند النافذة، تُراقب الأشياء المتحرِّكة والساكنة. لكنَّها في الواقع لم ترَ الكثير بقدرِ ما استمعَت إلى الحياة في داخلها، مفتونةً بضجيجها ـ مثل تنفُّس طفلٍ صغير، من خلال تَوهُّجه اللَّطيف ـ مثل نبتةٍ وُلِدت لتوِّها.. لم تتعَب بعدُ من الكينونة؛ كانت مكتفيةً إلى درجة أنَّها في بعض الأحيان، لفرط سعادتها، كانت تشعر بالحزن يُغطِّيها مثل ظلِّ عَباءة، تاركًا إيَّاها باردةً وصامتةً مثل حلول المساء. لم تتوقَّع شيئًا. كانت في حدِّ ذاتها، هي الغاية نفسها.

في أحد الأيّام انقسمَت إلى قسميْن، اضطربَت وصارت تخرج للبحث عن نفسها. ذهبَت إلى الأماكن التي كان يَلتقي فيها الرجال والنساء. قال الجميع: لحسن الحظِّ أنَّها استيقظت، الحياة قصيرة، يحتاجُ المرء إلى الاستفادة منها إلى أقصى حدّ، لقد كانت باهتة، والآن صارت بشرًا. لم يكن أحدٌ يعلم أنَّها كانت غير سعيدةٍ إلى درجة أنَّها كانت بحاجةٍ إلى البحث عن الحياة. إذ اختارت رجلًا وأحبَّته وجاء الحبُّ ليثخن دمها وغموضها. أنجبت ابنًا، وتُوفِّي زوجها بعد تلقيحها. استمرَّت وتقدَّمت بخطى جيّدةٍ للغاية. جمعت كلَّ أجزائها ولم تَعُد تبحث عن أشخاصٍ آخرين. ومرَّةً أخرى، وجدت النافذة التي كانت تجلس عندها برفقة نفسها. والآن، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، لم يكن هناك شيءٌ أو كائنٌ أكثر سعادةً أو اكتمالًا. على الرَّغم من أنَّ الكثيرين نظروا إليها بازدراء، مُعتقدين أنَّها ضعيفة. لكن كانت روحها قويَّةً إلى درجة أنَّها لم تتوقَّف أبدًا عن تناول الطعام بصورةٍ ملائمة عند وجبتي الغداء والعشاء، من دون مبالغةٍ في الاستمتاع. لم يكن هناك أيُّ شيءٍ يُقال لها أو تتعرَّضُ إليه إلَّا وينزلق فوقها جاريًا نحو مياهٍ أخرى غير مياهِها الداخليَّة.

في أحد الأيَّام، بعد أن عاشت العديد من الأشياء المُتشابهة من دون ملل، وجدت نفسها مُختلفةً عن نفسها. كانت مُتعَبة. تسيرُ ذهابًا وإيابًا. هي نفسها لم تدرِ ماذا تُريد. بدأت تُغنِّي بهدوء، بشفتيْن مغلقتيْن. ثمَّ تعِبت وراحت تُفكِّر في الأشياء. لكنَّها لم تكن قادرةً على ذلك بالكامل. ثمَّ شيءٌ في داخلها يُحاول التوقُّف. انتظرَت ولم يأتِ منها شيء. وعلى مهلٍ حزنت حزنًا لم يكن كافيًا، وبالتالي كان مُحزِنًا أكثر. استمرَّت في

السَّيْر لعدَّة أيَّامٍ وبدت خطواتها مثل أوراقٍ ميِّتةٍ تسقط على الأرض. كانت مُبطَّنةً باللَّون الرماديّ من الداخل ولم ترَ شيئًا في نفسِها سوى انعكاس، مثل قطراتٍ بيضاء تقطر، انعكاسًا لإيقاعها القديم، الذي أصبح الآن بَطيئًا وسميكًا. عرفَت أنَّها استنفدت كلَّ طاقتها وعانت لأوَّل مرَّةٍ لأنَّها انقسمت حقًّا إلى قسميْن، كلُّ جزءٍ يواجه الآخر، يراقبه، راغبًا بأشياءٍ لم يعد بإمكان الآخر تقديمها. في الحقيقة كانت دائمًا اثنتيْن؛ واحدةٌ تملك فكرةً بسيطةً عن أنَّها موجودة، بينما الأخرى موجودةٌ في الواقع وبعمق. حتَّى ذلك الحين، كانت الاثنتان تعملان معًا ولا يمكن التمييز بينهما. لكن صارَت الآن تلك التي تُدرِك وجودها تعمل بمفردها، ممَّا يعني أنَّ تلك المرأة كانت غير سعيدةٍ وذكيَّة. حاولَت كمسعى أخيرٍ اختراع شيءٍ ما، فِكْرٍ ما، لكي تتسلَّى، لكن من غير فائدة.. فهي لا تُتقِن إلَّا العيش.

حين أوصلها غيابُ نفسها إلى السقوط داخل الليل وبسلام، داجيةً وباردة، بدأت تموت. ثمَّ ماتت بلطف، كما لو كانت شبحًا. لا شيء آخر يُعرَفُ عن سبب موتها. لا يمكن إلَّا التخمين أنَّها في النهاية كانت سعيدةً بقدرِ ما يمكن لشيءٍ أو لمخلوقٍ أن يكون. لأنَّها وُلِدت من أجل الضروريّ، للحياة أو للموت. وكلُّ شيءٍ بينهما كان مُعاناة. كان وجودها كاملًا ومرتبطًا بالحقيقة إلى درجة أنَّه عندما حانت الساعة للاستسلام لرُبَّما فكَّرت، إذا كانت بالفعل مُعتادةً على التَّفكير: أنا لم أكن يومًا. ولم أدرك ماذا فعلتُ بها. حياةٌ جميلةٌ كتلك، لا بدَّ أن يتلوها موتٌ جَميل. من الأكيد أنَّها الآن حُبيبات تُراب. تنظر دومًا إلى العالي، إلى السماء. وأحيانًا تُمطِر، وتَمتلئ وتُستَدير في حُبيباتها، ثمَّ تجفُّ في الحرِّ فيُبعثرها الهواء. هي أبديَّةٌ الآن.

بعد لحظةٍ من الاستيعاب، أدركَت جوانا أنَّها تحسِدها، ذلك الكائن شبه الميِّت الذي ابتسمَ لها وتحدَّث إليها بنبرةٍ صوتٍ غير معروفة. أوَّلًا، وقبل كلِّ شيء، اعتقدَت أنَّها تَفهم الحياة لأنَّها ليست ذكيَّةً بما يكفي لعدم فهمها. ولكن ما الجدوى من أيِّ منطق؟ ... لو ارتقَت إلى نقطة فهمها، من دون أن تُصاب بالجنون في هذه الأثناء، فلن يكون من الممكن الحفاظ على مَعرفتها كمعرفة، بل ستتصيَّرُ موقفًا، موقفًا تجاه الحياة، وهذه هي الطريقة الوحيدة لامتلاكها والتعبير عنها بالكامل. لن ينطوي هذا الموقف على اختلافٍ تامٍّ عن ذلك الذي استندت إليه المرأة ذات الصوت. كانت مسارات الفعل سيِّئةً للغاية.

حرَّكَت رأسها بسرعة. نفد صبرها. التقطت قلم رصاصٍ وعلى قطعةٍ من الورق، كتبت بخطٍ حازمٍ عن قصد: «الشخصيَّة التي تَتجاهل نفسها تُحقِّق نفسها تحقيقًا كاملًا». صوابٌ أم خطأ؟ لكنَّها بطريقةٍ ما انتقمَت لنفسها من خلال إلقاء أفكارها الباردة والذكيَّة على تلك المرأة المُنتفِخة بالحياة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

...أوتافيو...

«من الأعماق». انتظرت جوانا أن تصبح الفكرة أكثرَ وضوحًا، وأن تبرز من الضباب تلك الكرة الخفيفة اللَّامعة التي كانت بذرة فكرة. «من الأعماق». شعرَت بأنَّها تتأرجح، تكاد تفقدُ توازنها وتغرقُ إلى الأبد في مياهٍ مَجهولة. أو، في بعض الأحيان، تُزيح جزءًا من الغيوم وتَظهَر بأكملِها... ثمَّ الصمت.

أغمضَت عينيْها، وراحت تستريحُ على مهل. عندما فتحتهما، تلقَّت صدمةً طفيفة. وأثناء ثوانٍ طويلةٍ وعميقةٍ علمت أنَّ ذلك المقطع من الحياة كان مَزيجًا ممَّا قد عاشته وما لم تعشه بَعد، كلُّ الأشياء منصهرةٌ معًا وأبديَّة.. غريب، غريب. الضوء البرتقاليُّ في الساعة التاسعة صَباحًا، هذا الإحساس بالفاصل الزمنيّ، بيانو بعيدٌ يُصرُّ على النغمات العالية، قلبها ينبضُ بسرعةٍ مُستقبِلًا دفءَ الصباح، وخلفَ كلِّ شيءٍ الصمت يَخفق بكثافة، شرسًا ومُهدِّدًا، وغير مَلموس. تلاشى كلُّ شيء.

انقطع صوت البيانو، وبعد لحظةٍ من الراحة، عاد برفقٍ ببعض الأصوات المتوسِّطة، بلحنٍ واضحٍ وسَهل. لم تكن قادرةً من التأكُّد ممَّا إذا كان انطباعها عن الصباح حقيقيًّا أم مُجرَّد فكرة. ظلَّت يقظةً من أجل معرفة ذلك. إرهاقٌ مفاجئٌ أربكَها للحظة. أعصابها مرتخيةٌ ووجهها مُرتاح، وشعرَت بنوعٍ من الحنان تجاه نفسها. شكلٌ من أشكال الشكر تقريبًا، على الرَّغم من أنَّها لم تعرف السَّبب. لمدَّة دقيقة، بدا لها أنَّها عاشت بالفعل وأنَّها في نهاية الطريق. وفي الحال، شعرت بأنَّ كلَّ شيءٍ كان أبيض حتَّى الآن، كمكانٍ فارغ، وأنَّها تسمع، بصمتٍ صخب، اقتراب الحياة، كثيفةً وعنيفة، الموجات العالية تُمزِّق السماء، تقترب، تقترب... لتغمرها، لتغمرها، لتغرقها وتخنقها...

سارَت نحو النافذة، ومدَّت ذراعيْها إلى الخارج وانتظرت عبثًا هبوب نسمةٍ تلمسهما. بقيت على تلك الحال غارقةً في أفكارها لوقتٍ طويل. أغلقت سمعها وقلَّصت عضلات وجهها، وأغمضت عينيْها إلَّا من فسحةٍ يمرُّ الضوء عبرها بجهد، ودفعت رأسها إلى الأمام. فشيئًا وشيئًا أخذت تشعر بالانعزال الكلِّيّ. هذه الحالة شبه اللاواعية، حيث يبدو لها أنَّها تغوصُ عميقًا في هواءٍ دافئٍ ورماديّ... وقفَت أمام المرآة ضاغطةً على أسنانها، وعيناها تتوهَّجان بالغضب:

ـ وماذا الآن؟

لم تستطِع أن تتجاهل وجهها الصغيرَ المشتعِل. انشغلت لحظةً به، ونسيت الغضب. عادةً ما يحدُث هذا: شيءٌ بسيطٌ يُغيِّر مَسير سيل الأفكار الرئيسيَّة. كانت ضَعيفةً جِدًّا، هل كانت تكرهُ نفسها بسبب ذلك؟ لا، لسوف تكرهُ نفسها لو كانت شجرةً ثابتةً حتَّى الموت، قادرةً

فقط على إنتاج الثمار، وغير قادرةٍ على النموّ داخل نفسها. كانت ترغبُ بالمزيد: أن تولد من جديدٍ دائمًا، أن تقطع منها كلَّ ما تعلَّمته ورأته، وتبدأ في أرضٍ جديدةٍ حيث يكون لكلِّ فعلٍ صغيرٍ مَعنى، وحيث تَستنشقُ الهواء كما لو كان لأوَّل مرَّة. كانت تشعر بأنَّ الحياة تسيرُ بثقلٍ وبطءٍ داخلها، تفور مثل طبقةٍ ساخنةٍ من الحمم. رُبَّما لو كانت تحبّ... ربَّما لو، وشطح فكرها، قطع صوت بوقٍ عالٍ وحادٌّ عباءة الليل وجعل الحقل حُرًّا، وأخضر وكثيفًا... وفيه الخيول البيضاء العصبيَّة تُحرِّك رقابها وسيقانها بتمرُّد، وكأنَّها تُحلِّق، تعبر الأنهار والجبال والوديان... وحينما خطرت ببالها، شعرت بالهواء المنعِش يدور حول نفسه كما لو أنَّه يَخرج من مغارةٍ باردة، رطبةٍ مخفيَّةٍ في وسطِ الصحراء.

لكن سُرعان ما عادت إلى وعيها، بهبوطٍ حادّ. فتَفحَّصت ذراعيْها وساقيْها. ما زالتا مَوجودتيْن. ما زالتا مَوجودتيْن. كان عليها أن تلهي نفسها، فكَّرت بصرامةٍ وسخرية. بسرعةٍ طارئة. لأنَّها لن تموت؟ ضحكت بصوتٍ عالٍ ونظرت سريعًا إلى المرآة لمراقبة تأثير الضحكة على وجهها. لا، لم تجليه. كانت تشبه قطَّةً برِّيَّة، عيناها تتوهَّج فوق خَدَّيْن مُشتعلَيْن، مُرقَّطَيْن بالنمش من الشمس، وشعرُها البنِّيُّ المشوَّش على حاجبيْها. كانت ترى في ذاتها لونًا أرجوانيًّا مظلمًا ومنتصرًا. مَا الذي جعلها تتألَّق هكذا؟ الملل... أجل، على الرَّغم من كلِّ شيء، كانت هناك نارٌ تتأجَّج تحته، كانت هناك نارٌ حتَّى عندما يُمثِّل الموت. لعلَّ هذا هو طَعمُ العيش..

مرَّةً أخرى سيطرَ الاضطراب عليها، نقيًّا، من دون تعليلات. آه، ربَّما يجب أن أمشي، ربَّما... أغمضت عينيْها لحظة، وسمحت لنفسها

بولادة لفتةٍ أو جملةٍ غير مَنطقيَّة. كانت تفعل ذلك دائمًا، واثقةً من أنَّه في أعماقها، تحت الحِمَم البركانيَّة، كانت هناك رغبةٌ تتَّجه بالفعل إلى غاية. في بعض الأحيان، عندما تُغلق أبواب ضَميرها من خلال آليَّةٍ خاصَّة، بالطريقة نفسها التي ينزلق بها المرء إلى النوم، وتنحني للتصرُّف أو الكلام، كانت تُفاجَأ ـ لأنَّ إدراكها للإشارة لا يَتحقَّق إلَّا في لحظة تَنفيذه ـ بيديْها تصفعُ وجهها. وكانت تسمع أحيانًا كلماتٍ غريبةً ومجنونةً تَتفوَّه بها. حتَّى من دون فهمها، جعلتها تلك الكلمات أخفَّ وزنًا وأكثرَ تَحرُّرًا. كَرَّرت التجربة بعينيْن مغمضتيْن.

ومن أعماقها، بعد لحظةٍ من الصمت والاسترخاء، صعد، في البداية شاحبًا ومُتردِّدًا، ثمَّ أقوى وأكثر إيلامًا: من الأعماق أدعوك... من الأعماق أدعوك... ظلَّت ساكنةً لبضع لحظاتٍ أخرى، ووجهها من دون أيِّ تعبير، مُترهِّلٌ ومتعَبٌ كما لو أنَّها وضعَت طفلًا.. شيئًا فشيئًا أخذت تولَدُ من جديد، فتحَت عينيْها ببطءٍ وعادت إلى ضوء النهار. هشَّة، تتنفَّس بخفَّة، سعيدة، مثل شخصٍ مُتعافٍ يتلقَّى نسمة هواءٍ بعد وقتٍ طويل.

ثمَّ بدأت تُفكِّر أنَّها في الواقع كانت تُصلِّي. ليست هي، بل شيءٌ أكبر منها، لم تَعُد تفقهه، قد صلَّى. (لكنَّني لم أقصد الصلاة)، كرَّرت مرَّةً أخرى بتراخ. لم ترغَب في ذلك لمعرفتها أنَّه سيكون الدواء. لكنَّه دواءٌ مثل المورفين الذي يُخفِّف كلَّ أنواع الآلام. مثل المورفين الذي يَتطلَّب جرعاتٍ مُتزايدةً باستمرارٍ من أجل الشعور به. لا، لم تكن مُنهكةً إلى درجة أنَّها أرادت أن تُصلِّي خوفًا من اكتشاف الألم، وامتلاكه بالكامل حتَّى تتمكَّن من معرفة كلِّ أسراره. وحتَّى لو صلَّت... سينتهي بها المطاف إلى دير، إذ، مقارنةً بالجوع الذي تشعُر به،

فإنَّ كلَّ مورفين العالم لن يكون كافيًا. وسيكون هذا هو الهوان الأخير، الإدمان. ومع ذلك، على طول المسار الطبيعيّ، إذا لم تبحث عن إلهٍ خارجيّ، فسينتهي بها الأمر إلى تأليهِ نفسها، واستكشاف ألمها، وحبِّ ماضيها، والبحث عن ملاذٍ ودفءٍ في أفكارها الخاصَّة، التي وُلِدت توَّاقةً للأعمال الفنِّيَّة، ثمَّ تُقدَّم كطعامٍ قديمٍ في فتراتٍ مُعقَّمة. كان هناك خطر ترسيخ نفسها في المعاناة وتنظيم نفسها فيها، والذي سيكون بدوره أيضًا إدمانًا ومُسكِّنًا.

ما العمل إذن؟ ما العمل لقطع هذا المسار، لمنح نفسها فاصلًا بينها وبين نفسها، حتَّى تتمكَّن لاحقًا من العثور على نفسها مرَّةً أخرى من دون خطر، جديدةً ونقيَّة؟

ما العمل؟

تَعرَّض البيانو للهجوم عَمدًا بمقاييس قويَّةٍ ومُوحَّدة. تدريب، اعتقدَت. تدريب... نعم، اكتشفَت أنَّها مُسلِّية... لم لا؟ لماذا لا تحاول الحبّ؟ لماذا لا تحاول العيش؟

موسيقى نقيَّةٌ تَرتقي في أرضٍ لا رِجالَ فيها، حُلْم أوتافيو. الحركات حتَّى الآن من دون صِفات، غير واعيةٍ مثل الحياة البدائيَّة التي تنبضُ في الأشجار العمياء الصمَّاء، في الحشرات الصغيرة التي تُولد وتطير وتموت وتُولد من جديدٍ بلا شهود بينما تدور الموسيقى وتتصاعد، يعيش الفجر والنهار القويُّ والليل، بنوتةٍ ثابتةٍ في السمفونيَّة، هي التحوُّل. إنَّها موسيقى لا تعتمد على الأشياء لا في المكان ولا الزمان، بلون الحياة والموت نفسَيهما. الحياة والموت كفكرتيْن، معزولتيْن عن المتعة والألم، بعيدتيْن عن الصفات الإنسانيَّة التي يُمكن أن تتَّحد بالصمت.

الصمت، لأنَّ هذه الموسيقى هي الضروريَّة، والوحيدة الواردة، والنابضة بالمادَّة. كما ولأنَّ المادَّة لا تُلاحظ ولا تُدرك إلَّا حينما تصطدم بها الحواسّ، فلن تسمع موسيقاها.

ثمَّ ماذا؟ فكِّر. أغمض عينيَّ وأسمع موسيقايَ الخاصَّة التي تتسرَّب ببطء، عكرةً مثل نهرٍ موحل. الجُبن فاترٌ وأنا أستسلمُ له، مُتخلِّيًا عن كلِّ أسلحة البطل التي يَسَّرتها لي سبعةٌ وعشرون عامًا من التَّفكير. ما أنا، في هذه اللحظة؟ ورقةٌ مسطَّحةٌ صامتةٌ سقطت على الأرض. لا هواء يُحرِّكها. بالكاد تتنفَّس كي لا تَستيقظ. ولكن لماذا، لماذا لا أستخدم الكلمات المناسبة أصلًا ولا ألتفُّ بها، وأبحث عن الراحة في الصوَر؟ لماذا أطلق على نفسي صِفة ورقةٍ ميِّتةٍ بينما أنا مُجرَّد رجلٍ مَكتوف الذراعيْن؟

مرَّةً أخرى، خلال تَفكيره غير المُجدي، شعرَ بالتعب، بالسقوط. الصلاة، الصلاة، الركوع أمام اللَّه والتوسُّل. بِمَ؟ السماح. هذه كلمةٌ كبيرة، مَليئةٌ بالمعاني. لم يكن مُذنِبًا ـ أمْ كان؟ مِمَّ؟ كان يعلمُ أنَّه مُذنِب، لكنَّه استمرَّ في التَّفكير ـ لم يكن مُذنِبًا، ولكنَّه يرغبُ بالسماح. فوق جبينه كانت أصابعُ اللَّه العريضة السمينة تُبارِكه كأبٍ صالح، أبٍ مخلوقٍ من الأرض والعالم، يحتوي على كلِّ شيء، كلِّ شيء، من دون أن يَتخلَّى عن ذرَّةٍ واحدة يمكن أن تقول له لاحقًا: حسنًا، لكنَّني لم أسامِحك! لذا سيسقطُ ذلك الاتِّهام الصامت الذي تُصوِّبه كلُّ الأشياء ضدَّه.

بماذا كان يُفكِّر في كلِّ حال؟ منذ متى كان يلعب بمفرده على الرَّغم من سُكونه، بدرَت منه إيماءة.

دَخلت ابنة العمِّ إيزابيل. «مبارك، مبارك، مبارك»، قالت، لمحاتها مُتسرِّعةٌ وقصيرة النظر، مستعجلةً للمغادرة. كانت تسقط عنها الهيئة

الأجنبيَّة عندما تجلس عند البيانو. انكمش أوتافيو كما كان يفعلُ في صغره. ثمَّ ابتسمت، كانت إنسانة، وقد فقدت ملامحها الثاقبة. اتَّخذت نوعيَّةً مُسطَّحةً وسهلة. جالسةً عند البيانو، شَفتاها دقيقتان ذابلتان، عَزفت شوبان، شوبان، وخاصَّةً كلَّ الفالسات. مكتبة سُر مَن قرأ

لقد أصبحَت أصابعي مُتصلِّبة، كانت تقول فخورةً إنَّها تستطيع اللعب عن ظهر قلب.

أثناء حديثها، كانت تُحرِّك رأسها للخلف بطريقةٍ مغريةٍ باغتة، كراقصة ملهى. سوف يَخجل أوتافيو. «عاهرة»، تمرُّ الكلمة ببال أوتافيو، ثمَّ يمحوها على الفور بحركةٍ مُؤلمة. ولكن كيف يجرؤ؟ يَتذكَّر وجهها وهي تحنو عليه، تهتمُّ به وبآلام مَعدته. «أنا أكرهها لهذا السَّبب بالذات»، كان يُفكِّر بدون منطق، لكن فات الأوان كالعادة: سبقه التفكير. «عاهرة» ـ كما لو كان يضرب نفسه بالسوط. حتَّى عندما كان يندمُ على ذلك، فإنَّه يعود للخطيئة مَرَّةً أخرى. كم مَرَّة، عندما كان طفلًا، قبل لحظةٍ من النوم، أدرك فجأةً أنَّ ابنة عمِّه إيزابيل كانت صاحيةً في السرير، وربَّما جالسة، شعرها رماديّ، وثوب نومها السَّميك مغلقٌ مثل ثوب عذراء. شعر بالندم يَنتشر في جسده كحامض الأكسيد. لكنَّه كرهها أكثر فأكثر لعدم قدرته على حُبِّها.

لم تَعُد قادرةً على الانتقال بهدوءٍ من نغمةٍ إلى أخرى كما كانت في الماضي، مثل إغماءة. كانت النغمة تتمسَّكُ بالتالية، خشنة، مُتزامنة، وتندلع الفالس ضعيفة، تقفزُ مليئةً بالفجوات. في بعضِ الأحيان، كانت الدقَّات البطيئة المجوَّفة للساعة القديمة تقسمُ الموسيقى إلى إيقاعاتٍ غير مُتماثلة. كان أوتافيو ينتظرُ الضربة التالية، قلبُه يقفزُ إلى فمه. كما

لو أنَّ تلك الدقَّات استعجلَت كلَّ الأشياء ووضعتها في رقصةٍ صامتةٍ ومُختلَّةٍ بلطف. تلك الإيقاعات التي تقطع الموسيقى بلا هوادة، دائمًا بالنبرة الباردة المبتسمة نفسها، ترميه إلى داخله فيصير في فراغٍ من دون سَند. كان يلاحظ ظهر ابنة عمِّه المتصلِّب ويديْها ـ حيوانان داكنان يَتخطَّيان مَفاتيح البيانو الصفراء. كانت تلتفتُ إليه سائلة، بنشوةٍ خالصة، وبلطف، كمَن يَرمي زهورًا:

ـ ما بِك؟ سألعب شيئًا أكثر مَرحًا...

وتبدأ بتلك الفالسات التي تُعزَف في قاعات الرقص، الساذجة، المتوتِّرة، والتي لم يَتذكَّر أبدًا أنَّه سمعها من قبل، ولكنَّها تَتشبَّث بصورةٍ رهيبةٍ في مَمرَّاتٍ قديمةٍ في ذاكرته.

ـ هذه لا، يا ابنة العمّ، هذه لا...

كان هَزليًّا جدًّا. كان خائفًا. طلب السماح لعدم انتشائه بموسيقاها، استغفر لأنَّه لا يُطيقها منذ أن كان صبيًّا، تفوحُ منها رائحة القماش العتيق، الجواهر القديمة، عندما كان يُشاهدها تُعدُّ له «الشاي ضدَّ الأوجاع»، عندما كانت تَعِدُه بأنَّها ستعزف له شيئًا جميلًا جدًّا إذا درسَ باجتهاد. تَذكَّرها وهي تغادر المنزل، والمسحوق الأبيض الفاتح على بَشرتها الرماديَّة، وخطُّ العنق المستدير الكبير الذي يَكشف عن رقبتها حيث تبدو شراييها بارزة، مأساويَّة. حذاؤها ذو الكعب المسطَّح مثل حذاء طفلة، المظلَّة المستخدمة بجرأةٍ مُرعِبة، كعصا. طلب السماح لأنَّه تمنَّى ـ لا، لا! ـ أن تموت ـ ارتجف، وكان غارقًا في العرق. «لكنَّ الذنب ليس ذنبي!». آه، ينبغي أن يُغادر، ليخطِّط لكتاب القانون المدنيّ، للابتعاد عن هذا العالم البشريِّ الرهيب والحميم على نحوٍ بغيض.

ـ إذن «حفيفُ الربيع...»، قالت إيزابيل.

نعم، نعم. أريدُ الربيع... يا ربّ، ساعدني. أنا أختنق. كان الرَّبيع السَّخيف أكثر نضارةً وبهجة.

ـ هذه الموسيقى مثل وردةٍ زرقاء، قالَت، ملتفتةً نحوه وبابتسامةٍ خبيثةٍ خفيفة. على وجهها الجافِّ المتجعِّد، ظهر فجأةً وريدُ ماءٍ في الصحراء، ارتعشَ قرطا ألماس الصغيريْن من أذنيْها المترهِّلتيْن، قطرتان صغيرتان مُبلَّلتان، مُتلألئتان. آه، كانتا طازجتيْن وشهوانيَّتيْن بإفراط... كانت السيِّدة العجوز تملكُ الكثير. ولكنَّها ترتدي الأقراط المتدلِّية، لسببٍ لم يعرفه أبدًا: لقد اشترَت الحجريْن بنفسها، ووضعتهما في القرطيْن، وحملتهُما مثل شبحيْن تحت شعرِها الرماديِّ الأجعد.

هذه الموسيقى تبدو وردةً زرقاء، قالت، وهي تعي ألَّا أحدَ يستطيعُ فهمها. بناءً على التجربة، كان يعرفُ أنَّه يجب أن يسألها عمَّا تعنيه وأنَّ عليه أن ينتظر منها بكلِّ الصبر الإجابة وهي تعضُّ شفتها السفلى:

ـ آه، هذا سِرِّي الخاصّ.

ولكن هذه المرَّة لم تَتكرَّر اللعبة القديمة. اقتصرَ على تَجنُّب النظر إلى العجوز وملاقاة خيبة أملها. نهضَ وذهب ليطرق باب خطيبته.

كانت تخيطُ قرب النافذة. أغلق الباب، أقفله بالمفتاح، وركع بجانبها. أسند رأسه على صدرها واستنشقَ مرَّةً أخرى عطرَ الورود القديمة الدافئ الحلو. استمرَّت في الابتسام، شاردة، شبه غامضة، كما لو كانت تستمع إلى التدفُّق الناعم لنهرٍ داخل صدرها.

«أوتافيو، أوتافيو»، قالت بصوتها الحلو البعيد.

لم يكن أيٌّ من سكان ذلك المنزل، لا ابنة عمّه العانس، ولا ليديا، ولا الخدم، يعيشون ـ فكَّر أوتافيو. لا، هذا ليس صحيحًا، أجاب نفسه: كان هو وحده الميِّت. لكنَّه استمرَّ: أشباح، أشباح. أصواتهم بعيدة، لا توقُّعات، السعادة.

ـ ليديا، سامحيني، قال.

ـ علامَ؟ سألت مُتظاهرةً الدَّهشة.

ـ على كلِّ شيء.

اعتقدَت بصورةٍ غامضةٍ أنَّها يجب أن توافق ولم تقل شيئًا. أوتافيو. أوتافيو. كم كان سهلًا التحدُّث مع الأشخاص الآخرين. لو لم تكن تريده بشدَّة، لصعب عليها كثيرًا تَحمُّل عدم التفاهم من جهته. كانا يتفاهمان فقط عندما تَجمعُهما قبلة، حينما يحني أوتافيو رأسه هكذا، على صدرها. لكنَّ الحياة كانت أطول، فكَّرت بخوف. لسوف توجد لحظاتٌ تنظر فيها في وجهه من دون أن تتمكَّن يدها من الوصول إليه. وبعد ذلك ـ سيثقل الصمت. سيكون مُنفصلًا عنها دَومًا، لا يَتواصلان إلَّا في اللحظات الرائعة ـ عندما يكون هناك الكثير من الحياة وعندما يكون هناك تهديدٌ بالموت. لكنَّ ذلك لم يكن كافيًا، لم يكن كافيًا... كانت الحياة معًا ضَروريَّةً على وجه التَّحديد لكي تعيش اللحظات الأخرى، فكَّرت بخوفٍ وجهد. له، لن تكون قادرةً إلَّا على قول الكلمات التي لا غنى عنها، كما لو كان إلهًا في عجلةٍ من أمره. لو أطالت الكلام في تلك الدردشات الماهلة، التي لا تهدفُ إلى شيءٍ عدا المتعة، تلاحظ نفادَ صبرِه أو وجهه البطوليَّ الصبور على نحوٍ مبالغٍ فيه.. أوتافيو، أوتافيو... ما العمل؟ قُربُه كان لمسةً من السحر، تُحيلها

إلى كائنٍ حيٍّ بالفعل، كلُّ عصبٍ فيها يَتنفَّس مُمتلئًا بالدم. كلُّ شيءٍ عدا ذلك لا يُحرِّكها. يُعلن عليها سُكونًا وكأنَّه ببساطةٍ يأتي بهدوءٍ لكي يَجعلها مُكتمِلة.

كانت تعلمُ أنَّه من غير المجدي أن تتداول بشأن مصيرها. لقد أحبَّت أوتافيو منذ اللحظة التي أرادها فيها، منذ صغرهما، تحت نظرات ابنة العمِّ الفرحة. وكانت ستحبُّه دائمًا. لا نفعَ من اتِّخاذ مساراتٍ أخرى، حينما كان يجب على خطواتها أن تقودها. حتَّى عندما يُسيء إليها، كانت تلجأ منه إليه. كانت ضعيفةً جدًّا. بدلًا من أن تعاني من إدراكِ ضعفها، كانت تفرح: تعلم بغموض، من دون أن تُفسِّر الأمر لنفسها، أنَّه من هذا الضعف بالذات كان يُولَد دعمُها لأوتافيو. كانت تَشعُر بأنَّه يُعاني، وبأنَّه يؤوي شيئًا حيًّا ومريضًا في روحِه وأنَّها لن تكون قادرةً على مُساعدتِه إلَّا من خلال حشدِ كلِّ الخمود الكامن في كيانها.

في بعض الأحيان كانت تَتمرَّد بعيدًا: الحياة طويلة... كانت تخشى الأيَّام، يومًا تلو الآخر، من دون مُفاجآت، في تفانٍ خالصٍ لرجل. لرجلٍ يستخدم من دون أيِّ حرجٍ كلَّ طاقة زوجته لإشعال ناره الخاصَّة به، بتضحيةٍ هادئةٍ وغير واعيةٍ بكلِّ شيءٍ عدا شَخصيَّته. لقد كان تَمرُّدًا زائفًا، محاولة تحريرٍ تأتي بخوفٍ كبيرٍ من النصر. كانت تسعى خلال بضعة أيَّامٍ لاتِّخاذ مَوقف الاستقلال، والذي لا يَتحقَّق إلَّا بنجاحٍ نسبيٍّ في الصباح، عندما تستيقظ، حتَّى قبل أن تراه. مجرَّد وجوده المحسوس كان يكفي لإلغاء نفسها وللانتظار. في الليل، وحدها في غرفتها، كانت ترغب به، كلُّ أعصابها، كلُّ عضلاتها المريضة. لذلك سلَّمت أمرها وكان تسليمًا حلوًا وطازجًا، وُجِدَ من أجلها هي.

نَظر أوتافيو إلى شعرها الداكن، المشدود إلى الخلف، وراء أذنيْها الكبيرتيْن القبيحتيْن. نظر إلى جسدها الثخين والصلب، مثل جذع شجرة، إلى يديْها الصلبتيْن الجميلتيْن. ومرَّةً أخرى، مثل جوقةٍ للأغنية، كرَّر «ما الذي يربطني بها؟». كان يُشفق على ليديا، ويعلم أنَّه حتَّى من دون دافع، حتَّى من دون التعرُّف على امرأةٍ أخرى، وعلى الرَّغم من كونها الوحيدة، فإنَّه سيتركها يومًا ما. ربَّما في اليوم التالي. لم لا؟

ـ أتدرين؟ قال، رأيتكِ في منامي الليلة الماضية.

فتحَت عينيْها وتألَّقت كلُّها:

ـ حقًّا؟ كيف كان؟

ـ حلمتُ أنَّنا كنَّا نتجوَّل في حقلٍ مليءٍ بالزهور، وأنَّني كنت أقطف الزنابق لك، وأنَّك ترتدين ملابس بيضاء.

ـ يا له من حلمٍ جميل...

ـ أجل، جميلٌ جدًّا...

ـ أوتافيو.

ـ نعم...؟

ـ هل تنزعجُ إن سألت، متى سنتزوَّج؟ لا يوجد شيءٌ يَمنعنا... أريد أن أعرف بسبب الجهاز.

ـ هل هذا هو السبب الوحيد؟

احمرَّت خجلًا، مسرورةً لأنَّها كانت قادرةً على قول شيءٍ جعلها أجمل. وبشيءٍ من الإحراج وقليلٍ من الغطرسة، قالت:

ـ إنَّه ذلك و... أيضًا لأنَّني لا أريد الانتظار. إنَّه أمرٌ صعبٌ للغاية.

ـ أنا أفهم. لكنَّني لا أعرف متى.

ـ ولكن لماذا ليس على الفور؟ يجب أن تُقرِّر... لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ ذلك...

فجأةً، نهض أوتافيو، وقال:

ـ أنتِ تعلمين أنَّها كذبة؟ أنَّني لم أحلُم بك؟

نظرَت إليه مذعورةً شاحبة.

ـ أنتَ تمزح...

ـ لا، أنا جادّ. لم أحلُم بك.

ـ بمن حلمتَ إذًا؟

ـ لا أحد. نمتُ مباشرة، من دون أحلام.

استأنفت الخياطة.

مسحَت جوانا يدها على بطنِ الكلبة المنتفخ، وربَّتت عليه بيديْها النحيلتيْن ثمَّ تراجعت في حالة تأهُّبٍ طفيفة.

قالت: إنَّها حبلى.

وكان هناك شيءٌ في نظرتها، في يدها التي تربَّت على جسد الكلبة والذي رَبطها مباشرةً بالواقع الذي يُعرِّيها. كما لو أنَّ كلاهما اتَّخذ هيئة كتلةٍ واحدةٍ مُستمرَّة. لقد كانتا هناك، المرأة والكلبة، كائنان حيَّان وعاريان، يربطهما شيءٌ شرِس. «تتحدَّث بدقَّةٍ مُرعِبةٍ من المصطلحات»، فكَّر أوتافيو على نحوٍ غير مريح، شاعرًا فجأةً بأنَّه عديم الفائدة ومتخنِّثًا. وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي يَراها فيها.

لاحظَ أنَّ هناك جودةً صلبةً وبلَّوريَّةً فيها جذبَتهُ وصدَّته في الوقت ذاته. حتَّى طريقتُها بالسَّير، الخالية من الحنان والاهتمام تجاه جسدها الذي كانت تدفعه مثل إهانةٍ في عيون الجميع، وببرود. تأمَّل أوتافيو حركاتها وفكَّر أنَّها لم تكن حتَّى جسديًّا المرأة التي يُريدها. فضَّل الأجسام الصغيرة، المُرتَّبة من دون نوايا، أو الضخمة مثل جسم خطيبته، الثابت، الأخرس، يَكتفيان بأيِّ شيءٍ يقوله. كانت مَلامح جوانا، تخطيطًا هشًّا، غير مُريح. كانت مليئةً بالمعنى، عيناها مفتوحتان مُتوهِّجتان. لم تكن جميلة، بل نحيفةٌ جدًّا. حتَّى شبقها يجب أن يكون مُختلفًا عن شبقِه، مُضيئًا بإفراط.

سَعى أوتافيو، منذ اللحظة التي قابلها فيها، إلى عدم تفويت أيٍّ من تفاصيلها، قائلًا لنفسه: «أرجو ألَّا يتبلور أيُّ شعورٍ بالحنان في داخلي». أحتاج إلى رؤيتها بصورةٍ مُلائمة. ومع ذلك، كما لو أنَّها شعرَت أنَّها تخضع للفحص، التفتَت جوانا إليه في تلك اللحظة بالتَّحديد، مُبتسمةً، باردةً، خامدةً قليلًا. فتصرَّف بحماقةٍ وتحدَّث وارتبكَ مُستعجلًا لإطاعتها. بدلًا من جعلها تكشفُ عن نفسها وبالتالي تُدمِّر نفسها في قوَّته. وعلى الرَّغم من ذلك الجوِّ لشخصٍ كان غافلًا عن أكثر الأشياء العاديَّة، مثل المرَّة الأولى التي التقيا فيها، فقد ألقَت به في نفسه! لقد ألقَت به في حَميميَّته، ونسيت ببرودٍ تلك الصيغ الصغيرة المريحة التي تسنده وتُسهِّل عليه التواصل مع الناس.

أخبرَته جوانا...

... مشى الرجل العجوز، وجَسَده السمين يَهتزّ، وجمجمته ناعمة. اقترب منها، شفتان مُتغضِّنتان، عينان مُستديرتان، وبصوتٍ مُتباك، قال مُقلِّدًا كلام طفل:

«لديَّ «واوا» هنا «واوا». لقد وضعتُ الدواء عليه، بعد قليلٍ يشفى».

أدار عينيْه إلى الوراء وللحظةٍ اهتزَّ شحمه، وتألَّق لمعانُ شفتيْه الرطبتيْن المترهِّلتيْن بلطف. انحنت جوانا قليلًا، ورأت لثَّته الفارغة.

ـ ألن تقولي إنَّك تشعرينَ بالأسف تجاهي؟

حَدَّقت فيه بجدِّيَّة. فاستطرد:

ـ ألن تقولي ولا حتَّى «يا مسكين؟».

كان مَنظره مُضحكًا ومُحيِّرًا بسبب قصره، ومُؤخِّرته البارزة، وعينيْه الكبيرتيْن المتأهِّبتيْن، في تحيَّةٍ كبيرةٍ مُهتزَّة. بقيت صامتة. ثمَّ، ببطء، بالنغمة نفسها:

ـ أيُّها المسكين.

ضحِك، واعتبرَ أنَّ اللعبة قد انتهت واستدارَ إلى الباب. تبعته جوانا بعينيْها، وانحنَت قليلًا لكي تتمكَّن من رؤيته بأكمله، بمجرَّد أن ابتعد عن الطاولة. واجهته مُنتصبةً وباردة، وعيناها مَفتوحتان وصريحتان. نظرت إلى الطاولة، وفتَّشت للحظة، والتقطت كتابًا صغيرًا سميكًا. حينما وضع يده على المزلاج، تلقَّاه على رقبته بقوَّة. استدار فورًا ويده على رأسه، وعيناه واسعتان من الألم والصدمة. بقيَت جوانا على حالها. حسنًا، فكَّرت، لقد تخلَّى الآن عن تلك الهيئة المثيرة للاشمئزاز. يجب على الرجل العجوز أن يُعاني فقط. قالت بصوتٍ عالٍ وودود:

ـ سامِحني. كانت هُناك سحليَّةٌ صغيرة، فوق الباب. ثمَّ صمتت لبرهةٍ قبل أن تضيف، لكن لم أصبها.

ظلَّ الرجل العجوز يَنظر إليها، لا يفهم. ثمَّ سيطر عليه رعبٌ غامضٌ وهو يُحدِّق في ذلك الوجه المبتسم.

ـ إلى اللِّقاء... لا بأس... يا إلهي! إلى اللِّقاء... بعد أن أغلق الباب، بقيَت الابتسامة على وجهها لفترةٍ من الوقت. هَزَّت كتفيْها قليلًا. ذهبت إلى النافذة، نظرتها متعبةٌ وفارغة:

ـ ربَّما يجب أن أستمعَ إلى الموسيقى.

ـ نعم، هذا صحيح، لقد ألقيتُ الكتابَ عليه، أجابت جوانا على سؤال أوتافيو.

حاول الظفر:

ـ لكنَّك لم تُخبري الرجل العجوز بذلك!

ـ لا، لقد كذبت.

تَفحَّصها أوتافيو، وبحثَ عبثًا عن شيءٍ من الندم، أو علامة اعترافٍ ما.

ـ فقط بعد أن أعيش أكثر أو أفضل، سأتمكَّن من التَّقليل من قيمة ما هو إنسانيّ، كانت جوانا تقول له أحيانًا. إنسانيّ ـ أنا. إنسانيّ ـ البشريَّة مقسَّمةٌ إلى أفراد. أن أنساهم لأنَّ علاقاتي معهم لا يمكن إلَّا أن تكون عاطفيَّة. عندما أبحث عنهم، فأنا أطالبهم أو أعطيهم ما يعادل الكلمات القديمة تلك التي نسمعها دائمًا، «الأخوَّة»، «العدالة». لو كانت لها أيُّ قيمةٍ حقيقيَّة، لما احتلَّت القمَّة، بل قاعدة المثلث. ستكون الحالة وليس الحقيقة نفسها. ومع ذلك، ينتهي بهم الأمر باحتلال كلِّ مساحتنا العقليَّة والعاطفيَّة على وجه التَّحديد، لأنَّه من المستحيل إدراكها، فهي

ضدُّ الطبيعة. إنَّها قاتلة، على الرَّغم من كلِّ شيء، في حالة الاختلاط التي نعيش فيها. في هذه الحالة تصبح الكراهية مَحبَّة، وهي في الحقيقة ليست أكثر من البحث عن المحبَّة، التي لا تتحقَّق إلَّا من الناحية النظريَّة، كما هو الحال في المسيحيَّة.

باللَّه عليك، اعفِني، صرخ أوتافيو. كانت تريدُ التوقُّف لكنَّ التعب والإثارة جرَّاء وجوده شحذا عقلها وانهمرت الكلمات من دون توقُّف.

تابعت قائلة: «من الصعب التقليل من قيمة ما هو إنسانيّ، من الصَّعب الهروب من هذا الجوِّ من الثورة الفاشلة (المراهقة)، والتعاطف مع الرجال الذين كانت جهودهم عاجزةً أيضًا. ولكن كم هو جيِّدٌ بناء شيءٍ نَقيّ، خالٍ من الحبِّ المتسامي الزائف، خالٍ من الخوف من ألَّا تُحِبّ... الخوف من ألَّا تُحبَّ هو أسوأ من الخوف من أن تُحَبّ...».

آه، اِرحميني، سَمِعت جوانا في صمت أوتافيو. لكنَّها في الوقت نفسه كانت تُحبُّ التَّفكير بصوتٍ عال، لتنمية خطٍّ تفكيرٍ من دون خطَّة، فقط باتِّباعه. في بعض الأحيان، من أجل متعتها المحضة وحسب، كانت تخترع تأمُّلات: إذا سَقط حجر، يعني أنَّ ذلك الحجر موجود، وأنَّ هناك قوَّةً سبَّبت في سقوطه، ومكانًا سقط منه، ومكانًا سقط عليه، ومكانًا سقط فيه ـ لا أعتقد أنَّ أيَّ شيءٍ قد أفلتَ من طبيعة الحدث، باستثناء لغز الحدث. لكنَّها الآن كانت تَتحدَّث أيضًا لأنَّها لم تكن تعرف كيف تبذل نفسها، وخاصَّةً لأنَّها شعرت، من دون أن تدري كيف، بأنَّ أوتافيو قد يَحتضنها ويمنحُها السلام.

قالت له: «في إحدى الليالي، كنتُ قد استلقيتُ للتوّ، عندما انكسرت إحدى أقدام السرير فانهار ورماني على الأرض. بعد حركةٍ

غاضبة، لأنَّني لم أكن على الأقل نعسانةً بما يكفي لكي أتخلَّى عن الراحة، فكَّرتُ فجأةً: لِمَ سريرٌ كامل، لِمَ لا يكون سريرًا أعرج؟ استلقيتُ وسرعانَ ما غفوت...».

لم تكن جميلة. في بعض الأحيان كان الأمر كما لو أنَّ روحها هجرتها فتُظْهِر ـ من خلال اليقظة الخارقة (تخيَّل أوتافيو) ـ، ما لم يكشف عن نفسه. فيظهر الوجه، ملامح محدودةٌ وبسيطةٌ من دون جمالٍ خاصٍّ بها. لم يبقَ شيءٌ من سرِّها السابق سوى لون بشرتها، قشديّ، كئيب، هارب. إذا امتدَّت لحظات الشرود وتتابعت، فعندئذٍ كان يَنظر خائفًا إلى القبح، وأكثر من القبح، إلى نوعٍ من الخسَّة والوحشيَّة، شيءٍ أعمى لا مفرَّ منه يُسيطرُ على جسد جوانا كما لو كان في حالة تَحلُّل. أجل، أجل، ربَّما يطفو على السطح شيءٌ من خوفها من عدم الحبّ.

ـ أجل، أنا أعلم، تابعت جوانا، المسافة التي تفصل العواطف عن الكلمات. لقد فكَّرت في ذلك. والشيء العجيب جدًّا هو أنَّه في اللحظة التي أحاول فيها التحدُّث، لا أفشل فقط في التعبير عمَّا أشعر به، ولكن ما أشعر به يصبح ببطءٍ ما أقوله. أو على الأقلِّ إنَّ ما يجعلني أتصرَّف ليس، بالتَّأكيد، ما أشعر به، ولكن ما أقوله.

لقد تحدَّثت عن الرجل العجوز، وعن حمل الكلبة، وكانا قد تقابلا للتوِّ وفجأة، خاف، وشعرَ كما يشعرُ المرء بعد اعتراف، كما لو كان قد أخبر تلك الغريبة بكلِّ حياته. أيُّ حياة؟ تلك التي تتعارك بداخله ولم تكن أيَّ شيء، كرَّر لنفسه خائفًا من رؤية نفسه مُتكلِّفًا ومليئًا بالعلاقات المسؤولة. لم يكن شيئًا، لم يكن شيئًا وبالتالي لا يحتاج إلى فعل أيِّ شيء، كرَّر الكلام ذاته بينه وبين نفسه وعيناه مُغمضتان ذهنيًّا؛

كما لو أنَّه أخبر جوانا بالأشياء التي لم يشعر بها إلَّا في الظلام. والأكثر إثارة للدَّهشة من ذلك كلِّه: كما لو أنَّها استمعت وضحكت بعد ذلك، مُتسامِحة (ليس مثل اللهِ، ولكن مثل الشيطان)، وشرَّعت أمامه الأبواب للدخول!

بمُجرَّد أن لمسها فهم أنَّ كلَّ ما سيحدث بينهما سيكون حتميًّا. لأنَّه عندما احتضنها، شعر بها تنبضُ فجأةً بالحياة بين ذراعيْه مثل الماء الجاري. وحينما نظرَ إليها، أدرك أنَّه هلك وأنَّه كان مَسرورًا في سرِّه لأنَّها في حال رغبت به فلن يكون قادرًا على فعل أيِّ شيءٍ حيال ذلك... وأخيرًا، عندما قبَّلها، شعر هو نفسه بأنَّه حُرٌّ فجأة، ومغفورٌ له بقدرٍ يفوق مَعرفته بذاته، مغفورٌ له من أجل ما يَكمُن تحت كلِّ ما كان عليه...

منذ ذلك الحين لم يَعُدْ لديْه خيار. لقد سقط بسرعةٍ فائقةٍ من ليديا إلى جوانا. ورغم إدراكه للأمر، فقد أعان نفسه على حُبِّها. لم يكن الأمر صَعبًا. مرَّةً كانت سارحةً تُحدِّق من النافذة، شفتاها مُرتخيتان، شاردة، وبمجرَّد أن ناداها هجرتها تلك الهيئة الناعمة وحينما أدارت رأسها قائلة: ماذا؟ سقط في نفسه وغرق في موجة حبٍّ مُظلمةٍ دائخة. ثمَّ أدار أوتافيو وجهَه بعيدًا، ولم يرغب في النظر إليها.

كان بإمكانه أن يحبَّها، أن يدخل تلك المغامرة الجديدة غير المفهومة التي قَدَّمتها له. لكنَّه كان لا يزال مُتشبِّثًا بالدافع الأوَّل الذي دفعه إليها. لم يكن الأمر كاندفاعه إلى امرأة، لم يكن الأمر على هذا النحو، يُريدها مذعِنة.. كان في حاجةٍ إليها باردةً وواثقة. لذا كان بإمكانه أن يقول، كما فعل عندما كان صبيًّا، مَحميًّا ومُنتصرًا تقريبًا: هذا ليس خطأي...

سوف يتزوَّجان، وسوف يتبادلان النظر دقيقةً بعد دقيقةٍ وسوف يتأكَّد أنَّها أسوأ منه وأقوى وقد تُعلِّمه ألَّا يشعر بالخوف. حتَّى ذلك الخوف من عدم الحبّ... إنَّه لا يريدها لكي يبني حياته معها، ولكن لكي تسمح له بالعيش. العيش على نفسه، على ماضيه، على سفالاته الصغيرة التي ارتكبها بجبنٍ والتي ما زال مرتبطًا بها وبجبن. كان أوتافيو يعتقد أنَّه إلى جانب جوانا سيظلُّ قادرًا على ارتكاب الخطيئة.

عندما قبَّلها أوتافيو، أمسكَ بيديْها، وضغطهما على صدره، عضَّت جوانا على شفتيْها في البداية غاضبةً لأنَّها كانت لا تزال تجهل بأيِّ تفكيرٍ سوف تُلبس ذلك الإحساس العنيف، الذي يُشبِه الصراخ، الصاعد من صدرها حتَّى رأسها فيُديخها. نظرت إليه من دون أن تراه، عيناها غائمتان، وجسدها يعاني. كان عليهما أن يتودَّعا. ابتعدت بفظاظةٍ وغادرت من دون أن تنظر إلى الوراء، من دون أيِّ اشتياق.

في غرفتها، عاريةً في سريرها، لم تستطع النوم. شعرت بثقل جسدها، وكأنَّه لشخصٍ آخر غريب. شعرَتهُ ينبض، متوهجًا. أطفأت، الضوء وأغمضت عينيْها، حاولت الهروب، النوم. لكنَّها استمرَّت في التدقيق في نفسها لعدَّة ساعات، وفي مُراقبة الدم الذي يَجرُّ نفسه بكثافةٍ في عروقها مثل مَخمور. وفي التَّفكير. وكأنَّها لم تكن تعرف نفسها قبل ذلك الحين. حَركاتها الطفيفة النحيلة، خطوطُ مراهقتها الرقيقة. إنَّها تتفتَّح، تتنفَّس مُختنقةً ومُتكبِّرةً إلى أقصى حدّ.

عند الفجر، مسحَ نسيم البحر السرير، ولوَّح بالستائر. وبدأت جوانا تسترخي بنعومة. داعبَت برودة الفجر الباكر جَسدها المؤلم. أخذها التعب ببطء، ومرهقةً غطَّت فجأةً في نومٍ عميق.

استيقظت متأخِّرةً ومبتهجة. تخيَّلت أنَّ كلَّ خليةٍ في جسمها قد تفتَّحت وأزهرت. وبأعجوبة، كانت كلُّ طاقاتها مستعدَّةً للكفاح. عندما فكَّرت في أوتافيو، تنفَّست بحذرٍ كما لو أنَّ الهواء سيؤذيها. في الأيَّام التي تلت، لم تره ولم تحاول رؤيته. في الواقع، تجنَّبته وكأنَّ وجوده غير ضروريّ.

ولأنها كانت جسمًا ينبض بكلِّ حيويته، أحسَّت أنَّها صارت روحًا خالصة. وهكذا مرَّت بأحداثٍ وساعاتٍ غير مادِّيَّة، كانت تنزلقُ من بينها بخفَّةٍ لحظة. بالكاد أكلَت وكان نومُها ناعمًا كمنديل. تَستيقظ عدَّة مرَّاتٍ في الليلة، من دون فزع، تستعدُّ للابتسام قبل التَّفكير. ثمَّ تغفو مرَّةً أخرى من دون تغييرِ وضعها، تُغلِق عينيْها وحسب. بحثَت عن نفسها كثيرًا في المرآة، وأحبَّت نفسها من دون غرور. بشرتُها الهادئة وشفتاها الزاهيتان جعلتها تُدير ظهرها بخجلٍ لصورتها غير قادرةٍ على تركيز نظرها في نظر تلك المرأة، الطازج والرَّطب والواضح إلى حدٍّ ما، والواثق من نفسه.

ثمَّ توقَّفت السعادة.

أصبحَ الفيض مؤلِمًا وثقيلًا، وصارت جوانا سحابةً على وشك المطر. تنفَّست بصعوبةٍ كما لو لم يكن هناك متَّسعٌ للهواء بداخلها. سارت ذهابًا وإيابًا، في حيرةٍ من التغيير. كيف؟ تساءلت وشعرت بأنَّها كانت ساذجة، هل كان هناك جانبان لذلك؟ أن تُعاني من الشيء ذاتِه الذي جعلها سعيدةً للغاية؟

حملَت جسدها المريض معها، ضحيَّةً ثقيلة، خلال النهار. اِستُبدلت الخفَّة بالبؤس والتعب. مُتخَمة، أطفأت عطشها مُغرِقةً جسدها

بالماء. لكنَّها كانت قلقةً وتعيسةً كما لو أنَّه على الرَّغم من كلِّ شيء، لا تزال هناك أرضٌ لم تُرْوَ بعد، قاحلةٌ وعطشى. لقد عانت قبل كلِّ شيءٍ من عدم الفهم، وحدها، مَذهولة. إلى أن أمالت جبهتها مقابل زجاج النافذة ـ الشارع هادئ، والليل يهبط، والعالم هناك، تَنبَّهت لوجهه المتبلِّل، بكَت بحرِّيَّة، كما لو كان البكاء هو الحلّ. كانت دموعها كثيفة، ولم تتقلَّص عضلةٌ واحدةٌ من وجهها. بكت أكثرَ ممَّا يُحصى. بعد ذلك شعرت كما لو أنَّها عادت إلى أبعادها الحقيقيَّة، صغيرة، ذابلة، مُتواضعة، فارغةً بهدوء. كانت جاهزة.

ذهبت إليه بعد ذلك. وكان المجد الجديد والمعاناة الجديدة أكثر كثافةً وبجودةٍ لا تُطاق.

تَزوَّجت.

جاء الحبُّ ليؤكِّد كلَّ الأشياء القديمة التي كانت تعلُم بوجودها من دون أن تَقبَلها أو تشعُر بها. دار العالم تحتَ قدمَيْها، وكان هناك جنسان بين البشر، خطٌّ يربط الجوع بالشبع، والحبَّ بين الحيوانات، ومياهَ الأمطار المتَّجهة إلى البحر، وكان الأطفال كائناتٍ تنمو، وفي الأرض سيصبحُ البرعم نباتًا. لم تَعُدْ قادرةً على إنكار... ماذا؟ تساءلَت في تشويق. المركز المضيء للأشياء، والتَّوكيد الذي يدعم كلَّ شيء، والانسجام الذي كان مَوجودًا تحت الأشياء التي لم تفهمها.

نهضَت إلى صباحٍ جَديد، على قيد الحياة بلطف. وكانت سعادتُها نقيَّةً مثل انعكاس الشمس في الماء. اهتزَّ كلُّ حدثٍ في جسدها مثل إبرٍ بلَّوريَّةٍ صغيرةٍ تَتحطَّم. بعد لحظاتٍ قصيرةٍ وعميقةٍ عاشت بهدوءٍ لفترةٍ طويلة، مُتفهِّمة، مُتلقِّية، مُستسلمةً لكلِّ شيء. شعرَت وكأنَّها جزءٌ

من العالم الحقيقيّ ونأت بنفسها بصورةٍ غريبةٍ عن البشريَّة. بَيْدَ أنَّها تمكَّنت في هذه الفترة من تقديم يدها للناس بأخويَّةٍ شعروا بمصدرها الحيّ. أخبروها عن مشاكلهم الخاصَّة وهي، على الرَّغم من أنَّها لم تكن تسمع، ولا تفكِّر، ولا تتكلَّم، كانت لديْها نظرةٌ جَيِّدة ـ مشرقةٌ وغامضةٌ مثل نظرة امرأةٍ حامِل.

ماذا حَدث إذن؟ كانت تحيا بأعجوبة، مُتحرِّرةً من كلِّ الذكريات. صار الماضي دُخانيًّا بأكملِه، الحاضر أيضًا ضَبابيًّا. الضباب الحلو والبارد الذي فصلها عن الواقع الصّلب، ومنعها من لمسه. إن صلَّت أو فكَّرت فلا يكون إلَّا للشُّكر على جسدٍ صُنع للحبّ. أصبحت الحقيقة الوحيدة هي الحنان الذي غرقت فيه. كان وجهها خفيفًا وغير واضح، يَطفو بين الوجوه الأخرى المعتَّمة والواثقة، كما لو أنَّه لا يزال غير قادرٍ على انتقاء أيِّ تعبير. فَقَدَ كلُّ جسدها وروحها حدودهما، واختلطا، واندمجا في فوضى واحدة، ناعمةٍ وعاطفيَّة، وبطيئةٍ وبحركاتٍ غامضةٍ مثل المادَّة التي كانت حيَّةً ببساطة. لقد كان التجديدَ المثاليَّ، الخلق.

وكان ارتباطها بالأرض عَميقًا جدًّا ويقينُها راسخًا جدًّا ـ من ماذا؟ من ماذا؟ ـ أنَّها قادرةٌ الآن على الكذب دون فضح نفسها. كلُّ هذا جعلها تفكِّر في بعض الأحيان:

ـ يا إلهي، ماذا لو كنت أصنعُ من هذا أكثر من الحبّ؟

أخذت تعتاد شيئًا فشيئًا على حالتها الجديدة. اعتادت على التنفُّس، على العيش. وشيئًا فشيئًا أخذت تتقدَّم في العمر من الداخل، وفتحَت عينيْها وكانت تمثالًا مرَّةً أخرى، لم تَعُدْ مرِنة، ولكنَّها مُحدَّدة. بعيدًا، كان الأرق يُولَد من جديد. في الليل، بين الأوراق،

ستُوقِظها حركةٌ أو فكرةٌ غير مُتوقَّعةٍ لنفسها. فوجِئت قليلًا بأنَّها تُوسِّع عينيْها، وترى جَسدها مَغمورًا في سعادةٍ مُريحة. لم تكن تعاني، لكن أين كانت؟

«جوانا... جوانا... هتفَت إلى نفسها بهدوء. وبالكاد أجاب جسدُها ببطءٍ وهدوء: «جوانا».

مرَّت الأيَّامُ وتاقَت إلى أن تَجِد نفسها أكثر. نادَت نفسها الآن بقوَّةٍ ولم يكن التنفُّس كافيًا بالنِّسبة إليها. كانت السعادة تَمحوها وتمحوها... لقد أرادَت بالفعل الشعور بنفسها مرَّةً أخرى، حتَّى لو كان ذلك مُؤلِمًا. لكنَّها غرقَت أكثر فأكثر. غدًا، كانت تُؤجِّل، غدًا سأرى نفسي. ومع ذلك، كان اليوم الجديد يُرفرِف على سطحِها، خفيفًا مثل فترة ما بعد الظهيرة الصيفيَّة، بالكاد ينقِفُ أعصابها.

الشيء الوحيد الذي لم تعتَد عليه هو النوم. كان النوم مُغامرةً كلَّ لَيلة، تسقطُ في الضوء السهل الذي تعيشُ فيه من أجل اللغز ذاته، المظلم والبارد، أي عبور الظلام، الموت والولادة من جديد.

لن يكون لديَّ توجيهاتٌ بعد ذلك، فكَّرت بعد بضعة أشهرٍ من الزواج. أنزلقُ من حقيقةٍ إلى أخرى، وأنسى دائمًا الأولى، وغير راضيةٍ دائمًا. كانت حياتها تَتكوَّن من حيواتٍ صغيرةٍ تامَّة، من دوائر كاملةٍ مُغلقةٍ تَعزل نفسها عن بعضها بعضًا. الاستثناء الوحيد هو أنَّ في نهاية كلٍّ مِنها، بدلًا من الموت وبدء الحياة على مُستوى آخر، غير عُضويٍّ أو أقلَّ عُضويَّة، كانت جوانا تبدأ من جديدٍ على المستوى البشريِّ نفسه. مُجرَّد نغماتٍ أساسيَّةٍ مُختلفة. أو مُجرَّد نغماتٍ تَكميليَّةٍ مُختلفة، والأساسيَّة لا تَتغيَّر أبدًا؟

لم يكن مُجديًا أن تكون سعيدةً أو غير سعيدةٍ دائمًا. وحتَّى أن تكون قد أحبَّت. لم تكن أيُّ سعادةٍ أو تعاسةٍ قويَّةً بما يكفي لتحوّل عناصر مادَّتها، وتمنحها طريقًا واحدًا، كما يجب أن يكون طريقُ الحقيقة. (أستمرُّ دائمًا في استهلال دوائر الحياة، وفتحها وإغلاقها، ورميها جانبًا، ذابلة، مَليئةً بالماضي. لماذا تبدو مُستقلَّةً جدًّا، لماذا لا تندمجُ في كتلةٍ واحدةٍ فقط، وتكون بمثابة أساسٍ لي؟ الحقيقة هي أنَّها كانت كاملةً جدًّا. لحظاتٌ مُكثَّفةٌ للغاية، حمراء، مُركَّزةٌ في حدِّ ذاتها إلى درجة أنَّها لم تكن في حاجةٍ إلى الماضي أو المستقبل من أجل الوجود. لحظاتٌ جاءت بمعرفةٍ لم تكن بمثابة تجربة ـ معرفةٍ مُباشرة، أشبه بالإحساس أكثرَ من الإدراك. الحقيقة التي اكتشفتها بعد ذلك كانت الحقيقة إلى درجة أنَّها لا يمكن أن تعيش إلَّا في مُتلقِّيها، في الحقيقة الفعليَّة التي أثارتها. صحيحةٌ جدًّا، قاتلةٌ جدًّا، إلى درجة أنَّها تدور فقط حول مَصفوفتها. بمجرَّد انتهاء لحظةِ الحياة، يحدُث استنزاف الحقيقة المقابلة أيضًا. لا يُمكنني تَشكيلها وجعلها تلهم لحظاتٍ أخرى مِثلَها. لذا، لا شيء يقيِّدني).

ومع ذلك، فإنَّ تبرير مَجدها القصير لم تكن له قيمةٌ أخرى، ربَّما سوى منحها متعةً معيَّنةً في التَّفكير، مثل: إذا سقط حجر، هذا يعني أنَّه موجود، هذا الحجر سقط من مكانٍ ما، هذا يعني أنَّ الحجر.. كانت مخطئةً في كثيرٍ من الأحيان.

الجزء الثاني

الزواج

بدون أيِّ سابق إنذار، تذكَّرت جوانا نفسَها، واقفةً في أعلى الدرج ـ لم تكن تعرفُ ما إذا كانت قد وصلت يومًا إلى أعلى الدرج ـ تنظرُ إلى الأسفل، إلى الكثيرِ من الأشخاص المُنهَمكين، يَرتدون الساتان، ويحملون مراوح كبيرة. كان من غير المرجَّح حقًّا أن تكون قد مرَّت بذلك على الإطلاق. فعلى سبيل المثال، لم يكن للمراوح قوامٌ في ذاكِرتها. إذا حاولَت التَّفكير فيها، فما كانت لترى مَراوح في الواقع، ولكن مسحاتٍ مُشرقةً تسبحُ من جانبٍ إلى آخر وسط كلماتٍ باللُّغة الفرنسيَّة، تَهمسها بعنايةِ شفاهٍ مَضمومة، إلى الأمام مثل قُبلةٍ مُرسَلةٍ من بَعيد. تبدأ المروحة كمروحةٍ وتنتهي بكلماتٍ باللُّغة الفرنسيَّة. مُحال! لذا كانت كذبة.

ولكن على الرَّغم من كلِّ شيء، ظلَّ الانطباع راغبًا في المضي قِدمًا، كما لو أنَّ الشيء الرَّئيسيَّ يَكمُن وراء الدرج والمراوح. أوقفَت الحركات للحظةٍ فقط وعيناها ترمشان بسرعة، باحثتيْن عن الشعور. آه،

طبعًا، نزلَت الدرج الرخاميّ، وشعرت في باطن قدميْها بالخوف البارد من الانزلاق، وفي يديْها عرَقٌ ساخِن، وعند خصرها شريطٌ مَشدود، يَسحبُها إلى الأعلى مثل رافعةٍ خَفيفة. ثمَّ رائحةُ الأقمشة الجديدة، نظرةُ رجلٍ غريبةٌ تخترقها وكأنَّه ضغطٌ على زرٍّ في الظلام، أضاءَ جسدها.

اجتازتها عضلاتٌ كاملةٌ طويلة. أدنى فكرةٍ كانت تركُض على هذه الحبال المصقولة حتَّى ترتَجف هناك، عند كاحِليْها، حيث كان اللَّحم طريًّا مثل لحم الدجاج.

توقَّفت عند آخر درجة، مُرتاحةً من دون أيِّ إحساسٍ بالخطر، وضعَت راحة يدها برفقٍ على الدرابزين البارد والناعم. ومن دون أيِّ وعيٍ منها شعرَت بسعادةٍ مُفاجئة، مؤلمةٍ تقريبًا، وبكآبةٍ في قلبها، كأنَّها كانت مصنوعةً من العجين وأغرَق شخصٌ ما أصابعَه فيها، وعجنها بهدوء. لماذا؟ رفعَت يدها بهشاشة، في لفتةِ رَفض. لم تكن تريد أن تعرف. ولكن الآن كان السُّؤال قد خطر ببالها بالفعل، وكإجابةٍ سخيفةٍ جاء الدرابزين اللَّامع الممدودُ بمهارةٍ من العالي مثل شريطٍ مَطليٍّ بالورنيش في يومٍ كرنفاليّ. لكنَّه لم يَكن كرنفالًا، لأنَّ الصمت عمَّ في قاعة الرَّقص، وكان من المُمكن رؤية كلِّ شيءٍ من خلاله. الانعكاسات الرَّطبة للمصابيح على المرايا، ودبابيس السيِّدات وأبازيم أحزمة الرجال تتَّصل من وقتٍ إلى آخر مع الثريا، من خلال أشعَّة الضوء النحيلة.

شيئًا فشيئًا بدأت تفهمُ الأجواء. بين الرجال والنساء لم تكن هناك مساحاتٌ صلبة، كانت الأشياء تندمجُ بليونة. من سخَّانٍ ما غير مرئيّ، ارتفعَ بخارٌ رطبٌ ومثير. مرَّةً أخرى، تألَّم قلبها قليلًا وابتسمَت، وتجعَّد أنفها، وضعف تنفُّسها.

كانت هناك وقفةٌ صغيرةٌ للراحة. شرعَت تستعيدُ الواقع ببطءٍ، على الرَّغم من جهودها ضدَّ ذلك، جسدها غير حسَّاسٍ مرَّةً أخرى، مُعتَّمٌ وقويٌّ مثل شيءٍ على قيد الحياة منذ فترةٍ طويلة. لمحت غرفة النوم، والستائر تلوحُ بسخريَّة، والسرير الذي لا يتحرَّك بعناد، عديم الفائدة. حاولت مضطربةً نقل نفسِها إلى أعلى الدرج، لنزوله مرَّةً أخرى. رأت نفسها تمشي، لكن لم تَعُد تشعر برجفةٍ في ساقيْها ولا بتعرُّقِ يديْها حينها انتبهت أنَّها قد أفرغت الذاكرة.

انتظرت هُناك، قرب رفوف الكتب، إلى حيث مشت لإحضار... إحضار ماذا؟ عقدَت جبينها من دون الكثير من الاهتمام. ماذا؟ حاولت الاستمتاع بالشعور بأنَّه في وسط جبهتها الآن ثمَّ بالثقب في المكان الذي اختفتْ منه فكرةُ ما ذهبت لجلبِه.

انحنَت نحو الباب وسألت بصوتٍ عالٍ وعيناها مغمَّضتان: «ماذا كنت تريد، يا أوتافيو؟».

قال: «القانون المدنيّ»، وقبل أن يعيد نظره إلى دفتر ملاحظاته، ألقى عليها نظرةً سريعةً مُتفاجِئة.

حملَت له الكتاب، شاردة، تحرُّكاتها غير مستعجلة. كانت يده تنتظر الكتاب من دون أن يرفع رأسه. تراجعَت لحظةً والكتاب مواجهًا له، بعيدةً عنه لمسافةٍ قصيرة. لكنَّ أوتافيو لم يلاحظ تأخُّرها، وبحركةٍ بسيطةٍ من كتفها وضعَت الكتاب بين أصابعه.

جلست على حافَّة كرسيٍّ قريب، وكأنَّها ستنهض في لحظة. شيئًا فشيئًا، ونظرًا لعدم حدوث أيِّ شيءٍ تَملمَلت في المقعد وارتخَت تاركةً جسدها مُرتميًا، بينما عيناها فارغتين لا تفكِّران بأيِّ شيء.

كان أوتافيو لا يزال في «القانون المدنيّ»، مُستغرقًا في سطرٍ ما، ثمَّ عضَّ ظفره بفارغ الصبر وسرعان ما عاد عدَّة صفحاتٍ إلى الوراء. توقَّف مرَّةً أخرى، مُتشتِّتًا، لسانه يمرُّ على حوافِّ أسنانه، يدٌ واحدةٌ تشدُّ شعر حاجبه برفق. كلمةٌ ما شلَّت حركته، ويدُه في الهواء، وفمه مفتوحٌ مثل سمكةٍ ميِّتة. فجأةً دفع الكتاب بعيدًا. وبعينيْن لامعتيْن وجشعتيْن، خربش شيئًا بعجالةٍ في دفتر ملاحظاته، وتوقَّف لبرهة، تنفَّس بضجةٍ في لفتةٍ أذهلتها، بدأ يضرب على أسنانه بمفاصل أصابعه.

يا له من حيوان، فكَّرت. توقَّف عمَّا كان يكتبه ونظر إليها مذعورًا، وكأنَّها ألقت بشيءٍ ما عليه. استمرَّت في التَّحديق فيه بضعفٍ فتململ في كرسيه، لا يفكِّر إلَّا بأنَّه ليس وحده. ابتسم، خجولًا ومنزعجًا، مدَّ يده على الطاولة إليها. انحنت إلى الأمام وعرضت عليه بدورها أطراف أصابعها. ضغط عليها أوتافيو بسرعة، مُبتسمًا وقبل أن تسحب ذراعها للخلف، عاد بشراسةٍ إلى دَفتر ملاحظاته، يكاد يُغرِق وجهَه فيه ويده تعمل.

كان أوتافيو هو نفسه الآن، فكَّرت جوانا. وفجأةً، وربَّما بدافع الحسد، من دون أدنى تفكير، بغضته بقوَّةٍ غاشمةٍ لدرجة أنَّ يديْها ثبتتا على ذراعي الكرسيِّ تصرُّ على أسنانها. خفقت لبضع لحظاتٍ استعادت فيها حياتها. خوفًا من أن يَشعُر زوجها بنظرتها الحادَّة، اضطرَّت إلى إخفائها وبالتالي إلى التخفيف من شدَّة شعورها.

الذنب ذُنبه، فكَّرت ببرود، متوقِّعةً موجةً جديدةً من الغضب. إنَّه ذنبه، ذنبه. فإنَّ حضوره، وأكثر من حضوره: معرفة أنَّه موجود، سلَب حرِّيَّتها. لم تكن قادرةً على الشعور إلَّا نادرًا، في هروبٍ سريع. أجل:

لقد كان ذنبه. كيف لم تكتشف في وقتٍ سابق؟ تساءلت مُنتصِرة. لقد سرق كلَّ شيءٍ منها، كلَّ شيء. وبما أنَّ العبارة كانت لا تزال ضَعيفة، فكَّرت بشدَّة، أغلقت عينيْها، كلَّ شيء! شعرَت بتحسُّن، فكَّرت بمزيدٍ من الوضوح.

قبلَهُ كانت يداها مَمدودتيْن دائمًا وكم كان كثيرًا نصيبها من المفاجآت العنيفة! مثل شعاعٍ لطيفٍ مُفاجئٍ يَنهمر بأضواء صغيرة... صار كلُّ وقتها الآن مَبذولًا له، وشعرت أنَّها تنازلت عن الدقائق التي كانت تملكها، دقائق تقسَّمت الآن إلى مكعَّباتِ ثلجٍ صغيرةٍ كان عليها أن تَبتلعها بسرعة، قبل أن تذوب. وتجلِد نفسها لكي تَجري بسرعة: انظري، لأنَّها الحرِّيَّة هذه المرَّة! انظري، فكِّري بسرعة، انظري، جِدي نفسك بسرعة، انظري... انتهى الوقت! في وقتٍ لاحق. وها هي مُكعَّبات الثلج مرَّةً أخرى، أمامَها تحدِّق فيها مشدوهةً وتشاهد قطراتِ الماء تَسيل.

ها هو يصل. وأخيرًا سترتاح، تتنهَّدُ بشدَّة. ـ لكنَّها لم ترغب في الراحة! ـ كان دمُها يتدفَّق في داخلها ببطءٍ أكثر، وسرعته مُستأنسة، مثل الوحش الذي درَّب خطواته على اتِّساع القفص..

تذكَّرت عندما ذهبت لجلب ـ ماذا؟ آه، «القانون المدنيّ» ـ من على رفِّ الكتب عند الدرج؛ كانت مثل ذكرى غير مرغوبة، حرَّةٍ للغاية، مُتخيَّلةٍ حتَّى... كم كانت جَديدةً بعد ذلك. مياهٌ صافيةٌ تجري من الداخل والخارج. لقد افتقدَت الإحساس، وهي في حاجةٍ إلى الإحساس مرَّةً أخرى. نظرت بقلقٍ من جانبٍ إلى آخر، تبحث عن شيءٍ ما. لكنَّ كلَّ شيءٍ كان كما كان. قديمًا. سأتركه، كان أوَّل تفكيرٍ لها، غير مَسبوق. فتحت عينيْها، تراقب نفسها. كانت تعلم أنَّ فكرةً مثل تلك

قد تكون لها عواقب. على الأقلّ في الماضي، عندما لم تكن قراراتُها تتطلَّب حقائق كبيرةً لكي تُولَد، بل لمجرَّد فكرةٍ صغيرةٍ أو رؤيةٍ غير مُهمَّة. سأتركه، كرَّرت، وهذه المرَّة أعطَت الفكرة خيوطًا صغيرةً تتدلَّى منها. ومن هنا فصاعدًا ستسكن الفكرة فيها وستزداد الخيوط ثخنًا حتَّى تُشكِّل جُذورًا.

كم مرَّة ستقترِحُها على نفسها، قبل أن تَتركه بالفعل؟ لقد سئمَت حتَّى قبل المعارك الصغيرة التي لم تكن قد خاضتها بعد، تمرَّدت ثمَّ استسلمت، حتَّى النهاية. أتت بحركةٍ داخليَّةٍ خاطفةٍ مُتعجِّلة، انعكست فقط في رفع يدها على نحوٍ غير مَحسوس. نظر إليها أوتافيو لبرهةٍ واستمرَّ في الكتابة كمُسرنَم. كم كان حسَّاسًا! فكَّرت. تابعت: لماذا تُؤجِّلها؟ نعم، لمَ التأجيل؟ تساءلت. وكان سؤالها قويًّا، مُطالبًا بردٍّ جدِّيّ. اعتدلَت في كرسِّيها، واعتمدت مَوقفًا رسميًّا، كما لو كانت تسمعُ ما كان عليها أن تقوله.

تنهَّد أوتافيو بصوتٍ عال، أغلق الكتاب ودفتر الملاحظات مُحدِثًا ضجَّة، وألقى بهما بعيدًا، بصورةٍ مبالغٍ فيها، ساقاه الطويلتان مُمتدَّتيْن بعيدًا عن الكرسيّ. نظرت إليه مَذعورة، مُهانة. «حسنًا...»، باشرت بسخريَّة. لكنَّها لم تعرف كيف تستمرُّ فانتظرت وهي تحدِّق فيه.

قال، بشيءٍ من الهزل لا يخلو من القسوة:

«حسنًا. تفضَّلي، يا سيِّدتي، بالاقتراب وضعي رأسك على هذا الصدر الشجاع، لأنَّني في حاجةٍ إلى ذلك».

ضحكت، فقط لإرضائه. لكن في منتصف الضحك، وجدت ما قاله مُضحِكًا فعلًا بعض الشيء. لازمَت الجلوس، مُحاولةً الاستمرار:

«فبعد ذلك...»، وعبَّرت بشفتيْها عن الاستياء والنصر، كمن يتلقَّى البرهان المتوقَّع. «فبعد ذلك...»، هل كان هذا كلُّ شيء؟ وأعربت عن أملها في أن يلاحظ أوتافيو موقفها، ويخمِّنَ قرارها بعدم التزحزح عن الكرسيّ. ولكن، كما كان الحال دائمًا، لم يُخمِّن شيئًا وسيتشتَّت فكره بالتَّحديد عندما كان يتوجَّب عليه الانتباه والتَّركيز. ففي تلك اللحظة بالضبط، تذكَّر ترتيب وضعيَّة الكتاب ودفتر الملاحظات اللذيْن ألقاهما على الطاولة. لم ينظر حتَّى إلى جوانا، هل كان مُتأكِّدًا من أنَّها ستأتي؟ رسمت على شفتيْها ابتسامةً شرِّيرة، وفكَّرت كم كان مُخطئًا وكم كانت مُتعدِّدةً الأفكار التي كانت تراودها من دون أن يتخيَّلها. أجل، لمَ التأجيل؟

نظر إلى الأعلى، مُندهشًا قليلًا من التأخُّر. وبما أنَّها لم تتزحزح من كرسيِّها، أخذا يُحدِّقان في بعضهما بعضًا من بعيد. اِحتار.

«فإذاً؟»، قال بفتور. «إنَّ هذا الصدر الشجاع...».

قاطعته جوانا بإيماءة، لأنَّها لم تستطع تحمُّل الشفقة التي غزتها فجأةً ومدى سَخافة العبارة، بينما كانت هي نفسها صافية الذهن ومصمِّمةً على الكلام. لم يأبَه بحركتها وكان عليها أن تبتلع لعابها بعنايةٍ ومعه تلك الرَّغبة الغبيَّة في البكاء التي بدأت تولدُ طريَّةً في صدرها.

في تلك اللَّحظة، شفقت على نفسها أيضًا فقد نظرتْ إليهما كطفليْن مِسكينيْن. كلاهما سيموت، الرجل نفسه الذي كان يضرب أسنانه بأصابعه بطريقةٍ حَيويَّة. وهي نفسها، مع أعلى الدرج وكلِّ قدرتها على الشعور. كانت الأشياء الرئيسيَّة تداهمها، في أيِّ وقتٍ حتَّى في الفراغات، وتملؤها بالمعاني. كم من مرَّةٍ أعطت النادل أكثر من اللَّازم لمجرَّد أنَّها تذكَّرت أنَّه سيموتُ ولم يكن يعلم بذلك.

نظرت إليه بغموض، وبجدِّيَّةٍ وحنو. وهي تحاول الآن أن تتأثَّر جرَّاء التفكير في الشخصيْن الذيْن سيموتان في المستقبل.

مالت برأسها على صدره وكان هناك قلبٌ ينبض. فكَّرت: لكن مع ذلك، وعلى الرَّغم من الموت، سأتركه يومًا ما. كانت على درايةٍ تامَّةٍ بالفكرة التي ستخطرُ لها، وستمدُّها بالقوَّة، في حال تردَّدت قبل أن تتركه: (سأحصل على كلِّ شيءٍ بمقدوري الحصول عليه. أنا لا أكرهه، لا أزدريه. لماذا ألحقه، حتَّى لو كنت أحبُّه؟ أنا لا أحبُّ نفسي كثيرًا إلى درجة أنَّني أحبُّ الأشياء التي أحبُّها. أحبُّ ما أرغب به أكثر من حبِّي لنفسي). آه، لقد كانت تعلمُ أيضًا أنَّ الحقيقة تكمُن في عكس ما كانت تعتقده. أرخَت رأسها، وحشرت جبهتها في قميصِ أوتافيو الأبيض. ببطء، وبخفَّة، أخذت فكرة الموت تتلاشى ولم تَعُد تجدُ أيَّ شيءٍ تضحك عليه. كان قلبها ينسكب بهدوء. عرفَت بأذنها من أنَّ قلب أوتافيو، الغافل عن كلِّ ما يحدث، مُستمرٌّ بخفقاته المعتادة، في طريقه القاتل. البحر.

«تأجيل، مجرَّد تأجيل»، فكَّرت جوانا قبل أن تتوقَّف عن التفكير. لأنَّ آخر مُكعَّبات الثلج قد ذابت وصارت هي وللأسف امرأةً سَعيدة.

المأوى في المعلِّم

تذكُر جوانا جيِّدًا أنَّها قبل زفافها بأيَّامٍ ذهبت لزيارة معلِّمها.

شعرَت فجأةً بحاجةٍ ماسَّةٍ لرؤيته، لتتأكَّد من صرامته وبرودته قبل أن تُغادر. شعرَت نوعًا ما بأنَّها كانت تخونُ كلَّ حياتها الماضيَّة بالزواج. أرادت أن ترى المعلِّم مرَّةً أخرى، وتشعر بدعمهِ لها. وعندما خطرت لها فكرة زيارته، شعرَت بالارتياح.

من المؤكَّد أنَّه سيرشدها بالكلمة الصحيحة. أيُّ كلمة؟ «لا شيء»، أجابت نفسها بغموض، راودها فجأةً إحساسٌ بالإيمان وبشيءٍ من الأمل بالحفاظ على نفسها لكي تستمع إليه وتكون جديدةً تمامًا، من دون أدنى فكرةٍ على أيِّ شيءٍ ستحصل. لقد حدث لها ذلك مرَّةً واحدة: في صغرها كانت تستعدُّ للذهاب إلى السيرك لأوَّل مرَّةٍ وقد استمتعت بالاستعداد لذلك، وحينما اقتربت من الميدان الواسع حيث كانت الخيمة تلمع باللَّون الأبيض، مستديرةً وهائلةً مثل إحدى تلك القباب التي تُخفي أفضلَ طبقٍ على الطاولة حتَّى اللحظة المعيَّنة، عندما

بدأت تقتربُ منها وهي مُمسكةٌ بيد الخادمة، شعرت بالخوف والقلق، وبفرحٍ هائلٍ في قلبها، ورغبت بالعودة، بالفرار. عندما قالت الخادمة: «والدكِ زوَّدنا بالنقود للفشار»، نظرَت جوانا بِحيرةٍ إلى الأشياء التي بدتَ لها في تلك الظهيرة الغاصَّة بالشمس، مَجنونة.

كانت تعلمُ أنَّ المعلِّم قد مرضَ، وأنَّ زوجته تركته. ولكن على الرَّغم من تَقدُّمه في السنّ، وجدته أكثر بدانة، وفي عينيْه بريقٌ. في البداية خشيت من أنَّ ذلك المشهد الأخير الذي جمعهما، عندما هربَت إلى سنِّ البلوغ مَذعورة، قد يجعل الزيارة صعبةً ويحرجها، في تلك الغرفة الغريبة المخادِعة ذاتها حيث غَلب الغبارُ الآن على اللمعان.

استقبلها المعلِّم هادئًا شاردَ الذهن. بدا، بسبب الهالات السوداء تحت عينيْه، وكأنَّه صورةٌ قَديمة. يوجِّه لها الأسئلة وكلَّما همَّت في الإجابة يتوقَّف عن الاستماع، كما لو أنَّه أخيرًا أُعفي من الالتزام. قاطعَ نفسه عدَّة مرَّاتٍ مُلتفِتًا نحو الساعة والطاولة الصغيرة حيثُ كانت الأدوية. نظرَت حولها وكانت العتمة قد بدأت تزحفُ رطبةً لاهِثة. وكان المعلِّم مثل قطٍّ كبيرٍ مَخصيٍّ يُهيمن على قبو.

ـ يمكنكِ فتحُ النوافذ الآن، قال، فكما تعلمين، قليلٌ من العتمة ثمَّ كثيرٌ من الهواء. الجسم كلُّه يَستفيد من ذلك، يتلقَّى الحياة. فهو مثل طفلٍ مُهمَل. عندما يستلم كلَّ شيء، يتفاعل فجأة، وينمو مرَّةً أخرى، أكثر من الآخرين، في بعض الأحيان.

فتحَت جوانا النوافذ والأبواب ودخل الهواء البارد في هبوبٍ مُنتصِر. ما زال ضوء الشمس يَتسرَّب من الباب. خفَّف المعلِّم طوقَ بيجامته، وعرض نفسه للريح.

ـ هكذا، أعلَن.

تأمَّلته جوانا، وأدركَت أنَّه كان مُجرَّد رجلٍ عجوزٍ سمينٍ في الشمس، شعرُه الخفيف غير قادرٍ على مُقاومة النسيم، وجسمه مَلقيٌّ على الكرسيّ. والابتسامة، يا إلهي، الابتسامة!

عندما دقَّت الساعة الثالثة، تحرَّك فجأة، توقَّف في منتصف الجملة، وبإيماءاتٍ مَحسوبة، كان وجهه مُتعطِّشًا وجدِّيًّا، يحسب عشرين قطرةً من قارورةٍ في كوبٍ من الماء. رفعها إلى مُستوى العين، وراقبَها، شفتاه مَشدودتين ومستغرقتين كلِّيًّا، شرب السائل الداكن من دون تردُّد، ثمَّ حدَّق في الكوب بوجهٍ مريرٍ وشبه ابتسامةٍ لم تَستطع تفسيرها. وضعه على الطاولة، وصفَّق لاستدعاء الخادم، شابٌّ نحيفٌ شارد الذهن. انتظر عودته بصمت، نظراته مُتيقِّظةٌ كما لو كان يُحاول أن يرهف السَّمع من بعيد. فقط عندما استلم الكوب المغسول مرَّةً أخرى، وفحصه عن كثبٍ وقلبه رأسًا على عقبٍ على صحن، تنهَّد الصُّعداء:

ـ حسنًا، عمَّا كنَّا نتحدَّث ؟

ظلَّت غير مُباليةٍ بما تتفوَّه. راقبته، لا شيء في ملامح الرجل يشير إلى هجر زوجته له. لوهلةٍ مرَّت ببالها تلك الشخصيَّة الصامتة دائمًا تقريبًا، بوجهها الساكن السياديّ، الذي كانت تخشاه وتكرهه. وعلى الرَّغم من النفور الذي لا تزال الزوجة تُسبِّبه لها، أدركت جوانا بدهشةٍ أنَّها كانت تشعر ليس فقط في ذلك الوقت، بل ربَّما دائمًا، أنَّهما كانتا مُتَّحدتيْن وكأنَّهما شريكتان بشيءٍ سرِّيٍّ وشرِّير.

لا شيءَ في مظهره يعلن عن رحيل زوجته. في الواقع، بدا وكأنَّه قد اكتسب أخيرًا سكينةً في سُلوكه ونظراتِه، وراحةً لم تكن جوانا قد شعرَت

بها من قبل. تفحَّصتهُ مذهولةً تقريبًا مثل المياه المنتفخة بالمطر والتي باتَ من المستحيل قياسُ عمقها. لقد جاءت لتستمع إليه، لتلمس وعيه كنقطةٍ ثابتة!

ـ إنَّ عذابَ الرجل القويِّ أعظمُ من عذابِ الرجل المريض، قالت، في محاولةٍ منها لحثِّه على الكلام.

بالكاد رفع نظره. وظلَّت جملتها مُعلَّقةً في الهواء، حمقاء خجولة. (سأمضي قُدمًا، هذه طبيعتي، أي ألَّا أشعر أبدًا بالسخافة، إنَّني أخاطر دائمًا، أسير في كلِّ الطرقات. على العكس من أوتافيو، المُتحلِّي بجماليَّةٍ هشَّةٍ لدرجة أنَّ مجرَّد ضحكةٍ أكثر حدَّةً قابلةٌ لكسره وجعله بائسًا. لو سمعني الآن لاضطرب أو ابتسم). هل بدأ أوتافيو يُفكِّر فعلًا في داخلها؟ هل أصبحَت بالفعل من النوع الذي يَستمعُ إلى الرجل وينتظره؟ هل أصبحَت تُذعِن قليلًا... أرادت أن تُنقِذ نفسها، وأن تسمع المعلِّم، وأن تهزَّه. ألا يتذكَّر العجوز أمامها كلَّ ما قاله لها؟ «أن تُخطِئ ضدَّ نفسها...»ـ المرضى يتخيَّلون العالم والأصحَّاء يمتلكونه، تابعت جوانا، المرضى يظنُّون أنَّهم غير قادرين فقط لأنَّهم عاجزون ويشعر الأقوياء أنَّ قوَّتهم عديمة الفائدة.

نعم، نعم، أومأ برأسه خجولًا. أدركت أنَّ انزعاجها كان ناجمًا فقط عن رغبتها بألَّا يقاطعها أحد. ستمضي حتَّى النهاية بصوتها الميِّت مُكرِّرةً الفكرة التي مرَّت ببالها منذ فترةٍ طويلة:

ـ هذا هو سببُ حلاوة قصائد الشعراء الذين عانوا ورقَّتها. أمَّا شِعر أولئك الذين لم يُحرَموا من شيءٍ أبدًا، فيكون محمومًا، مُعذَّبًا ومُتمرِّدًا.

ـ أجل، أجاب، وهو يُعدِّل الياقة الفضفاضة لبيجامته.

نظرَت بمقتٍ وحيرةٍ إلى رقبته الغامقة المجعَّدة. كان يتفوَّه بـ«أجل»، من وقتٍ إلى آخر من دون أن يَكفَّ عن النظر إلى الساعة كمن يبحثُ عن شيءٍ يتَّكئ إليه. كيف تُخبره أنَّها ستتزوَّج؟

في الساعة الرابعة تكرَّرت الطقوس. هذه المرَّة تهرَّب الشابُّ من ركلة، لأنَّه كاد يُسقِط قارورة الدواء. جرَّاء هذه المحاولة المحبِطة طارت حفَّاية المعلِّم وظهرت عاريةً قدمُه ذات الأظافر الصَّفراء المعقوفة. التقط الشابُّ النعل وألقاه إلى جوانا، وهو يضحك، خائفًا من الاقتراب. بعد أن وضع الكوب جانبًا، غامرَت بكلماتها الأولى عن مرضه، ببطء، بخجل، لأنَّهما لم يدخلا سابقًا في حميميَّةِ تجاربهما الشخصيَّة، فقد كانا يتفاهمان خارج نفسيْهما.

لا داعي للمحاولة أكثر... فقد باشر هو بالموضوع، بشيءٍ من المراوغة ومن ثمَّ بشرح التفاصيل بسرورٍ ودون تسرُّع. كان الجوُّ غامضًا في البداية، فكان يَظنُّها غير قادرةٍ على دخول عالمه. ولكن بعد لحظاتٍ قليلة، نَسِيَ وجودها، وبلطفٍ وشيءٍ من الحماس، راح يتكلَّم بصراحة.

ـ قال الطبيب إنَّني لم أتحسَّن كثيرًا. لكنَّني سأتعافى، أعرفُ ذلك أكثر من جميع الأطباء، لأنَّني المريض...

أدركَت أخيرًا، مُندهِشة، أنَّه كان سعيدًا...

كانت الساعة تقترب من الخامسة. شعرت بأنَّه كان يريدُها أن تغادر. لكنَّها لن تتركه هكذا، وحاولت مرَّةً أخرى أن تدفع نفسها. حدَّقت بعيْنيه بقسوة. استقبل نظرتها بفتورٍ ولا مبالاةٍ وبعد ذلك أحاد وجهه غاضبًا مَزعوجًا.

الأسرة الصَّغيرة

اِعتاد أوتافيو قبل المباشرة بالكتابة ترتيبَ أوراقه على الطاولة، وتعديل ملابسه على جسمه. كان يحبُّ الإيماءات الصغيرة والعادات القديمة، مثل الملابس البالية، التي يتحرَّك فيها بجدِّيَّةٍ وأمان. منذ أيَّام الدِّراسة كان يستعدُّ للعمل بهذه الطريقة. يجلس إلى الطاولة، يرتِّبها، فيصحو وعيه، من إدراك ما حوله (يجب ألَّا أتوهَ في الأفكار الكبيرة، أنا شيءٌ أيضًا)، ثمَّ يسمح للقلم بالانسياب بشيءٍ من الحرِّيَّة فارًّا من صورةٍ أو فكرةٍ تلاحقه، تكون قد قرَّرت أن تُطاردَه وتقطع تيَّار فكره الرئيسيّ.

لهذا السَّبب كان العمل تحتَ أنظار الآخرين عذابًا بالنِّسبة إليه. يخشى أن يَتعرَّض للسخرية بسبب طقوسه الصغيرة، ومع ذلك لم يستطع الاستغناء عنها، يتبعها كشيءٍ من التشاؤم، وكأنَّه يحتاجها ليبقى على قيد الحياة. لذا أحاط نفسَه بالأذونات والمحرَّمات والصيغ والتنازلات، فصار كلُّ شيءٍ أسهل، مُتمثِّلًا بما تعلَّم. أمَّا ما فَتنه وأرعبه

في جوانا فكان بالضبط الحرِّيَّة التي عاشت فيها، تستهويها أشياءٌ معيَّنةٌ فجأةً أو تبتعد عن أخرى من دون تجربتها على الإطلاق. لكنَّ أوتافيو وجد نفسَه مُلزَمًا بذلك في مواجهة ما كان موجودًا. كما قالت جوانا، كان في حاجةٍ إلى أن يكون مُمتلَكًا من قبل شخصٍ ما... «إنَّك تتعامل مع المال بطريقةٍ حَميميَّة...»، كانت جوانا قد مزحت معه ذات مرَّةٍ بينما كان يدفع الفاتورة في مطعمٍ وانتبهت له مُشتَّتًا للغاية، ففاجأته، وهو أمام النادل، تنزلق الأوراق النقديَّة والعملات المعدنيَّة من بين يديْه إلى قدميْه. على الرَّغم من عدم تعقيبه بتعليقٍ ساخِر (حسنًا، في الحقيقة، جوانا لم تضحَك) كان لا يزال يملك في جعبته حُجَّةً جاهزة: ولكن ماذا يجب على المرء أن يفعل بالمال سوى ادِّخاره من أجل إنفاقه؟ قال منزعجًا ومحرَجًا فأدرك للتوِّ أنَّ جوانا لم تعتبر قوله جوابًا وافيًا.

في الواقع لم يكن يملك المال، ولا يمتلك «الأشياء التقليديَّة»، لا يحبُّ النظام، ولو لم تكن «مجلَّةُ القانون» موجودة، ولا المشروع الغامض لكتاب «القانون المدنيّ»، لم تكن ليديا منفصلةً عن جوانا، ولم تكن جوانا امرأةً ولا هو رجلًا، لو... يا الله، لو كان كلُّ شيء... ماذا سيفعل؟ لا، ليس «ماذا سيفعل»، ولكن «إلى من سيتوجَّه»، و«كيف سيتحرَّك»؟ كان من المستحيل الانزلاقُ بين الكتل، من دون رؤيتها، من دون الحاجة إليها...

مُخالفًا لقاعدةِ عملِه (وهذا نوعٌ من التنازل)، تناول قلمَ الرصاص والورقة قبل أن يكون مستعدًّا تمامًا. لكنَّه اعتذر من نفسه إذ لم يرغب بأن تفلت منه تلك الملاحظة، قد يستفيدُ منها في يومٍ من الأيَّام: «ينبغي على المرء أن يَتحلَّى بشيءٍ من العمى من أجل رؤية أشياءٍ مُعيَّنة. وقد

يكون ذلك ما يُميِّز الفنَّان عن غيره من الناس الذين قد يَتمتَّعون بالمعرفة أكثر منه ويُفكِّرون بأمان، وفقًا للحقيقة. لكنَّها تلك الأشياء بالضبط التي لا يُمكن رؤيتها في الضوء تصير في الظلام فسفوريَّة». فكَّر قليلًا. ثمَّ، على الرَّغم من تنازله الذي استمرَّ أطول ممَّا ينبغي، كتب: «ليست الدرجة هي التي تفصل الذكاء عن العبقريَّة، ولكنَّها الجودة. العبقريَّة ليست مسألة قوَّةٍ فكريَّةٍ بقدر ما هي مسألة الشَّكل الذي تظهر فيه هذه القوَّة، على هذا النحو يمكن للمرء بسهولةٍ أن يتَّسم بالذكاء أكثر من العبقريَّة. لكنَّه هو العبقريّ». هذه العبارة «هو العبقريّ» طفوليَّة. ينبغي النظر في سبينوزا للتحقُّق من أنَّ اكتشافه كان قابلًا للتطبيق. هل هي مِلكه؟ مع كلِّ فكرةٍ كانت تخطر له، ولأنَّه يعتاد عليها في ثوان، يصيبه الخوف من أن يكون قد سرقها.

حسنًا، حان وقتُ النظام، قال لنفسه، حرِّر نفسك من الهواجس. واحد، اثنان، ثلاثة! أنا آسف جدًّا للمعاناة كما أعاني وسط الخيزران في شمال غرب هذه المدينة، بدأ. أنا أفعلُ ما أريد، وتابَع، ولا أحد يُجبرني على كتابة الكوميديا الإلهيَّة. لا طريقة أخرى ليكون المرء سوى ما هو عليه، أمَّا ما تبقى فهو تطريزٌ عديم الفائدة وغيرُ مريحٍ مثل الملائكة والزهور النافرة، التي تُطرِّزها ابنة عمِّي إيزابيل لتزيين وسائدي. خلال شرودي في التفكير كانت تأتي مثل سحابةٍ أرجوانيَّةٍ غبيَّة، بماذا كنت أفكِّر، أخبرني بماذا، أخبرني بماذا، ماذا، أربع مرَّاتٍ أخرى ماذا، ماذا، ماذا، ماذا. هكذا، هكذا، لا تَتجنَّبي: «ماذا؟ هل ما زلتِ على قيد الحياة؟ ألم تموتي بعد؟». أجل، أجل، كان هذا كلُّ شيء، لا تَتجنَّبيني، لا تتجنَّبي خطَّ يدي، كم هو خفيفٌ وفظيع، شبكة عنكبوت، لا تتجنَّبي عيوبي، يا عيوبي أنا أعشقك، ويا مزاياي الصغيرة جدًّا، مثل مزايا

الرجال الآخرين، عيوبي، جانبي السلبيُّ جميلٌ ومقعرٌ مثل الهاوية. ما أنا لست عليه سيترك فجوةً هائلةً في الأرض. أنا لا أسترُ أخطائي، بينما جوانا لا تخطئ، هنا الفرق. مهلًا، مهلًا، قُل شيئًا، أيُّها الشاب. النساء ينظرن إليَّ، النساء، النساء، فمي ـ تركتُ شاربي ينمو مرَّةً أخرى، وهنَّ فيه يَمُتْنَ من السعادة والحبِّ الكبير. مليءٌ بالخوخ والزبيب. أشتريهنَّ جميعًا من دون نقود؛ المال، أنا أدَّخِره، إذا انزلقت أحداهنَّ على قشرةٍ في الشارع، فلا يوجدُ شيءٌ يُمكن فعله سوى الشعور بالخجل. لا شيءَ يضيع، لا شيءَ يخلق. والرجل الذي يشعر بهذا، أي الذي لا يُدركه فحسب، بل يسجدُ له سيكون سعيدًا مثل من يُؤمِن حقًّا باللّٰه. في البداية يؤلم قليلًا، ولكن بعد ذلك تَعتاد عليه. من يكتب هذه الصفحة ولِدَ ذات يوم. الساعة الآن بعد السابعة صباحًا بقليل. هناك ضبابٌ في الخارج، وراء النافذة، النافذة المفتوحة، الرمز العظيم. كانت جوانا لتقول: «أشعر بأنَّني داخل العالم إلى درجة أنَّه يبدو لي بأنَّني لا أفكِّر، ولكنَّني أستخدم وسيلةً جديدةً للتنفُّس». الوداع. هذا هو العالم. وأنا أنا، إنَّها تمطرُ في العالم، أنا كذبة، أنا عامِلٌ فِكريّ، جوانا نائمةٌ في غرفة النوم، وهناك شخصٌ يستيقظ الآن، ستقول جوانا: «وشخصٌ آخر يموت، وشخصٌ آخر يستمع إلى الموسيقى، دخل شخصٌ ما إلى الحمَّام، هذا هو العالم». سوف أثير المشاعر في الجميع، وسوف أدعوهم لكي يكونوا لطفاء معي. أنا أعيش مع امرأةٍ عاريةٍ باردة، لا تتجنَّب، لا تتجنَّب، تنظر إليَّ في عينيَّ مُباشرة، لا تتجنَّبُهما، تسترقُ النَّظر إليَّ، لا لا هذا كذب، كذبٌ ولكنَّه صحيح. الآن هي مستلقيةٌ نائمة، وقد هزمها النعاس، هزمها، هزمها. إنَّها طائرٌ خفيفٌ في ثوب نومٍ أبيض. سأثير مشاعر الجميع، لا أسترُ أخطائي، لكن أتمنَّى أن تَسترني أخطائي كلُّها..

صوَّبَ جذعه، ومسَّد شعره، وصار أكثر جدِّيَّة. عليه الآن أن يباشر بالعمل. كما لو كان الجميع يراقبونه ويرضون عليه بحركةٍ من رؤوسهم، ويغمضون أعينهم موافقين: أجل، هذا صحيح، جيِّدٌ جدًّا. ثمَّة شخصٌ حقيقيٌّ يزعجه فيتوتَّر فجأة. لأنَّ «الجميع» كانوا يراقبونه. سعل قليلًا. أبعد المحبرة بعناية. باشرَ: «المأساة الحديثة هي محاولة الإنسان العبثيَّة للتكيُّف مع حالة الأشياء التي خلقها هو ذاته».

نأى بنفسه قليلًا، ونظر إلى دفتر ملاحظاته، قوَّم بيجامته. ولذا فإنَّ الخيال مُتجذِّرٌ في الإنسان ـ (جوانا، مرَّةً أخرى) ـ إلى درجة أنَّ العالم بأسره الذي بناه يجد مبرِّره في جمال ما خُلق وليس في فائدة ما خُلق. وليس في كونه نتيجةً لخطَّةٍ ذات غاياتٍ كافيةٍ لاحتياجاتها. هذا هو السَّبب في أنَّنا نرى تَعدُّد العلاجات المصمَّمة لتوحيد الإنسان مع الأفكار والمؤسَّسات القائمة ـ التعليم، على سبيل المثال، صعبٌ للغاية ـ ونراه يبقى دائمًا خارج العالم الذي بَناه. يرفع الإنسان المنازل لينظر إليها بدلًا من العيش فيها. لأنَّ كلَّ شيءٍ يسير في طريق الإلهام. الحتميَّة ليست حتميَّةَ الغايات، ولكنَّها حتميَّةٌ ضيِّقةٌ للأسباب. اللعب، والاختراع، واتِّباع النملة إلى عشِّ النمل، وخلط الماء مع الجير لرؤية النتيجة، هذا ما نفعله سواءٌ في الصغر أو في الكبر. من الخطأ الاعتقاد بأنَّنا وصلنا إلى درجةٍ عاليةٍ من البراغماتيَّة والماديَّة. في الواقع، ستكون البراغماتيَّة خطَّةً تهدف إلى غايةٍ حقيقيَّةٍ مُعيَّنة، هي الفهم والاستقرار والسعادة، وهو أكبر انتصارٍ للتكيُّف يمكن أن يُحقِّقه الإنسان. ومع ذلك، فإنَّ فعلَ الأشياء «من أجل» يُذهِلني، في مواجهة الواقع، كدرجةٍ من الكمال يستحيلُ توقُّعها من الإنسان. بَيْد أنَّ فعل أيِّ شيءٍ «لأن» يبدو،

أمام الواقع، كمالًا لا يُمكن فرضه على الإنسان، فبدء خلقه هو الـ«لماذا»، الفضول، الهوى، الخيال ـ هذه هي التي شكَّلت العالم الحديث. بعد الإلهام، خلطَ المكوِّنات، وخلقَ مجموعات. مأساته: أن يغذِّي نفسه بها. كان واثقًا من أنَّه يمكن أن يَتخيَّل حياةً، ويكونَ موجودًا في حياةٍ أخرى مُنفصلة. هذه الأخرى هي التي تستمرُّ فعلًا، لكن تنظيفها ممَّا هو مُتخيَّلٌ يعمل ببطء، ولا يجد الرجل وحده التَّفكير الأحمق في جهةٍ وسلامَ الحياة الحقيقيَّة في جهةٍ أخرى. «لا يُمكن للمرء أن يُفكِّر ويفلت من العقاب». فكَّرت جوانا من دون خوفٍ ولا عقاب. هل سينتهي بها الأمر بالجنون أم ماذا؟ لا يُمكنها أن تخمِّن. رُبَّما المعاناة فقط.

توقَّف، أعاد قراءة ما كتب. لا لمغادرة هذا العالم، فكَّرَ بهمَّة. عدم الاضطرار إلى مواجهة الباقي. التَّفكير فقط، التفكير والسَّعي وراء الكتابة. فليطلبوا منه كتابة مقالاتٍ عن سبينوزا، ولكن ألا يكون مُجبَرًا على ممارسة القانون، للنظر والتعامل مع هؤلاء الأشخاص البشريِّين بوقاحة، يَستعرضون فاضحين حياتهم بلا خجل.

أعادَ قراءة ملاحظاتِه السابقة. يتوقَّفُ العالِم النقيُّ عن الإيمان بما يحبُّه، لكنَّه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الإعجاب بما يؤمن به. الحاجة إلى الإعجاب: علامة الرجل لا تنسَ: «الحبُّ الفكريُّ للّٰه» هو المعرفة الحقيقيَّة التي تستبعد أيَّ تصوُّفٍ أو عبادة. ثمَّة أجوبةٌ عديدةٌ في تأكيدات سبينوزا. على سبيل المثال، ألا تؤكِّد فكرةُ أنَّه لا يمكن للتفكير أن يكون موجودًا من دون امتداد (شكل اللّٰه) والعكس صحيح، موتَ الروح؟ بالطبع: الفناء كروحٍ مُتميِّزةٍ ومنطقيَّة، الاستحالة الواضحة للشَّكل النقيِّ كما في ملائكة القدِّيس توماس الأكوينيّ. الموت

فيما يتعلَّق بالإنسان. الخلود من خلال التحوُّل في الطبيعة. داخل العالم لا مكانَ للإبداعات الأخرى. هناك فقط فرصةٌ لإعادة الاندماج والاستمراريَّة. كلُّ ما يمكن أن يوجد بالفعل قد وُجِد. لا شيء يُخلَق إلَّا وَحيًا. إذا كان الإنسانُ كلَّما تطوَّر أكثر، تكثَّفَت محاولاته في وضع مبادئ حياته وقوانينها، وكذلك تلخيصها وتقييمها، فكيف يمكن لله، بأيِّ مَعنى من المعاني، حتَّى الإله الواعي في الأديان، ألَّا يكون لديْه قوانين مُطلقةٌ نتيجةً لكماله؟ الإله المتميِّز بالإرادة الحرَّة هو أقلُّ من إلهٍ ذي قانونٍ واحِد. بالطريقة نفسها التي يكون بها المفهوم أكثر صدقًا كلَّما كان واحدًا فقط ولا يحتاج إلى استخدام الشَّكل مع كلِّ حالةٍ بذاتها. يُستدلُّ على كمال الله من خلال استحالة المعجزات أكثر من إمكانيَّة حدوثها، فأن يصنع إلهُ الأديانِ المؤنسنُ المعجزات يعني أن يكون غير عادل، لأنَّ آلاف الأشخاص يحتاجون لمعجزةٍ مُتساويةٍ وفي الوقت ذاته، أو الاعتراف بالخطأ من خلال تصحيحه، وهذا ألطف أو أكثر «إثباتًا للأخلاق» من الخطيئة. ليس الفهم ولا الإرادة من طبيعة الله، يقول سبينوزا. هذا يسرُّني ويجعلني أكثر حرِّيَّة. لأنَّ فكرة وجود إلهٍ واعٍ تجعلُ منَّا أناسًا غير راضيين إلى حدٍّ فظيع.

في أعلى الدراسة، سأضع ترجمةً حرفيَّةً لما قاله سبينوزا: «تتميَّزُ الأجساد عن بعضها بعضًا فيما يتعلَّق بالحركة والسكون والسرعة والبطء، وليس بسبب جوهرها». سوف يعرض تلك الجملة على جوانا. لماذا؟ هزَّ كتفيْه، من دون أن يطلب أيَّ تفسيرٍ آخر. كانت فضوليَّة، أرادت قراءة الكتاب.

مدَّ أوتافيو يده والتقطه. عثر بين طيَّاته على صفحةٍ من دفتر ملاحظات. نظر إليها واكتشف خطَّ يد جوانا المرتبِك. انحنى بِشَرَه. «يا

لجمال الكلمات: طبيعة اللّٰه المجرَّدة. إنَّه مثل الاستماع إلى باخ». لماذا تمنَّى لو أنَّها لم تكتب ذلك؟ كانت جوانا دائمًا تفاجئه. شعر بالخجل كما لو كانت تكذب عليه بصراحةٍ فيضطرُّ هو لخداعِها قائلًا إنَّه يصدِّقها...

كانت قراءة ما كتبَته مثل المثول أمام جوانا. استحضرها، وتجنَّب عينيْها، ورأى في لحظات شرودها، وجهها الأبيض غامضًا وخفيفًا. وفجأةً، مسَّه حزنٌ عظيم. ما الذي أفعله بالضبط؟ تساءل ولم يعرف حتَّى لماذا هاجم نفسه فجأة. لا، لا للكتابة اليوم. ولأنَّ هذا كان تنازلًا، أمرًا لا ينبغي التشكيك فيه. لقد دقَّق في نفسه: إذا أراد بصدقٍ أن يعمل فهل يمكنه العمل؟ أتى الجواب حازمًا: لا، وبما أنَّ القرار كان أقوى منه، فقد شعر بشيءٍ من الفرح. اليوم كان كأنَّ أحدهم يمنحه إجازة. ليس اللّٰه. ليس اللّٰه، ولكن شخصٌ ما، شخصٌ قويٌّ جدًّا.

سينهضُ ويعدِّل أوراقه، ويضعُ الكتاب بعيدًا، ويرتدي بعض الملابس الدافئة، ويذهب للقاء ليديا. راحة النظام. كيف ستستقبله ليديا؟ عند النافذة المفتوحة، مُتفرِّجًا على الأطفال يسيرون إلى المدرسة، أمسكَ بكتفيْها، في غضبٍ مفاجئ، بشيءٍ من الافتعال ربَّما في مواجهة السؤال ذاته: ما الذي أفعله بالضبط؟

ـ ألا تخافين؟، صرخ في وجهها.

لم تحرِّك ليديا ساكنًا.

ـ ألا تخافين مُستقبَلك، مستقبلَنا، ألا تخافيني؟ ألا تعلمين أنَّ... أنَّ... لأنَّكِ عشيقتي، لا مكان لكِ إلَّا بجانبي؟

هزَّت رأسها مندهشة، باكية:

ـ لكن لا ...

هزَّها، مُستحيًا على نحوٍ غامضٍ من إظهار الكثير من القوَّة، ففي حُضورِ جوانا، على سبيل المثال، كان يَحتفظ بالصمت.

ـ ألا تخشين من أن أهجرك؟ فإن فعلتُ ستكونين امرأةً من دون زوج، من دون أيِّ شيء... روحًا تعيسة... تركها خطيبها فتحوَّلت إلى عشيقة هذا الخطيب، بينما تزوَّج هو من امرأةٍ أخرى...

ـ لا أريدك أن تتركني...

ـ آه..

ـ لكنَّني لست خائفة...

نظر إليها مَدهوشًا. لقد خسِرت الكثير من وزنها، لاحظ. لكنَّها لا تزال تبدو بصحَّةٍ جيِّدة. مع أنَّها صارت أكثر عَصبيَّة، أكثر حساسيَّة، سريعة البكاء. فجأةً انفجر بالضحك:

ـ لا أعرف ممَّا جُبلتِ، أُقسم.

ضحكت ليديا أيضًا، مسرورةً لأنَّ كلَّ شيءٍ قد انتهى. لقد خاف من نظرتها المشعَّة، وسحبها إليه حتَّى لا يرى عينيْها. واستغرقا في عناقٍ للحظة، تملأ كلٌّ منهما رغبةٌ مُختلِفة.

والآن؟ كانت ليديا تستقبله كالعادة. كتب رسالةً إلى جوانا، يخبرها بأنَّه لن يتناول طعام الغداء في البيت. جوانا المسكينة... كان بإمكانه أن يقول لو رغب بذلك. لن تعرف أبدًا. شامخةٌ جدًّا في سُموِّها الغافل... لكنَّه سوف يعفيها، ضحك، قلبه ينبض. على أيِّ حال، غدًا سيكتب شيئًا نهائيًّا عن المقال.

تأمَّل نفسه في المرآة قبل مُغادرته للبيت، مُحدِّقًا في صورته انتبه لوجهه جيِّد التكوين، أنفٌ مستقيمٌ وشفتان مُستديرتان مُمتلئتان. (لكن في نهاية المطاف لستُ مذنِبًا، ولا حتَّى لأنَّني ولِدت). وفجأةً، لم يفهم كيف كان قادرًا على الثقة بالمسؤوليَّة، والشعور بهذا الوزن الثابت، طوال الوقت. كان حُرًّا... أحيانًا، تصير الأمور بسيطةً للغاية...

خرج، استغرق في اختيار كيسٍ من الحلوى. انتهى به الأمر بشراء كيسٍ كبيرٍ إلى حدٍّ ما، من حلوى المشمش. عندما يستدير عند الزاوية، سوف يمصُّ أوَّل حبَّةٍ ويداه في جيبيه. امتلأت عيناه بالعطف وهو يفكِّر في الأمر. لمَ لا؟ سأل نفسه وانزعجَ فجأة. من قال إنَّ الرجال العظماء لا يأكلون الحلوى؟ إلَّا أنَّه في السِيَر الذاتيَّة لا أحد يتذكَّر ذلك. ماذا لو علِمت جوانا بفكرته هذه؟ لا، في الواقع لم تُظهِر أبدًا أيَّ سخريَّةٍ من... تحرَّك بتوتُّر، وأسرع خطواته.

قبل أن يستدير عند الزاوية، أخذ كيس الحلوى وألقى مُحتوياته عند حافَّة الطريق. تأمَّل حَزينًا الحلوى تختلطُ بالوحل وتتدحرج في حفرةٍ سوداء مُتقاطعةٍ بشبكةٍ حديديَّة.

واصل طريقه ببطءٍ أكثر، مُنكمِشًا. كان الجوُّ باردًا بعض الشيء. لا شكَّ بأنَّ أحدًا راضٍ الآن، فكَّر عن بعد. مثل عِقاب، مثل اعتراف.

ـ حتَّى الرجال العظماء لا يُقَدَّرون ولا يُكرَّمون إلَّا بعد مماتهم. لماذا؟ لأنَّ المادحين يحتاجون إلى الشعور بطريقةٍ ما بأنَّهم مُتفوِّقون على الشخص الذي يَتلقَّى الرثاء، فإنَّهم في حاجةٍ إلى مَنحه ذلك. بعد أن... يولد تفوُّقٌ واضِح... المادحون يتمكَّنون من البقاء... ثَمَّ تنازلٌ في ذلك... مُغادرة.. خيبة أمل...، قال أوتافيو. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت ليديا تُراقِبه في إحدى لحظاته القبيحة؛ شفتان مَشدودتان، جبينٌ مُتجعِّد، تحديقٌ غَبيّ ـ كان أوتافيو يُفكِّر. وكانت تُحبُّه في تلك اللحظة. قُبحه لا يثيرها، ولا يثير الشفقة فيها. لقد أصبحت ببساطةٍ أكثر ارتباطًا به. وبسعادةٍ أكبر، سعادة تَقبُّل مشاعرها بأنَّها تربط ما هو حقيقيٌّ وبدائيٌّ في نفسها بشخصٍ ما، بغضِّ النظر عن الأفكار الواردة عن الجمال. تذكَّرت زميلاتها السابقات، أولئك الفتيات سريعات البديهة، يعرفن كلَّ شيء، لديهنَّ معلوماتٌ عن السينما والكتب والمواعدة والملابس، أولئك الشابَّات اللواتي لم تكن قادرةً أبدًا على الاقتراب منهنَّ، فهي الصامتة دومًا، وليس لديْها ما تقوله بالفعل. تذكَّرتهنَّ وتأكَّدت أنَّهنَّ كنَّ ليجدن أوتافيو قبيحًا في تلك اللحظة. رضيَت به كثيرًا إلى درجة أنَّها كانت ترغب في إثباتِ حبِّها من دون جهد.

نظرت إليه من دون أن تصغي إلى كلماته. راقَت لها معرفة أنَّ هناك بين الاثنيْن أسرارٌ تنسج حياةً رائعةً وخفيفةً فوق الحياة الأخرى، الحياة الحقيقيَّة. لن يُخمِّن أحدٌ أبدًا أنَّ أوتافيو قد قبَّل جفونها مرَّةً واحدة، وأنَّه شعر برموشها على شفتيْه وأنَّه ابتسم بسبب ذلك. حينها فهمت وبأعجوبةٍ كلَّ شيءٍ من دون أن يَتكلَّما. لن يعرف أحدٌ أنَّهما ذات مرَّةٍ شعرا برغبةٍ جامحةٍ أبقتهما صامتين، جادَّين، جامدين. تراكمت داخل كلٍّ واحدٍ منهما معلوماتٌ لم يصل إليها الآخرون. صحيح أنَّه تركها مرَّةً، ولكن هذا ليس مهمًّا. كانت تَعْلم أنَّهما يتشاركان «أسرارًا»، متواطئان لدودان. إذا غادر، إذا أحبَّ امرأةً أخرى، فلا يكون إلَّا ليُشاركها فيما بعد بالأمر، حتَّى لو لم يُخبرها بشيء. سيكون لليديا حصَّةٌ في حياته على أيِّ حال. أشياءٌ مُعيَّنةٌ لا تحدث من دون عواقب، فكَّرت وهي تُحدِّق به. (اهربْ ـ ولن

تكون حُرًّا أبدًا..). ذات يومٍ تعثَّرت، أمسكها ورتَّب شعرها، بلفتةٍ شاردةِ الذهن. شكرته ضاغطةً بلطفٍ على ذراعه. تبادلا النظر بابتسامةٍ وشعرا فجأةً بسعادةٍ فائقة... فأسرعا خطواتهما، بعيون مفتوحةٍ مُنبهرة.

قد لا يتذكَّر ذلك. كانت هي التي تَتذكَّر هذه الأشياء. في الواقع، كانت جودة هذه الحوادث عاليةً إلى درجة لا يُمكن استعادتها بالكلام. أو حتَّى بالتَّفكير بالكلمات. الطريقة الوحيدة كانت التوقُّف للحظةٍ والإحساس بها مرَّةً أخرى. فلا بأس إن نَسِيَ. فلا بدَّ من أن تبقى في روحه علامةٌ ما واضحةٌ ورديَّةٌ تدلُّ على أحاسيس بعد ظهر ذلك اليوم. أمَّا بالنِّسبة إليها، فكلُّ يومٍ جديدٍ يأتيها بمياهه بالمزيد من الذكريات التي تُغذِّي بها نفسها. وشيئًا فشيئًا، ينمو فيها اليقين بالسعادة، بتحقيق الهدف، تاركًا إيَّاها راضية، مشبَّعةً تقريبًا، قلقةً تقريبًا. عند لقائها بأوتافيو، صارت تنظر إليه من دون أيِّ عاطفةٍ كبيرة، مؤمنةً بأنَّه أدنى ممَّا أعطاها لها. أرادت أن تُخبره عن سعادتها. لكنَّها كانت خائفةً على نحوٍ غامضٍ من إيذائه، كما لو كانت لتُخبره أنَّها خانته مع رجلٍ آخر، أو كما لو أنَّها أرادت أن تتباهى بسعادتها (لِمن قسَّم نفسه بين منزليْن وامرأتيْن)، لتظهِر أنَّها مُتفوِّقةٌ على سعادته.

أجل، أخذتها أفكارها إلى البعيد وهي تُحدِّق فيه ـ هناك أشياءٌ غير قابلةٍ للتدمير ترافق الجسد حتَّى الموت كما لو كانت قد وُلِدت معه. واحدٌ منها هو ما ينشأ بين رجلٍ وامرأةٍ عاشا بعض اللحظات سويًّا.

وعندما سيولد طفلها ـ داعبَت بطنها الذي بدأ بالفعل في الانتفاخ ـ سيؤلِّف الثلاثة أسرةً صغيرة. فكَّرت بالكلمات: أسرةٌ صغيرة. كان هذا ما أرادته، كنهايةٍ جيِّدةٍ لقصَّتها كلِّها. لقد نشأت هي وأوتافيو معًا، ربَّتهما

ابنة عمّهما. عاشت قريبةً من أوتافيو. لم يمرَّ أحدٌ في حياتها سِواه. فيه اكتشفت الرجل، قبل أن تعرف عن الرجال والنساء. بارتباكٍ ومن دون تفكير، كان أوتافيو هو النوع كلَّه بالنِّسبة إليها. لقد عاشته بالكامل إلى درجة أنَّها لم تشعر أبدًا بالآخرين إلَّا كعوالم مُغلقةٍ وغريبةٍ وسطحيَّة. دائمًا، في جميع مراحلها، كانت بالقربِ منه. حتَّى في تلك الفترة التي أصبحت فيها ماكرة، تخفي كلَّ ما تستطيع، حتَّى ما لم تكن في حاجةٍ إلى إخفائه. حتَّى في المرحلة التالية، عندما صار الناس ينظرون إليها في الشارع، عندما قبَّلها زملاؤها في الفصل مُعجَبين بشعرها الجميل الكثيف. كان أوتافيو يتبعها بعينيْه... هذا اليقين، الذي لم يُمحَ، أنَّها كانت شخصًا ما. كان ذلك عندما أدركت أنَّها لم تكن فقيرة، وأنَّ لديْها ما تقدِّمه لأوتافيو، وأنَّ ثمَّة طريقةٌ لتكريس حياتها له، كلُّ ما كانت عليه... لقد انتظرته وعندما توصَّلت إليه، جاءت جوانا وهرب هو. ظلَّت تنتظر. عاد. سيولد الطفل. أجل، ولكن قبل ولادته سوف تُطالِب بحقوقها. شعرت أنَّ عبارة «المطالبة بحقوقها» قد بقيَت بداخلها إلى الأبد تنتظر. تنتظر أن تكون لها القوَّة. كانت تَتمنَّى أن ينمو الطفل بين والديْه. وفي أعماقها، كانت ترغبُ لنفسها بتلك «الأسرة الصغيرة».

ابتسمَت قليلًا، واستمعت إلى أوتافيو يتكلَّم عن شيءٍ تجهله تمامًا. منذ بدأ الجنين في التكوُّن في داخلها، فقدت بعضًا من الحركات اللَّاإراديَّة، واكتسبَت أخرى، وتجرَّأت على التقدُّم في بعض الأفكار. شعرت كما لو أنَّها عاشت كذبةً حتَّى ذلك الحين. كانت حركاتها أكثر تحرُّرًا من جسدها، كما لو صارت لوجودها مساحةٌ أكبر في العالم. يتوجَّب عليها الاعتناء بالطفل وبأوتافيو، أجل، ستفعل... عدَّلت جلستها على المقعد وانزلق تطريزها على

السجَّادة. أغمضت عينيْها قليلًا، فنما بطنها هكذا، وفيرًا، لامعًا. استسلمت لذلك الاسترخاء، صار الكسل يَجتاحُها بكثرة. لم تصَب بأدنى غثيان صباحيّ، ولا حتَّى في البداية. وكانت تعلم أنَّ الولادة ستكون بسيطةً، بسيطةً مثل كلِّ شيء. وضعت يدها على وركيْها اللذين لم يَبدأ بالتغيُّر بعد. بطريقةٍ ما، كانت تزدري النساء الأخريات إلى حدٍّ كبير.

فاجأها أوتافيوا مُرتعِبًا... بقسوةٍ شاردة الذهن... تفحَّصها، غير قادرٍ على فكِّ رموزها، أدرك فقط أنَّ شبه الابتسامة تلك لم تكن تخصُّه.. لأنَّها كانت ابتسامة، ابتسامةً رهيبة، شامتة، على الرَّغم من أنَّ وجهها ظلَّ جادًا، وعيناها مَفتوحتان، تُنظر إلى الأمام. أصابه الخوف، وكاد يصرخ:

ـ لم تُصغِ لكلمةٍ واحدةٍ قلتها!

عدَّلت ليديا جلستها على المقعد مرَّةً أخرى، مُستسلمةً مرَّةً أخرى:

ـ أنا...

ـ ولا حتَّى فهمتني، كرَّر التَّحديق في وجهها، تنفَّس بصعوبة. (هل سيتكرَّر هذا المشهد؟ لا، هناك طفلٌ في أحشائها الآن. لماذا سأنجب طفلًا؟ لماذا أنا؟ أنا بالضبط؟ إنَّه أمرٌ غريب...) و بعد لحظةٍ كان يسأل نفسه: ماذا أفعل بالضبط؟ لا، لا...

ـ لكنَّني أفعل أكثر من فهمك، قالت بسرعة، أنا أحبُّك...

تنهَّد بصورةٍ غير محسوسة، خائفًا من شرودها. والحقيقة أنَّها لن تعود كاملةً بعد الآن، كما كانت قبل الحَمل. وكان هو من وهبها هذه المملكة بنفسه، الأحمق... (أجل، ولكن عندما ستتخلَّص من الطفل...). بعد بضع دقائق، وكانت قد هدأت، سمح أوتافيو لنفسه بأن يغزوه الارتخاء والكسل اللذان يحافظان على علاقاته الجيِّدة بليديا.

اللِّقاء بأوتافيو

مكتبة
t.me/soramnqraa

اِنشطر اللَّيل المُظلم الكثيف، انقسَم إلى كُتلتيْن سوداويْن من النوم. أين كانت؟ بين القطعتيْن، تنظرُ إليهما (تلك التي كانت قد نامتها بالفعل والأخرى التي لم تنمْها بعد)، معزولةً في اللَّاوقت وفي اللَّامكان، في فجوةٍ فارغة. سوف يُفصَل هذا المقطعُ من سنوات حياتها.

اتَّصل السقف بالجدران من دون زوايا، بصمتٍ وتكاسل أمَّا هي فكانت داخل شرنقة. لاحظت جوانا ذلك من دون تفكير، من دون عاطفة، شيءٌ ينظر إلى شيءٍ آخر. ببطء، من حركة ساقها، ولدت اليقظة بعيدًا ممزوجةً بطعم النوم في فمها، ثمَّ انتشرت في جميع أنحاء جسدها. ضوء القمر يشحب الغرفة، السرير. موت، لحظة. لحظةٌ أخرى، لحظةٌ أخرى، وأخرى. فجأةً، مثل شعاعٍ صغير، أضاء شيءٌ بداخلها، من دون تحريك عضلة وجهٍ واحدة، قالت بسرعة: (انظري إلى جانبك). ظلَّت تحدِّق في السقف، على ما يبدو غير مهتمَّةٍ على الإطلاق، لكنَّ قلبها

ينبض خائفًا. انظري إلى جانبك. كانت تعلم أنَّها في نهاية المطاف ستنظر، وكانت تعلم بغموضٍ تَقريبًا ما كان بجانبها، لكنَّها تصرَّفت كما لو أنَّها لم تكن تَنوي النظر، كما لو كانت تتجاهلُ بقيَّة السرير. (انظري إلى جانبك). استسلمت، أمام الوجوه العديدة التي تُشاهِد المشهد على المسرح، أدارَت رأسها ببطءٍ على الوسادة وألقت نظرةً خاطفة. كان هناك رجل. فهمت أنَّها كانت تتوقَّع ذلك بالضبط.

عاري الصدر، مَمدود الذراعيْن، كالمصلوب. عدَّلت رأسها مرَّةً أخرى في الموقع السابق. (حسنًا، لقد نظرتُ) لكن بعد ذلك على الفور ارتفعت واتَّكأت على مرفقها وحدَّقت فيه، من دون فضولٍ ربَّما، لكن بإلحاح، في انتظار إجابة. أم أنَّها فعلت ذلك لأنَّ الوجوه غير العاطفيَّة كانت تتوقَّع هذه الإيماءة؟ كان هناك رجل. من كان؟ وُلِد السؤال خفيفًا، تائهًا، كورقةٍ مسكينةٍ في الأمواج المُظلمة. ولكن قبل أن تنساه جوانا تمامًا، رأته يزداد أهمِّيَّة، وبان لها طارئًا وعاجلًا، الصوت يُميل عليها: من كان؟

نفد صبرها، وتعبت من إصرار حشد الوجوه التي، بدلًا من اللعب في إخراج المشهد، أصبحت الآن مُتطلِّبةً ومتطلِّبة. من كان؟ رجل، ذكر، أجابت، لكنَّه رجُلها، ذلك الغريب. نظرَت في وجهه، وجهٌ متعبٌ لطفلٍ نائم. الشفتان مفتوحتان. الحدقتان، تحت جفنيْن سميكيْن مُغلَقيْن، تُطلَّان على الداخل، مَيِّتتيْن. لمسته برفقٍ على كتفه وقبل أن تتلقَّى أيَّ نوعٍ من الانطباع، تراجعت بسرعة، خائفة. توقَّفت قليلًا، وشعرت بصدى قلبها في صدرها. عدَّلت ثوب نومها، ممَّا أعطاها الوقت للتراجع لو كانت لا تزال ترغب في ذلك. لكنَّها استمرَّت. وضعت ذراعها

الشاحبة بالقرب من ذراع المخلوق العاري، وعلى الرَّغم من توقُّعها للفكرة التي تلت ذلك، إلَّا أنَّها ارتجفت متأثِّرةً بالاختلاف العنيف في اللَّون، حازمًا وجريئًا مثل الصراخ. كانت هُناك جثَّتان مُحدَّدتان على السرير. وهذه المرَّة لم تَستطِع الشكوى من أنَّها شقَّت طريقها بوعيٍ إلى المأساة لقد فرضَ الفكرُ نفسَه من دون أن يكون لها أيُّ خيار. ماذا لو استيقظ ووجدها تميل عليه؟ وإذا فُتِحت عيناه فجأة، فستجدان نفسهما وجهًا لوجهٍ مع عينيْها، فيتقاطع نورهما... انسحبت بسرعة، وانكمشت مرَّةً أخرى داخل نفسها، يَملؤها الخوف، من رهبتها غير المعترف بها من الليالي القديمة المُمطرة والأرق في الظلام. (كم مرَّةً ينبغي عليَّ أن أعيش الأشياء نفسها في مواقع مُختلفة؟). تخيَّلت تلكما العينيْن مثل لوحيْن نحاسيَّيْن، يلمعان من دون تعبير. أيُّ أصواتٍ يمكن أن تخرج من ذلك الحلق النائم؟ أصواتٌ مثل سهامٍ سَميكة، تنغرز في الأثاث، في الجدران، في جوانا نفسها بهدوء. وكلُّ الأشياء غير مُبالية، نظرةٌ تجتاح الفضاء بعيدًا. بلا هوادة. لا يَنتهي رنين الساعة إلَّا عندما تنتهي، لا مَناص. أو أن ترميها بحجر، وبعد صوت الزجاج المتشظِّي والقطع المتكسِّرة، يتدفَّق الصمت مثل الدم. لماذا لا تقتل الرجل؟ هراء، ليس إلَّا تفكيرًا مزيَّفًا! نظرت إليه. الخوف من أنَّ «كلَّ شيء»، مثل الضغط على زرّ ـ لمسةٌ واحدةٌ كافيةـ سيبدأ العمل بصخبٍ وميكانيكيَّة، ويملأ الغرفة بالحركات والأصوات، ويعيش. كانت خائفةً من خوفها الذي عزلها. من بعيد، من فوق المصباح المطفأ، رأت نفسها، ضائعةً وصغيرة، مغطَّاةً بالأقمار، بجانب الرجل الذي يمكن أن تنبض به الحياة في أيِّ لحظة.

فجأةً، وبخبثٍ، شعرت بخوفٍ حقيقيّ، على قيد الحياة مثل الكائنات الحيَّة. المجهول الذي كان موجودًا في ذلك الحيوان الذي كان لها، في ذلك الرجل الذي عرفت فقط كيف تحبُّه! الخوف في جسدها، الخوف في دمها! قد يخنقها ويقتلها... لم لا؟ تلك الجرأة التي تقدَّمت بها أفكارها، ووجَّهتها مثل ضوءٍ صغيرٍ مُتحرِّكٍ مُهتزٍّ في الظلام. إلى أين كانت ذاهبة؟ لكن لماذا لا يخنقها أوتافيو؟ أليسا وحدهما؟ ماذا لو مسَّه الجنون وهو نائم؟ ارتجفت. أحسَّت بحركةٍ لا إراديَّةٍ بساقيْها فسحبَت الشراشف، مستعدَّةً للدفاع عن نفسها، والركض... آه، إنْ صرخت فلن تشعر بالخوف، سيهرب خوفُها من الصراخ... استجاب أوتافيو لحركتها رافعًا حاجبيْه بدوره، زمَّ شفتيْه ثمَّ فتحهما مرَّةً أخرى وبقي ميِّتًا للعالم! نظرت إليه، نظرت إليه... انتظرت...

لا، لم يكن خطيرًا. مسحَت جبينها بكفِّها.

والصمت ما زال موجودًا، الصمتُ ذاته.

ربَّما، من يدري، لعلَّها اختبرت القليل من الحلم الممزوج بالواقع، فكَّرت. حاولت أن تتذكَّر البارحة. لا شيءَ مُهمّ، باستثناء رسالة أوتافيو بأنَّه لن يأتي إلى المنزل لتناول طعام الغداء، كما كان يحدث بانتظامٍ تقريبًا، ولبعض الوقت. أم أنَّ خوفها كان أكثر من مُجرَّد هذيان؟ كانت الغرفة الآن واضحةً وباردة. أرخَت جفنيْها فوق عينيْها. لحسن الحظِّ كانت ليالي الكوابيس نادرة.

كم كانت حمقاء. مدَّت يدها وحاولت لمسه. تركت كفَّها ملقاةً على صدره، في البداية بخفَّة، تَطفو تقريبًا، لكنَّها تهدأ ببطء. بعد اكتساب الثقة من لحظةٍ إلى أخرى، تخلَّت عنها تمامًا في ذلك الحقل

الواسع المُغطَّى بالنباتات الخفيفة. عيناها مفتوحتان، ولكنَّها لا ترى، ركَّزت كلَّ انتباهها على نفسها وعلى ما كانت تشعر به.

صَريرٌ في قطعةٍ من الأثاث، هَرولت الظلالُ وتمسَّكت بالخزانة.

ثمَّ طرأت لها فكرة. فكرةٌ ساخنةٌ دفعت قلبها لمرافقتها بضرباتٍ قويَّة. هكذا: اقتربت منه، وضعت رأسها بعنايةٍ على ذراعه بالقرب من صدره. مُستلقيةً بلا حراك تنتظر. شيئًا فشيئًا شعرت بحرارة الغريب تنتقل إليها من العنق. سمعت دقَّات القلب الإيقاعيَّة البعيدة والخطيرة. تفحَّصت نفسها بعناية. هذا الكائن الحيُّ كان لها. ذلك الغريب، ذلك العالم الآخر كان لها. رأته من بعيد، من فوق المصباح، جسده العاري ـ ضائعٌ وضعيف. ضعيف. كم كانت خطوطه المكشوفة هشَّةً وحسَّاسة، من دون حماية. هو، هو، الرجل. ومن مصدرٍ خفيٍّ جاء القلق يَتصاعد عبر جسدها، ويملأ جميع خلاياها، ويدفعها عاجزةً إلى أسفل السرير. يا إلهي، يا إلهي. ثمَّ، في مَخاضٍ مؤلم، تحت صعوبة التنفُّس، شعرت بزيت الاستسلام الطريِّ يَنسكبُ من خلالها، وأخيرًا، أخيرًا. كان لها.

أرادت أن تناديه، وتطلب أن يسندها، أن يواسيها. لكنَّها لم ترغب في إيقاظه. كانت تخشى أنَّه لا يعرف كيف يجعلها ترتقي نحو شعورٍ أعلى، لتحقيق ما كان لا يزال جَنينًا حلوًا. كانت تعلم أنَّها حتَّى في هذه اللحظة ستكون وحدها، وأنَّ الرجل سيستيقظ بعيدًا. ويمكنه، ككتلة، كلمةٍ شاردةٍ فاترة، أن يعترض الطريق المتوهِّج حيث كانت تخطو خطواتها المُتعثِّرة الأولى. ومع ذلك، فأن تتخيَّله غافلًا عمَّا كان يحدث بداخلها لم يُقلِّل من حنانها، بل زاده، وجعله أكبر من جسدها وروحها كما لو كانت تُعوِّض به ابتعاد الرجل.

ابتسمَت جوانا، لكنَّها لم تستطع تفادي المعاناة التي بدأت تخفق في جسدها، مثل العطش المرير. كانت أكثر من المعاناة، الرَّغبة في الحبِّ تنمو وتُهيمِن عليها. وفي خضمِّ زوبعةٍ غامضةٍ وخفيفة، مثل نوبةٍ سريعةٍ من الدوار، جاءها الوعي بالعالم، بحياتها الخاصَّة، بالماضي قبل ولادتها، بالمستقبل خارج جسدها. أجل، ضائعةً مثل نقطة، نقطةٍ من دون أبعاد، ولمرَّةٍ واحدةٍ وتفكيرٍ واحد: لقد ولدتْ، ستموت، الأرض... كان الشعور سريعًا وعميقًا: انغماسٌ أعمى في لون. أحمر، هادئٌ وواسعٌ مثل الحقل. الوعي العنيف والفوريُّ نفسه الذي أبحر بها في بعض الأحيان في لحظات حبٍّ عَظيمة، مثل غريقٍ يَرى ما فوق الماء للمرَّة الأخيرة.

ـ أنا ... ـ بدأت بصوتٍ مُنخفِض.

لكن كلُّ ما يمكن أن تقوله لم يكن كافيًا. كانت تعيش وتعيش. راقبته. كيف نام، كيف كان مَوجودًا. لم تشعر به هكذا قطّ. في الأيَّام الأولى من الزواج، حينما كانت تتَّحد به، كان السحر يَمسُّها من جسدها المكتشف. كان الانتعاش لها، ولم تفِض على الرجل وظلَّت معزولة. الآن فهمت فجأةً أنَّ الحبَّ يمكن أن يجعلك ترغب في اللحظة الآتية من دافعٍ هو الحياة... ـ شعرت أنَّ العالم يخفق بهدوءٍ في صدرها، وجسدها يؤلمها كما لو كانت تحمل أنوثة جميع النساء فيه.

صَمتت مرَّةً أخرى وهي تنظر داخل نفسها. تذكَّرت: أنا الموجة الخفيفة التي ليس لها مجالٌ آخر سوى البحر، أغوص، أنزلق، أطير، أضحك، أعطي، أنام، ولكن للأسف، دائمًا في داخلي، دائمًا في داخلي. متى كان ذلك؟ هل قرأته عندما كانت طفلة؟ فكَّرت في ذلك؟ فجأةً، تذكَّرت: لقد فكَّرت في الأمر الآن، ربَّما قبل أن تضع ذراعها بجانب

ذراع أوتافيو، ربَّما في تلك اللحظة التي أرادت أن تصرخ فيها... أكثر فأكثر كان كلُّ شيءٍ ماضيًا... والماضي غامضٌ مثل المستقبل...

نعم... ورأت أيضًا، بسرعة، مثل سيَّارةٍ صامتةٍ مُسرِعة، الرجل الذي كانت تُصادفه أحيانًا في الشارع... الرجل الذي كان يُحدِّق بها في صمت، نحيفٌ وحادٌّ كسكين. كانت قد شعرت به بالفعل في تلك الليلة بخفَّة، ولمس وعيها مثل رأس الدبُّوس... مثل إنذار... لكن في أيِّ لحظة؟ في المنام؟ في اليقظة؟ تدفُّقٌ جديدٌ من الألم والحياة، غمرها بالقلق من السجن.

ـ أنا ...، بدأت بالقول لأوتافيو مرَّةً أخرى.

ازدادَ الظلام، لم تَعُد ترى منه إلَّا ظلًّا، أخذ يتلاشى، ينزلق من بين يديْها، ميِّتًا كان في عمق النوم. وهي، وحيدةٌ مثل دقَّات ساعةٍ في منزلٍ فارغ. جلست في السرير تنتظر، عيناها مفتوحتان؛ اقترب بردُ الفجر وعَبَر قميصها الرَّقيق. وحيدةٌ في العالم، يسحقها فائض الحياة، وتشعر بالموسيقى تهتزُّ عاليًا جدًّا أكثر ممَّا يقوى الجسم على تحمُّله.

لكنَّ التحرُّر جاء وارتجفت جوانا باندفاعها... فقد هبط الإلهام، لطيفًا وحلوًا مثل الفجر في الغابة... ثمَّ اختلق ما يجب أن تقوله. أغمضت عينيْها، واستسلمت، وتحدَّثت بهدوءٍ بكلماتٍ وُلِدت في ذلك الموقف، الذي لم يسمعه أحدٌ من قبل، ولا يزال طريًّا ـ براعم هشَّةٌ وجديدة. كانت أقلَّ من الكلمات، مُجرَّد مقاطع فَضفاضة، لا مَعنى لها، دافئةٍ تتدفَّق وتندمج، تُخصَّب فتولد من جديدٍ في كائنٍ واحدٍ فقط، لتعود وتتفكَّك بعد ذلك مباشرة، تتنفَّس، تتنفَّس...

عَيناها رطبتين بالسعادة الناعمة والامتنان. لقد تحدَّثت... الكلمات القادمة من قبل اللغة، من المصدر، من المصدر نفسه. اقتربَت

منه، وأعطتهُ روحها ومع ذلك شعرت بالاكتمال كما لو كانت قد نهلَت عالمًا. كانت مثل امرأة.

في الحديقة، راقبَت الأشجار المُظلمة، الصمت، كانت تعلم... كانت تعلم... غَفت.

ليديا

في صباح اليوم التالي كان مرَّةً أخرى، مثل أوَّل يوم ـ شعرت جوانا.

غادر أوتافيو مُبكِّرًا وكانت مُمتنةً لذلك كما لو أنَّه منحها عمدًا وقتًا للتَّفكير ومراقبة نفسها. لم ترغب في اتِّخاذ أيِّ قراراتٍ مُتسرِّعة، وشعرت أنَّ أيَّ حركةٍ منها يُمكن أن تصبح ثمينةً وخطيرة.

كانت لحظات، ساعاتٍ سريعةً فقط. لأنَّها تلَّقت رسالة ليديا تدعوها لزيارتها.

قراءتها جعلت جوانا تبتسم حتَّى قبل أن تبعث في قلبها تلك النبضات السريعة والثقيلة. وكذلك الشفرة الفولاذيَّة الباردة التي تضغط على الجزء الداخليِّ الدافئ من جسدها. كما لو أنَّ عمَّتها الميِّتة قد قامت وكلَّمتها، تخيَّلت جوانا صدمتها، وأحسَّت بعينيْها تتَّسعان (أم كانتا عيناها اللتان لم تكن تسمح لهما بالمفاجآت؟).

«هل عاد أوتافيو إلى ليديا، على الرَّغم من جوانا؟»، كانت عمَّتها ستتساءل.

داعبَت جوانا شعرها ببطء، والشفرة الباردة تلامسُ قلبها الدافئ، ابتسمَت مرَّةً أخرى، آه، فقط للمماطلة لبعض الوقت. «لكن حقًّا، لماذا لا يبقى مع ليديا؟»، ردَّت على عمَّتها الميِّتة. وتلك الشفرة، ترافقها تلك الفكرة الواضحة، ضَغطت على رئتيْها ضاحكة، صَقيعيَّة. لماذا ترفض الأشياء التي حدثت؟ أن تحوز على أشياءٍ كثيرةٍ في الوقت نفسه، وأن تشعر بعدَّة طرق، وتتعرَّف على الحياة في مصادر مُختلفة... من يَستطيع منع شخصٍ ما من العيش بكثرة؟

في وقتٍ لاحقٍ سقطت في حالةٍ غريبةٍ وخفيفةٍ من الإثارة. طافت في المنزل بلا هدف، حتَّى أنَّها ذرفت بعض الدموع، من دون معاناةٍ كبيرة، فقط من أجل البكاء ـ أقنعت نفسها ـ ببساطةٍ، مثل شخصٍ يُلوِّح بيده، مثل شخصٍ ينظر. هل أعاني؟ كانت تَسأل نفسها من وقتٍ إلى آخر أنَّ الشخص الذي يُفكِّر يملؤها كلِّيًّا بالمفاجأة والفضول والفخر ولم يَتبقَّ مكانٌ لشخصٍ ما ليعاني. لكنَّ تلك الإشادة لم تَسمح لها بالبقاء على المستوى نفسه لفترةٍ طويلةٍ جدًّا. سرعان ما تغيَّرت إلى نبرةِ سلوكٍ مُختلفة، عَزفت قليلًا على البيانو، تَناست رسالة ليديا. عندما كانت تمرُّ ببالها، بصورةٍ غامضة، كطائرٍ يأتي ويذهب، لم تستطع اتِّخاذ القرار، سواءٌ أكان ينبغي أن تكون حزينةً أو سعيدة، هادئةً أو مُضطرِبة. ظلَّت تتذكَّر اللَّيلة السابقة، زجاج النافذة المرتفعة يلمع بهدوءٍ في ضوء القمر، صدرَ أوتافيو العاري، جوانا تنامُ بعمق، لأوَّل مرَّةٍ تقريبًا في حياتها، تأمنُ نفسُها رجلًا كان نائمًا بجانبها. في الواقع، لم تبتعد عن

جوانا في اليوم السَّابق المليئة بالحنان، الخجولة، المتواضعة والمنبوذة، التي تاهت حتَّى عادَت وأصبحت أكثر قسوةً وتركيزًا وقربًا إلى نفسها، فكَّرت. (وأفضل حتَّى). إلَّا أنَّ الفولاذ البارد كان يَتجدَّد دائمًا، لم يكن يسخن أبدًا. أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، فعلى كلِّ فكرةٍ كانت تَحومُ أخرى، حائرة، ساحرة، مثل اليوم الذي تُوفِّي فيه والدها: حدثَت أشياءٌ من دون أن تَختلقها...

في فترة ما بعد الظهر تَمكَّنت أخيرًا من مُراقبة ليديا وأدركت أنَّها كانت بعيدةً عنها كما كانت بعيدةً عن المرأة ذات الصوت. تَبادلتا النظرات، ولكن لم تتمكَّنا من الشعور بالحقد ولا حتَّى بالاشمئزاز من بعضهما البعض. تكلَّمت ليديا، شاحبةً وكتومة، عن العديد من الموضوعات التي لا تهمُّ أيًّا منهما. طفا حملها الواضح في أنحاء الغرفة، ملأها، واخترق جوانا. حتَّى الأثاث الباهت، المزيَّن بالقليل من الكروشيه، بدا وكأنَّه يُحافظ على نفسه في السرِّ ذاته الذي كاد أن يَنكشف، في انتظار الطفل. كانت عينا ليديا المفتوحتين بلا ظلّ. يا لها من امرأةٍ جَميلة. شفتاها الممتلئتان والمسالمتان، من دون تَشنُّجات، كما لو كانت تنتمي إلى شخصٍ لا يَخشى المتعة، وحصل عليها من دون ندم. أيُّ شِعْرٍ ذلك الذي تستندُ حياتها عليه؟ ما الذي يمكن أن تبوح به تلك الضجَّة التي شعرت بوجودها داخل ليديا؟ تضاعفت المرأة ذات الصوت إلى عددٍ لا يُحصى من النساء... لكن أين كانت ألوهيَّتهنّ؟ حتَّى في أضعفهنَّ ثمَّ ظلُّ معرفةٍ لا تُكتسَب بالذكاء، ذكاءِ الأشياء العمياء. قوَّة الصخرة التي عندما تسقط تصطدم بأخرى فتنتهي في البحر حيث تقتل سمكة. في بعض

الأحيان، من الممكن رؤية قوَّةٍ شبيهةٍ في النساء، أمَّهاتٍ وزوجات، إناثُ رجالٍ خَجولات، مثل عمَّتها، مثل أرماندا. ومع ذلك، فإنَّ تلك القوَّة، الوحدة في الضعف... آه، ربَّما كانت تبالغ، ربَّما لم تكن ألوهيَّة المرأة مُحدَّدة، ولكنَّها كانت تكمن فقط في حقيقة وجودها. أجَل، أجَل، هناك تَكمن الحقيقة: كنَّ يُوجدنَ أكثر من الآخرين، كنَّ رمزًا للشيء في الشيء ذاته. واكتشفَت أنَّ المرأة كانت لُغزًا في حدِّ ذاتها. كان هناك في كلٍّ منهنَّ نوعٌ من المادَّة الخامّ، شيءٌ قد يُحدِّد نفسه يومًا ما، ولكنَّه لن يتحقَّق أبدًا، لأنَّ جوهره الحقيقيَّ كان «يصبح». ألم يكن من خلال هذا بالتَّحديد أنَّ الماضي اتَّحد مع المستقبل ومع جميع الأوقات؟

صمتَت ليديا وجوانا للحظةٍ طويلة. لم تشعرا أنَّهما كانتا معًا تمامًا، ولكن من دون الحاجة إلى الكلمات، كما لو أنَّهما التقتا في الواقع فقط لتبادل النظرات ثمَّ المغادرة. أصبحت غرابةُ الموقف أكثر وضوحًا عندما انتبهت الاثنتان أنَّهما لم تتشاجرا. في كلتاهما بانت أماراتُ نفاد الصبر، ولكن كان لا يزال هُناك واجبٌ لفعله. دفعته جوانا بعيدًا، ولكنَّها كانت قد شَبِعت، فقالت فجأة:

ـ حسنًا، أيقظتها نبرة صوتها على نحوٍ غير سارّ، أعتقدُ أنَّ المقابلة قد انتهَت.

فوجِئت ليديا. لكن كيف؟ إذا لم تنطقا بأيِّ شيء! تزعجها خصوصًا فكرة شيءٍ غَير مُكتمِل:

ـ لم نتحدَّث عن أيِّ شيءٍ بعد... وعلينا التحدُّث.

ابتسمَت جوانا. في تلك الابتسامة بدأت تتصرَّف، ولكن ليس بقوَّة التعب ولكن كيف بالضبط سأبهرها. ما هذا الهراء الذي أفكِّر فيه بعد كلِّ شيء؟ قالت:

ـ ألا تشعرين أنَّنا ابتعدنا عن السَّبب الذي جمعَنا؟ إذا تحدَّثنا عنه، الآن على الأقل، فسيكون من غير اهتمامٍ أو شغف... فدعينا نترك كلَّ شيءٍ ليومٍ آخر.

للحظةٍ بدَت لهما شخصيَّة الرجل بلا لمعانٍ وغير مناسبة. لكن ليديا كانت تعلمُ أنَّه بمجرَّد اختفاء تلك المرأة، سيختفي أيضًا الجمود والذهول الذي سبَّبتهما لها، ممَّا سلبَ رغبتها في التصرُّف. واعيةً مرَّةً أخرى، كانت تريد الطفل. العائلة الصغيرة. لقد بذلت جهدًا للخروج من هذا النعاس، لفتح عينيْها والعراك.

ـ سيكون من السخافة تفويت هذه المناسبة...

أجل، دعنا نستفيد منها إلى أقصى حدّ، دعنا نستفيد منها إلى أقصى حدّ. سببُ فتوري أنَّني أعددت الكثير للحفلة. ضحكَت جوانا مرَّةً أخرى بلا فرح.

ـ أعلم أنَّني لا أستطيع أن أتوقَّع أيَّ شيءٍ منك ـ تابعت ليديا الحامل فجأةً بقوَّة. سحابةٌ تكشف الشمس، كلُّ شيءٍ متألِّقٌ مرَّةً أخرى، مُنتفخًا بالحياة. أضاءت جوانا أيضًا، وشعرَت بالسحابة تكشفُ عن الشمس، وكلُّ شيءٍ يغلي بخفَّةٍ جنبًا إلى جنبٍ كالأطفال في دائرةٍ ناعمة.

ـ أنا أعرِفك جيِّدًا، تابعَت ليديا. سقطَت كلماتُها مملَّةً بهدوءٍ في البحيرة، وأودعَت نفسها في القاع، دون عواقب.

لكنَّها فجأةً دفعت نفسها وحملها، في محاولةٍ أخيرةٍ للاستيقاظ:

ـ أنا أعرفك، وأعلم مدى ترسُّخ شرِّك. الآن عادَت الغرفة إلى الحياة مرَّةً أخرى.

ـ آه، أنت تعلمين؟

نعم، لقد عادت إلى الحياة، اعتقدت جوانا، إلى اليقظة.(ماذا أقول؟ كيف أجرؤ على المجيء إلى هنا؟ أنا بعيدة، بعيدة. كان يكفي النظر إلى هذه المرأة للتحقُّق بأن لا يمكن لمرءٍ أن يُحبَّني). لمس الفولاذ قلبها فجأة. آه، الغيرة، كانت الغيرة، اليد الباردة تهرسها ببطء، تضغط عليها، تقلِّل من روحها. (معي يحدث ما يلي أو يُهدِّد بالحدوث: من لحظةٍ إلى أخرى، بحركةٍ معيَّنة، يمكنني أن أتحوَّل إلى خيط. أجل! إلى خيطٍ من الضوء، بحيث ينتهي الأمر بالشخص الذي بجانبي بمفرده، غيرَ قادرٍ على الإمساك بي وبخللي. بينما ليديا لديْها عدَّة مُخطَّطات. مع كلِّ إيماءةٍ يتكشَّفُ جانبٌ آخر من بُعدها. بجانبها لا أحد يَنزلق ويضيع، لأنَّهم يدعمون أنفسهم على ثدييها، بجدِّيَّةٍ وهدوءٍ وشحوب، بينما ثدييَّ عديمَي الجدوى، أو على بطنها الذي يتَّسع حتَّى لطفل. لا للمبالغة في أهمِّيَّتها، يمكن للأطفال أن يولدوا من بطون جميع النساء. كم هي جميلةٌ وأنثويَّة، مادَّةٌ خامٌّ هادئة، على الرَّغم من جميع النساء الأخريات. ماذا يوجد في الهواء؟ أنا وحدي. شفتا ليديا الكبيرتان، المرسومتان بتمهُّل، مَطليَّتان جيِّدًا بأحمر شفاهٍ شاحِب، في حين أنَّ أحمر الشفاه الخاصَّ بي داكن، دائمًا قرمزيّ، قرمزيّ، قرمزيّ، ووجهي أبيض وضعيف. قد لا يكون لتلكما العينيْن العسليَّتيْن، الهائلتيْن والهادئتيْن، ما تُقدِّمانه، لكنَّهما تتلقَّيان الكثير بحيث لا يستطيع أحدٌ مُقاومتهما،

ناهيك عن أوتافيو. أنا مخلوقٌ ذو ريش، ليديا مخلوقٌ فرويّ، وأوتافيو يضيع بيننا، أعزل. كيف يُمكنه الهروب من بَريقي ووعدي بالهروب، وكيف يمكنه الهروب من يقين هذه المرأة؟ كان بإمكاننا نحن الاثنتان أن نتَّحد ونحفظ الإنسانيَّة، أن نمرَّ على الأبواب في الصباح الباكر، ونرنَّ أجراسها ونسأل: أيُّهما تفضِّل: طفلي أو طفلها؟ ونسلِّمه طفلًا. أفهمُ لماذا لم يقطع أوتافيو علاقته بليديا: إنَّه مستعدٌّ دومًا لإلقاء نفسه عند أقدام أولئك الذين يَمشون إلى الأمام. لا يرى في الجبل إلَّا ثباته، لا يرى أبدًا امرأةً صدرها عارمٌ من دون التَّفكير بإلقاء رأسه عليه. كم أنا فقيرةٌ مقارنةً بها، وواثقة. إمَّا أن أضيء وأكون رائعة، رائعةً عابرة، أو أكون غامضة، ملفوفةً بالستائر. ليديا، مهما كانت، غير قابلةٍ للتغيير، دائمًا بالقاعدة المشرقة نفسها. يداي ويداها. يداي مخربشتان، وحيدتان، خطوطٌ جرى تصويرها للأمام والخلف، إهمالٌ وتسرُّعٌ في فرشاةٍ مغموسةٍ في طلاءٍ أبيض حزين، أنا دائمًا أرفعُ يدي إلى جبهتي، وأهدِّد دائمًا بتركها في الهواء، آه، كم أنا تافهة، الآن فقط أفهم. يدا ليديا مرسومتان، جميلتان، تُغطِّيهما بشرةٌ مرنة، ورديَّة، صفراء، مثل زهرةٍ رأيتها في مكانٍ ما، يدان تستريحان فوق الأشياء، مليئتان بالتوجيه والحكمة. أمَّا أنا، فكلُّ ما فيَّ يسبح، يطفو، ويعبر بالغصب كلَّ ما هو موجود. لستُ سوى رغبة، غضب، غموض، لا يُدرك باللمس كالطاقة. كالطاقة؟ ولكن أين قوَّتي؟ في عدم الدقَّة، في عدم الدقَّة، في عدم الدقَّة... وجلب الحياة إليها، وليس إلى الواقع، فقط الدافع الغامض إلى الأمام. أريد أن أبهِر ليديا، أن أحوِّل المحادثة إلى شيءٍ غريبٍ جدًّا، يفرّ، لكن لا، لكن نعم، لا، ولكن لمَ لا؟ تذكَّرتْ فجأةً أوتافيو، وهو يحرِّك كوب القهوة وينفخ فيه ليبرِّده، ملامحه جادَّةٌ ومهتمَّةٌ وساذجة. مفاجأة ليديا، نعم، سحبها... كما

كان الحال في ذلك الوقت في المدرسة الداخليَّة، عندما تضطرُّ فجأةً إلى اختبار قوَّتها، لتشعر بإعجاب زميلاتها في الفصل، اللواتي ما كانت تتبادل معهنَّ الكلام إلَّا قليلًا في العموم. لذلك كانت تؤدِّي دورها ببرود، وتختلق الأشياء، وتتألَّق كما لو كانت تنتقم. ومن الصمت الذي كانت تلوذ به، خرجت للقتال:

ـ انظرنَ إلى ذلك الرجل... يشرب القهوة بالحليب في الصباح، ببطءٍ شديد، ويغمس خبزته في كوبه، ويتركها تقطر، يقضمها، ثمَّ ينهض ثقيلًا، حزينًا ....

تنظرُ الزميلات فيرين رجلًا ما، ومع ذلك، على الرَّغم من مُفاجأتهنَّ في البدء وبعدم مبالاتهنَّ المقصودة، كان كلُّ شيءٍ دقيقًا بغرابة! يتمكنَّ من رؤية الرجل ينهض عن الطاولة... القدح فارغ... بعض الذبابات... فتمضي جوانا في المماطلة، تتقدَّم، وعيناها مشتعلتان:

ـ وذاك الآخر... في الليل يَخلعُ حذاءه بجهد، يرميه جانبًا، يتنهَّد، ويقول: الشيء المهمُّ هو عدم فقدان الهمَّة، الشيء المهمُّ هو عدم فقدان القلب...

كنَّ يتمتمن مبتسمات، الضعيفات منهنَّ: «هذا صحيح... كيف تعرفين؟»، أمَّا الأخريات فيتراجعن. لكن ينتهي الأمر بهنَّ بإحاطة جوانا، في انتظار أن تُظهر لهنَّ شيئًا آخر. فتصير إيماءاتها خفيفةً ومحمومةً وملهمةً، وأكثر تأثيرًا بالأخريات:

ـ اِنظرنَ إلى عيني تلك المرأة... مُستديرتين، شفَّافتين، ترتجفان، ترتجفان، قد تسقطان فجأةً في قطرة ماء...

ـ وماذا عن تلك النظرة؟ في بعض الأحيان، كانت جوانا أكثر جرأةً، عندما تنتبه لخجلٍ مفاجئٍ يَعتري الفتيات اللائي يقرأن كتبًا مُعيَّنةً في أروقة المدرسة. ماذا عن تلك النظرة؟ نظرة من تبحث عن المتعة أينما وجدتها...

تضحكُ الزميلات، لكن شيئًا فشيئًا يبدأ أمرٌ ما مضطربٌ ومؤلمٌ وغير مريحٍ بالتسلُّل إلى المشهد. سينتهي بهنَّ الأمر بالقهقهة، متوتراتٍ وغير راضيات. جوانا، متحمِّسة، ترتفع فوق نفسها، ممسكةً بالفتيات حسب إرادتها وكلمتها، بذكاءٍ لاذعٍ وحادٍّ مثل لسعات السوط الخفيفة، إلى أن ينجذبن إليها كلِّيًّا، فيتنفَّسن من هوائها اللَّامع الخانق. في رضا مُفاجئٍ تتوقَّف جوانا بعد ذلك، عيناها جافَّتان، وجسدها يَرتجف بالنصر. ومتى انتبهن لتراجع جوانا السريع وازدرائها يَشعرن بالخجل فيذبلن. واحدةٌ منهنَّ كانت تقول قبل أن يتفرَّقن مُتعباتٍ من بعضهنَّ بعضًا:

ـ جوانا لا تطاق عندما تكون مبتهجة....

احمرَّت ليديا خجلًا. (أنتِ تعلمين). جاءت جملة جوانا مقتضبةً للغاية ومشتَّتةً وفضوليَّة، بعيدةً جدًّا عن عاطفة ليديا. وأكملت، لا يهمّ، لا يهمّ، حاولت جوانا طمأنتها: من الواضح أنَّه لا يمكنك معرفة ما هو الشرّ. لذلك ستُنجبين طفلًا... وتابعت. وتريدين أوتافيو، الأب. إنَّه أمرٌ مفهوم. لماذا لا تَحصلين على وظيفةٍ لتربية الطفل؟ لا شكَّ أنَّك كنت تتوقَّعين منِّي طيبةً كبيرة، على الرَّغم ممَّا قلته للتوِّ عن شرِّي. لكنَّ الطيبة تُصيبني بالغثيان. لماذا لا تبحثين عن عمل؟ فهكذا لن تعودي في حاجةٍ إلى أوتافيو. أنا لستُ على استعدادٍ لمنحك كلَّ شيءٍ بالضبط.

لكن أخبريني أوَّلًا عن علاقتك مع أوتافيو، أخبريني كيف تمكَّنت من جذبه إليك ثانية. أو الأحرى: ما رأيه بي؟ قولي من دون أيِّ خوف. هل أجعله بائسًا للغاية؟

ـ لا أعرف، فنحن لا نذكُر اسمك.

(لذلك كنت وحدي بعد ذلك؟ ماذا عن هذه السعادة المولودة من الألم، والفولاذ الذي يُجعِّد بشرتي، وهذا البرد الذي هو الغيرة، لا، هذا البرد الذي هو مثل هذا: «آه، لقد سرتِ كلَّ هذه المسافة؟ حسنًا، عليك أن تعودي». لكن هذه المرَّة لن أبدأ من جديد، أقسم، لن أعيد بناء أيِّ شيء، سأبقى في الخلف مثل صخرةٍ بعيدة، في بداية الطريق. هناك شيءٌ يدور معي، يدور، ويدور، يذهلني، ويذهلني ويعيدني بهدوءٍ إلى حيث بدأت).

خاطبتْ المرأة الحامل:

ـ هذا غير مُمكن... لن يمكنه الإفلات بهذه السهولة.

ـ لكنَّه يكرهك بطريقةٍ ما! صرخت ليديا.

(حسنًا إذن).

ـ هل تشعرين بذلك أيضًا؟ سألت جوانا. نعم، نعم ... إنَّها ليست مجرَّد كراهية، على الرَّغم من كلِّ شيء. الليلة الماضية حناني.. لا يهمّ، في أعماقي كنت أعرف أنَّني وحدي، لم أكن حتَّى مَخدوعة، لأنَّني عرفت، كنت أعرف. ماذا لو كان الخوف أيضًا؟

ـ الخوف؟ أنا لا أفهم ـ قالت ليديا مُندهشة،ـ الخوف من ماذا؟

ـ ربَّما لأنَّني غير سعيدة، خوفٌ من الاقتراب. ربَّما يكون ذلك: الخوف من الاضطرار إلى المعاناة أيضًا...

ـ هل أنت غير سعيدة؟ سألت ليديا بصوتٍ هادئ.

ـ لكن لا تخافي، التعاسة لا علاقة لها بالشرّ، ضحكت جوانا. (ماذا حدث بعد كلِّ شيء؟ أنا لستُ هنا، لستُ هنا، ما حدث، التعب، أتمنَّى أن أغادر باكية. أعرف، أعرف: أودُّ أن أقضي يومًا واحدًا على الأقلّ في مشاهدة ليديا وهي تمشي من المطبخ إلى غرفة المعيشة، ثمَّ أتناول الغداء بجانبها في غرفةٍ هادئة ـ بعض الذباب، وأدوات المائدة ـ لا يَدهمها الحرّ، مرتديةً رداءً زهريًّا قديمًا كبيرًا. في وقتٍ لاحق، في فترة ما بعد الظهر، جالسةً أشاهدها تخيّط، وأقدِّم لها المساعدة من وقتٍ إلى آخر، مقصًّا، خيطًا، في انتظار وقت الاستحمام والعشاء، سيكون جيِّدًا، سيكون واسعًا وجديدًا. هل يمكن أنَّني لطالما افتقرتُ إلى القليل من هذا؟ لماذا هي قويَّةٌ جدًّا؟ ألَّا أقضي فترة ما بعد الظهيرة في الخياطة لا يُقلِّل من شأني بالمقارنة بها، على ما أعتقد، أم لا؟ يقلِّل، لا يقلِّل، يقلِّل، لا يقلِّل. أعرف ما أريد: امرأةً قبيحةً ونظيفةً ذات ثديَيْن كبيريْن تقول لي: ما كلُّ هذا اختلاق للأشياء؟ من دون دراميَّة، تعالي إلى هنا على الفور! واعطيني حمَّامًا دافئًا، وألبسيني ثوبًا ليليًّا من الكتَّان الأبيض، وضفِّري شعري وضَعيني في الفراش، وغاضبةً للغاية، قائلة: حسنًا، ماذا تريدين؟ أن تظلّي سارحة، تأكلين في أوقاتٍ غريبة؟ يمكنك أن تصابي بمرضٍ ما، توقَّفي عن اختلاق المآسي، تظنّينها عملًا عظيمًا؟ اشربي هذا القدح من المرق الساخن. ترفعُ رأسي بيدها، وتغطِّيني بملاءةٍ كبيرة، تزيح بعض الخصلات عن جبهتي، بيضاء ونضرةً بالفعل، وتُخبرني قبل

أن أغفو بحرارة: سترين كيف سيمتلئ وجهك بعد وقتٍ قصير، وسوف تنسين تلك الأفكار الطائشة وتكونين فتاةً صالحة. شخصٌ يأخذني كما يُؤخَذ كلبٌ مسكين، يفتح لي الباب، ينظّفني، يطعمني، يحبُّني بشدَّةٍ كما يحبُّ الكلب، هذا كلُّ ما أريده، مثل الكلب، مثل الطفل).

ـ هل ترغبين في الزواج، في الزواج فعلًا، منه؟ سألت جوانا.

نظرت ليديا إليها، في محاولةٍ لمعرفة ما إذا كانت هناك أيُّ سخريَّةٍ في سؤالها:

ـ نعم، أرغب.

ـ لماذا؟ سألت جوانا مندهشة. ألا ترين أنَّك لن تكسبي أيَّ شيءٍ جرَّاء ذلك؟ فأنت تملكين كلَّ ما يأتي من الزواج. احمرَّت ليديا خجلًا، (لكنَّني لم أكن امرأةً لئيمة، قبيحة، نظيفة). أراهن أنَّك قضيتِ حياتكِ كلَّها راغبةً في الزواج.

اغتاظت ليديا للحظة، فقد وضعت جوانا إصبعها على الجرح وبقسوة.

ـ نعم. كلُّ امرأةٍ ترغب... استطردت.

ـ الأمر ليس على هذه الحال معي. لأنَّني لم أفكِّر أبدًا في الزواج. الشيء المُضحك هو أنَّني ما زلت متأكِّدةً من أنَّني لستُ متزوِّجة... لقد صدقتِ هذا إلى حدٍّ ما: الزواج هو الغاية، بعد الزواج لا يُمكن أن يحدث لي أيُّ شيءٍ آخر. تخيَّلي: أن يكون هناك شخصٌ بجانبك دومًا، ألَّا تعرفي العزلة أبدًا. ـ يا إلهي! ألَّا تنفردي بنفسك أبدًا، أبدًا. وأن تكوني امرأةً متزوِّجة، ذلك يعني أنَّك شخصٌ مصيره مَكتوب. ومن

ثمَّ، كلُّ ما عليك فعله هو انتظار الموت. كنت أفكّر: لا يمكنك الحفاظ حتَّى على حرِّيَّة أن تكوني غير سعيدةٍ لأنَّك تجرِّين معك شخصًا آخر. ثمَّ شخصٌ يُراقبك دائمًا، ويُدقِّق فيك، ويرى كلَّ تحرُّكاتك. وحتَّى تعب الحياة له جمالٌ مُعيَّنٌ عندما تحملينه وحدك يائسة ـ كنت أفكّر. لكن كزوجيْن، تناول الخبز من دون ملحٍ من الرغيف نفسه كلَّ يوم، ومشاهدة هزيمتك في هزيمة الشخص الآخر... كلُّ هذا دون النظر إلى ثقل عاداتك المنعكسة في عادات الشخص الآخر، وثِقل الفراش المشترك، والمائدة المشتركة، والحياة المشتركة، والاستعداد والتهديد بالموت المشترك. كنت أقول دائمًا لي: أبدًا.

ـ ولماذا تزوَّجت؟ سألت ليديا.

ـ لا أعرف. كلُّ ما أعرفه هو أنَّ هذه الـ«لا أعرف» لا تعني أنَّني لا أعرف في هذه الحالة بالذات، بل ما يقبع وراء الأشياء. (أنا أتهرَّب من الموضوع، وسرعان ما ستعطيني تلك النظرة التي أعرفها جيِّدًا). لقد تزوَّجت بلا شكٍّ لأنَّني أردت الزواج. لأنَّ أوتافيو أراد الزواج منِّي. هذا كلُّ شيء، هذا كلُّ شيء: لقد فهمت الأمر: بدلًا من طلب العيش معي من دون زواج، اقترح شيئًا آخر. في الواقع لا فرقَ بين الاثنين. وكنت ساذجة، أوتافيو وسيم، أليس كذلك؟ لم أفكّر في أيِّ شيءٍ آخر ـ وقفة ـ كيف ترغبين به، بجسدك؟

ـ نعم، بجسدي، تلعثمت ليديا.

ـ إنَّه الحبّ.

ـ وماذا عنك؟ تجرَّأت ليديا.

ـ ليس كثيرًا.

ـ لكنَّه أخبرني، بغير ذلك...

توقَّفت ليديا. تفحَّصتها بعناية. كم بدت جوانا عديمة الخبرة! تحدَّثت عن الحبِّ بهذه البساطة والوضوح لأنَّه بلا شكٍّ لم يتجلَّ لها أيُّ شيءٍ منه حتَّى الآن. لم تسقُط في ظِلاله، لم تشعر بعدُ بانتقالاتها العميقة والسرِّيَّة. وإلَّا لكانت، مثلها، تكاد تخجل من السعادة المُفرطة، تبقى يقظةً عند بابها، تحمي من الضوء البارد ما لا ينبغي أن يَحترق من أجل البقاء على قيد الحياة. أبدًا ـ مع ذلك، حيويَّة جوانا تلك... التي فهمتها من خلال أوتافيو... أنَّ هناك حياةً بداخلها... لكنَّ حبَّها لا يأوي ولا حتَّى جوانا نفسها، شعرت ليديا، عديمة الخبرة، مُتكاملة، غير مُدنَّسة، تخالها عذراء. حدَّقت ليديا في وجهها وحاولت أن تشرح لنفسها ما كان مُتردِّدًا وجليًّا في هذا الوجه. ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الحبَّ لم يربطها حتَّى بالحبّ. بينما هي، ليديا، فقد تحوَّلت إلى امرأةٍ على الفور بعد القبلة الأولى.

ـ صحيح، لكن هذا لا يُغيِّر شيئًا ـ تابعت جوانا بهدوء. أريده أيضًا باردًا أكثر، كحيوان، كرجل. (أتساءل عمَّا إذا كانت ستنظر إليَّ بهذه الطريقة المخيفة والذهول والرزانة: آه، لأنَّك تتحدَّثين عن أشياءٍ صعبة، لأنَّكِ تخلقين أشياءً هائلةً في حركاتٍ بسيطة، اِعفيني، اعفيني. لكنَّ الخطأ هذه المرَّة خطأي، لأنَّني لا أعرف حقًّا ما قصدت قوله. ومع ذلك سوف أهزمها).

تردَّدت ليديا:

ـ أليس هذا أكثر من حبّ؟

ـ ربَّما، قالت جوانا مندهشة. المهمُّ أنَّه لم يَعُد حبًّا. (وفجأةً أشعر بالتعب، «ما الجدوى» الكبيرة تحيط بي، وأنا أعلم أنَّني سأقول شيئًا ما).

ـ احتفظي بأوتافيو. أنجبي طفله، كوني سعيدةً واتركيني وشأني.

ـ هل تعي ما تقولين؟ صرخت ليديا.

ـ نعم، بالطبع.

ـ أنتِ لا تحبِّينه...

ـ بل أحبُّه. لكنَّني لم أعرف أبدًا ماذا أفعل بالناس ولا بالأشياء التي أحبُّها، وأحيانًا يثقلون كاهلي، منذ صغري. ربَّما لو أحببته حقًّا بجسدي... ربَّما لو اهتممت أكثر... (يا إلهي، هي اعترافات. والآن سوف أقول هذا: «أوتافيو يهرب منِّي لأنَّني لا أجلب السلام لأيِّ شخص، أقدِّم للجميع الشرابَ نفسه، أجعلهم يقولون: كنت أعمى، لم يكن سلامًا ما ملكت، والآن هو السلام كلُّ ما أريد»).

ـ ومع ذلك... أعتقد... لا أحد يستطيع أن يشكو... ولا حتَّى أوتافيو... ولا حتَّى أنا.. ـ لم تعرف ليديا كيف تُفسِّر فصارت غامضة، ولم تسترح يداها على الأشياء.

ـ ماذا؟

ـ لا أعرف. نظرَت إلى جوانا وبحثَت عن شيءٍ في وجهها، مفتونة، تحرِّك رأسها.

ـ ماذا؟ كرَّرت جوانا.

ـ لا أستطيع أن أفهم.

احمرَّت جوانا قليلًا من الخجل، وقالت:

ـ ولا أنا. لم أتعمَّق أبدًا في قلبي.

لقد قيل شيءٌ ما.

سارت جوانا إلى النافذة، ونظرت إلى الحديقة حيث سيلعب طفلُ ليديا، الطفل الذي هو الآن في بطن ليديا، والذي سيُرضِعه ثدي ليديا، الذي سيكون ليديا أو أوتافيو، فاكهةً غير ناضجة؟ لا، هي ليديا التي تنقل نفسها، كأنَّ أحدهم شطرها إلى نصفيْن، كصوت كسر الأوراق الطازجة، سوف يرونها كرمَّانةٍ مَفتوحة، صحيَّةٍ ورديَّة، شفَّافةٍ كعينٍ صافية. قاعدةُ حياتها كانت سهلة الانقياد مثل جدولٍ يمرُّ عبر البلاد. وفي هذا الريف تَحرَّكت هي نفسها بثقةٍ وهدوءٍ مثل راع. قارنتها بأوتافيو، الذي لن تكون الحياة بالنِّسبة إليه أكثر من مغامرةٍ فرديَّةٍ ضيِّقة، وقارنتها بنفسها، باستخدام الآخرين كخلفيَّةٍ مُظلمةٍ وقفت عليها شخصيَّتها الطويلة الرائعة في صورةٍ ظليلة. شِعرُ ليديا: وحدَهُ هذا الصمت هو صلاتي، يا ربّ، وأنا لا أعرف ماذا أقول أكثر؛ أنا سعيدةٌ جدًّا لأنَّني أشعر بأنَّني أبقى هادئةً من أجل أن أشعر أكثر. في صمت، ولِدَت في داخلي شبكةٌ صغيرةٌ خفيفةٌ ورقيقة: هذا الفهم الناعم للحياة الذي يَسمحُ لي بالعيش. أم كان كلُّ ذلك كذبة؟ يا إلهي، عندما كنت في أمسِّ الحاجة للتصرُّف، تهتُّ في أفكارٍ عديمة الفائدة. كلُّ ذلك بلا شكٍّ كذبة، كان من المُمكنِ أن تكون ليديا أقلَّ نقاءً بكثيرٍ ممَّا كانت تتخيَّل. ولكن حتَّى مع ذلك كانت تخشى البقاء بجانبها، والالتفات لها بقليلٍ من الاهتمام، وجعلها تُدرِك نفسها. أن تحافظ على نفسها، ألَّا تُحوِّل لونها، صوتها الثمين.

ـ لقد أخبرني عمَّا حدث مع الرجل الشيخ... لقد رميتِ الكتاب عليه، العجوز ... فهمتُ عندئذ، لكنَّني الآن لا أعي كيف استطعت فعل ذلك... سألت ليديا.

ـ لكنَّ هذا كان صحيحًا.

حدَّقت ليديا في وجهها، شفتاها مفتوحتان قليلًا، في انتظارها. وفجأةً تأكَّدت بأنَّها لا تريد مقاومة تلك المرأة. هزَّت رأسها مُشوَّشة. ذاب وجهها، اهتزَّ، تردَّدت ملامحها بَحثًا عن تعبير:

ـ لم أفعل ذلك عن قصد، أتعلمين؟ لا، لم أفعل... ظلَّت ليديا مُضطرِبة، تَلدغ وجهَها تشنُّجاتٌ سَريعة. ـ لماذا أريدُ أن أخدعك؟ لا، هذا ليس ما أعنيه، هذا ليس كلَّ شيء...

وفجأةً، من دون أن تتوقَّع جوانا ذلك، انفجرَت في بكاءٍ حرٍّ وصاخب. إنَّها حامل، إنَّها مُستاءة، فكَّرت جوانا. كانت ليديا تتنفَّس بصعوبة:

ـ لا أهتمُّ من أن أسحب أوتافيو من امرأةٍ أخرى. لكنَّني لم أكن أعرف أنَّها أنت... لستِ مجرَّد أيِّ شخص، لستِ شخصًا مثلي ولكنَّكِ شخصٌ مثلك... طيِّبةٌ جدًّا... ساميةٌ جدًّا...

أصيبت جوانا بالدَّهشة. آه، فهذا ما كنتُ أسعى إليه جاهدة: لقد تمكَّنتُ من أن أكون سامية... كما في الأيَّام الخوالي... لا، الأمر ليس كذلك تمامًا، لم أجبر الموقف، كيف يمكنني أن أفعل ذلك والفولاذ يجعِّدني ويقشعر بدني؟ أنا لا أضع نفسي في هذا الضوء، وفي جبهتي ثلمٌ واضحٌ جدًّا. أبحث عن تلك الدرجة من الضوء والظلِّ التي أصبحت فيها فجأةً سمينة، وأحمر شفتيَّ مظلمًا في خطٍّ قديمٍ من الدم، ووجهي باهتًا

يحيطُ به شعري... تضغط الشفرة الفولاذيَّة على قلبي مرَّةً أخرى. عندما أغادر، ستحتقرني، انبهارها عابر. أنا رائعةٌ على نحوٍ عابر... يا إلهي، يا إلهي... أجري، أركض، أهذي، جسدي يطير، مُتردِّدًا... إلى أين؟ هناك مادَّةٌ خفيفةٌ خائفةٌ في الهواء، استطعتُ القبض عليها، شبيهةٌ باللحظة التي تسبق بكاء الطفل. في تلك الليلة، لا أعرف متى، كانت هناك أدراج، مراوح تتحرَّك، أضواء لطيفةٌ تهزُّ أشعَّتها الحلوة مثل رؤوس الأمَّهات المتسامحات، كان هناك رجلٌ ينظر إليَّ من فوق خطِّ الأفق، كنت غريبة، لكنَّني فزت على أيِّ حال، حتَّى لو كان ذلك إهانةً لشيءٍ ما. انزلق كلُّ شيءٍ بهدوء، في تناسقٍ صامت. كان قرب النهاية ـ نهاية ماذا؟ الدرج النبيل والضعيف، المنحدر، يلوح بذراعه الطويلة اللَّامعة، الجميلة، درابزين فخور، نهاية الليل. عندما كنتُ أنزلق إلى قلب القاعة، ناعمةً مثل فقاعة الهواء. وفجأةً، قويَّةً مثل الرعد، ولكن ساكتةً كخوفٍ صامت، وفجأةً، خطوةٌ أخرى ولم أستطع الاستمرار! ارتعشَت حافَّة ثوبي، كشَّرت، كافحت، مُلتوية، تمزَّقَت عند زاويةٍ حادَّةٍ لقطعة أثاثٍ وبقيَت هناك، مُرتعشة، تلهث، في حيرةٍ من أمري تحت نظرتي المذهولة. وفجأةً، تصلَّبت الأمور، انفجرَت أوركسترا في أصوات مُلتويةٍ وسكتت على الفور، كان هناك شيءٌ منتصرٌ ومأساويٌّ في الهواء. اكتشفتُ أنَّه ليست هُناك مُفاجأة فعلًا في داخلي: أنَّ كلَّ شيءٍ كان يتَّجه ببطءٍ على ذلك النحو وقد قفز الآن إلى مُستواه الحقيقيّ. أردت أن أهرب، أن أبكي برفقة ثوبي المسكين، الممزَّق المغموم. عندها، صارت الأضواء تسطع بقوَّةٍ وفخر، وكشفت المراوح عن وجوهٍ مُتألِّقةٍ وذكيَّة، من بعيدٍ في الأفق كان الرجل يَبتسم لي، تراجع الدرابزين، وأغلق عينيْه... لم يَعُد أحدٌ في حاجةٍ إلى الكذب بعد الآن، لأنَّني كنت أعرف كلَّ شيءٍ بالفعل! الآن سأقفز إلى حالةٍ أخرى أيضًا. لماذا؟ لماذا؟ سأغادرُ

هذا المكان، سأذهب إلى المنزل، الخزق المفاجئ في ثوبي، صُراخ الأوركسترا الثاقب وفجأة الصمت، جميع الموسيقيِّين يرقدون ميِّتين على المنصة، في القاعة الكبيرة، الغاضبة الفارغة. سأنظر إلى الخزق، لكنَّني أخشى الانفجار بالمعاناة، مثل صراخ الأوركسترا. لا أحد يعرف إلى أيِّ مدًى يمكنني أن أصل، إلى النصر تقريبًا، كما لو إبداعًا: إنَّه شعورٌ بقوَّةٍ خارج الإنسان يحتاج الوصول إليها بلوغ درجةٍ شاهقةٍ من المعاناة. ومع ذلك، ثمَّة دقيقةٌ واحدةٌ أخرى، ولا تعرف ما إذا كانت القوَّة أو العجز المطلق، تمامًا مثل الرَّغبة في تحريك جسمك وعقلك لتحريك إصبعك وعدم القدرة على ذلك. ليس ببساطةٍ عدم القدرة على ذلك: ولكن كلُّ الأشياء تضحك وتبكي في الوقت نفسه. لا، أنا بالتَّأكيد لم أخترع هذا الموقف، وهذا أكثر ما يُفاجئني. لأنَّ رغبتي في التجربة لن تذهب إلى حدِّ إثارة هذا الحديد البارد ضاغطًا على اللَّحم الدافئ، الدافئ من حنان الأمس. (أوه، لا تلعبي دور الشهيدة: أنتِ تعلمين أنَّك لن تبقي في الحالة نفسها لفترةٍ طويلة: ستفتحين دوائر الحياة وتغلقينها مرَّةً أخرى، وترمينها جانبًا، ذابلة... ستمرُّ تلك اللَّحظة أيضًا، حتَّى لو لم تطالب ليديا بأوتافيو، حتَّى لو لم أكتشف أبدًا أنَّ أوتافيو لم يتركها على الرَّغم من أنَّه كان مُتزوِّجًا منِّي. ألا أخلط في هذا التَّهديد بالألم بعض السعادة الحلوة والساخرة؟ ألا أحبُّ في هذه اللحظة؟ فقط عندما أغادر هذا المكان، سأسمحُ لنفسي بالنظر إلى الخزق في ثوبي. لا شيء حدث، إلَّا أنَّني بالأمس بدأت التَّجديد والآن أنسحبُ لأنَّ هذه المرأة مستاءةٌ لأنَّها تنتظر طفل أوتافيو). أوَّلًا وقبل كلِّ شيءٍ لم يكن هُناك تحوُّلٌ حَيويّ، كلُّ هذا موجودٌ بالفعل، والتمزُّق في الثوب أشار إلى الأشياء فقط. وفعلًا، فعلًا، صداع، تعب، كان كلُّ شيءٍ يتَّجه نحو ذلك، فعلًا.

ـ يُمكنني إنجاب طفلٍ أيضًا، قالت بصوتٍ عال. بدا صوتها جميلًا وضعيفًا.

ـ أجل، تمتمَت ليديا في فزع.

ـ أنا أيضًا أستطيع. لم لا؟

ـ لا...

ـ لا؟ مع أنَّني... سأعطيكِ أوتافيو، ليس الآن، ولكن عندما أريدُ ذلك. سأنجبُ طفلًا وبعد ذلك سأعيدُ أوتافيو إليك.

ـ لكن هذا مريع! صرخت ليديا.

ـ لماذا؟ أمريعٌ أن تكون لديْه امرأتان؟ أنتِ تعرفين جيِّدًا أنَّه ليس كذلك. من الجيِّد أن تكوني حاملًا، أتخيَّل. ولكن هل يكفي أن يَتوقَّع شخصٌ ما طفلًا أم لا يزال هذا غير كاف؟

ـ إنَّه شعورٌ جيِّد، قالت ليديا مُتمهِّلةً وعيناها مفتوحتان.

ـ جيِّد؟

ـ ثَمَّ تخوُّفٌ من الولادة في بعض الأحيان، أجابت ليديا بطريقةٍ آليَّة.

ـ لا تخافي، كلُّ البهائم تلِد. ستكونُ ولادتكِ سَهلةً وكذلك أنا. كلانا تنعمُ بوركٍ عريض.

ـ نعم...

ـ أنا أيضًا أرغب بالأشياء التي تقدِّمها الحياة. لم لا؟ هل تَظنِّين أنَّني عاقر؟ لا، لا. لم أنجِب أطفالًا لأنَّني لم أرغب في ذلك.

(أشعر بأنَّني أهدهدُ طفلًا، فكَّرت جوانا. نَم، يا صغيري، نَم، أقول له. الطفل دافئٌ وأنا حزينة. لكنَّه حزنُ السعادة، هذا الاسترضاء والكفاية ما يجعل الوجه هادئًا وبعيدًا. وعندما يلمسني طفلي لا يَسلِبني أفكاري كما يفعل الآخرون. ولكن في وقتٍ لاحق، ولكن في وقتٍ لاحق، عندما أرضعه من هاذيْن الثديين الهشَّيْن والجميليْن، سينمو طفلي من قوَّتي ويَسحقُني بحياته. سوف يَبتعد عنِّي وأصير أمًّا عجوزًا عديمة الفائدة. لن أشعر بالخديعة، بل بالهزيمة فقط، وسأقول: أنا لا أعرف شيئًا، أنا قادرةٌ على ولادة طفلٍ ولا أعرف شيئًا. سوف يقبل الربُّ تواضعي ويقول: لقد خلقتُ كونًا ولا أعرفُ شيئًا. سأكون أقرب إليه وإلى المرأة ذات الصوت. سيتحرَّك طفلي بين ذراعيَّ وسأقول لنفسي: جوانا، جوانا هذا جيِّد. لن أنطق بكلمةٍ أخرى لأنَّ الحقيقة ستكون ما يُسعِد ذراعيّ).

الرجل

بين لحظةٍ وأخرى، بين الماضي والمستقبل، ذلك الغموض الأبيض للفاصل الزمنيّ. فراغ، مثل المسافة بين الدقيقة وأختها في دائرة الساعة. الجزء السفليُّ من الأحداث يرتفعُ صامتًا وميِّتًا؛ قليلٌ من الأبديَّة.

ثانيةٌ هادئةٌ واحدةٌ ربَّما ما يفصل فترةً من الحياة عن الأخرى. ولا حتَّى ثانيةً واحدة، لا تستطع عدَّها في الوقت المؤات، ولكنَّها طويلةٌ مثل خطٍّ مستقيمٍ لا نهائيّ. عميقة، قادمةٌ من بعيد ـ طائرٌ أسود، نقطةٌ تنمو في الأفق، تقترب من الوعي مثل كرةٍ تُرمى من النهاية إلى البداية. وتنفجر أمام العيون الحائرة في كيان الصمت، تاركةً وراءها فاصلًا زمنيًّا مِثاليًّا كصوتٍ واحدٍ يهتزُّ في الهواء. الولادة من جديدٍ فيما بعد، حِفظ الذاكرة الغريبة للفاصل الزمنيّ، وعدم معرفة كيفيَّة مَزجها في الحياة. حَملُ النقطة الصغيرة الفارغة، إلى الأبد ـ في حالة ذهولٍ بَتول، عابرةٍ جدًّا بحيث لا تسمح لنفسها بالجليان.

شعرَت جوانا بذلك وهي تعبر حديقة ليديا الصغيرة، جاهلةً إلى أين هي ذاهبة، مع العلم فقط أنَّها كانت تترك وراءها كلَّ ما عاشته. عندما أغلقت البوَّابة الصغيرة ابتعدَت عن ليديا، وعن أوتافيو، وسارت وحدها في نفسها مرَّةً أخرى.

هدأت العاصفة فطاف هواءٌ عَليل. صعدت التلَّ مرَّةً أخرى ولا يزال قلبها ينبض بلا إيقاع. كانت تَسعى إلى السلام الذي يُغشّي تلك المسارات في ذلك الوقت من المساء، بين فترة ما بعد الظهر والليل، الزيز غير المرئيّ يهمس بالأغنية نفسها. بقايا جدرانٍ قديمة، يَغزوها اللبلاب والنباتات الحسَّاسة في حضور الرياح. توقَّفت، ومن دون وقع خطواتها سمعت الصمت يتحرَّك. لا شيء إلَّا جسدُها كان يعكِّر ذلك الصفاء. لقد تخيَّلت ذلك بدون حضورها وشعرَت بالنضارة التي يجب أن تتمتَّع بها تلك الأشياء الميِّتة الممزوجة بالآخرين، حيَّةً على نحوٍ هشٍّ كما في بداية الخليقة.

المنازل العالية المغلقة، تمتدُّ كالأبراج. وصلَت إلى إحدى الدور عبر شارعٍ طويلٍ ومظلَّلٍ وهادئ، نهاية العالم. فقط عندما اقتربت منه تمكَّنت من رؤية مُنحدر، ولادة شارعٍ آخر فيدرك المارُّ أنَّه لم يصل إلى طريقٍ مَسدود. الدار واطئةٌ وواسعة، النوافذ مَكسورة، والواجهات مغلقةٌ يكسوها الغبار. كانت على درايةٍ جيِّدةٍ بتلك الحديقة حيث تختلط خصلاتٌ ناعمةٌ من الأعشاب والورود الحمراء والعلب القديمة الصدئة. تحت عرائش الياسمين المزهرة، وجدت صُحفًا باهتة، وقطعًا من الخشب الرَّطب من الطعوم القديمة. من بين الأشجار الثقيلة القديمة، كانت عصافير الدوريِّ والحمامات لا تنفكُّ من نقر الأرض. عصفورٌ صغيرٌ استراحَ من الطيران، تجوَّل في المناطق المحيطة ثمَّ اختفى في الغابة. الدار الفخورة الفخور،

هادئةٌ في أنقاضها. صالحةٌ للموت. لا يمكن للمرء أن يصل إلى ذلك المنزل إلَّا عندما تأتي النهاية. أن تموت على تلك الأرض الرَّطبة الصالحة لاستقبال جثَّة. لكنَّها لم تكن تريد الموت، كانت خائفة.

يسيل خيطٌ من الماء من دون توقُّفٍ من أعلى الجدار المظلم إلى أسفله. توقَّفت جوانا للحظة، حدَّقت فيه، غير مُبالية. في إحدى نزهاتها السَّابقة، جلست بجوار البوابة الصدئة، وضغطت وجهها على القضبان الباردة، محاولةً الغرق في رائحة الفناء الرطبة الداكنة. هذا الهدوء المنعزل، هذا العِطر. لكن كان ذلك منذ وقتٍ طويل. أمَّا الآن، فهي قد انفصلت عن الماضي.

واصلَت السَّير. لم تَعُد تشعر بحرارة الحمَّى التي سبَّبها حديثها مع ليديا. كانت شاحبةً والإرهاق جعلها الآن خفيفةً تقريبًا، ملامحُها أكثر دقَّةً ونقاء. كانت تتوقَّع النهاية، النهاية التي لم تأتِ أبدًا لإنهاء لحظاتها. كانت تتمنَّى أن ينزل عليها شيءٌ لا مفرَّ منه، أرادت أن تتنازل، أن تخضع. تعثَّرت خطواتها، شعرت بالثقل، وبالكاد حرَّكت ساقيْها. لكنَّها كانت تُجاهِد، لتتقدَّم ولكي تسقط بعيدًا. نظرَت إلى الأرض، الأعشاب الشقراء التي وُلِدت بتواضعٍ من جديد، بتواضعٍ بعد كلِّ سَحق.

رَفعت عينيْها ورأته. الرجل ذاته الذي كان يَتبعها كثيرًا، من دون أن يقترب منها. لقد رأته بالفعل عدَّة مرَّاتٍ في تلك الشوارع نفسها، أثناء تنزُّهها بعد الظهر. لم تَتفاجأ. كانت تعلمُ أنَّ شيئًا ما يجب أن يأتي بطريقةٍ ما، حادٌّ كسكِّين. أجل، في الليلة السابقة فقط، مُستلقيةً بجانب أوتافيو، غيرَ مُدركةٍ لما كان سيحدث في اليوم التالي، تذكَّرت هذا الرجل، الحادَّ كسكِّين... الشعور بالدوار قليلًا، لأنَّها حاولت أن تُحدِّده من مسافةٍ بَعيدة،

رأته يَتكاثر إلى عددٍ لا يُحصى من ظلالٍ تترنَّح من دون شكلٍ تُغطّي الطريق. عندما وضح نظرها، جَبهتُها مبلَّلةٌ بالعرق، رأتهُ على النقيض نقطةً واحدةً فقيرةً تمشي نحوها، تائهةً في الشارع الطويلة المهجورة. لا شكَّ أنَّه سيكتفي بتتبُّعها، كعادته في المرَّات السابقة. لكنَّها كانت مُتعبةً وتوقَّفت.

كلَّما اقتربت شخصيَّة الرجل أكثر فأكثر ونمت، شعرت جوانا أنَّها تغرق أعمق وأعمق فيما لا يُمكن إصلاحه، كانت لا تزال قادرةً على التراجع، ولا يزال بإمكانها إدارة ظهرها والمغادرة، وتجنُّبه. لن يكون هروبًا، إذ شعرَت بتواضع الرجل. لم يكن هُناك أيُّ شيءٍ واضحٍ يَمنعها عن التحرُّك، في انتظار اقترابه منها. لا شيء يُوقِفها، ولا حتَّى الخوف. ولكن، حتَّى لو كان الموت يقترب الآن، حتَّى النذالة أو الأمل أو الألم مرَّةً أخرى. إنَّها ببساطةٍ قد توقَّفت. لقد قطعَت الأوردة التي ربطتها بالأشياء التي اختبرتها، وتجمَّعت في كتلةٍ واحدةٍ بعيدة، مطالبةً باستمرارٍ مَنطقيّ، لكنَّها كانت قديمة، ميِّتة. فقط هي نفسها الناجية، لا تزال تتنفَّس. وأمامها حقلٌ جديد، لا يزال من دون ألوانٍ فالفجر ما زال يَتحضَّر للبزوغ. ينبغي عبور الضباب لمشاهدة الفجر. لا تستطيع العودة، ولا تعرف لماذا يجب أن تعود. فإن كانت لا تزال مترددَّةً بسبب اقتراب الغريب أكثر وأكثر، فذلك لأنَّها تخشى الحياة التي كانت تقترب مرَّةً أخرى بلا هوادة. حاولت التشبُّث بالفترة الفاصلة، لتعيش فيها معلَّقة، في ذلك العالم البارد المجرَّد، من دون الاختلاط بالدم.

اِقترَب. توقَّفَ على بعد خطواتٍ قليلةٍ منها. اعتنقا الصمت. عيناها واسعتان، تُحدِّقان مُتعبَتيْن. وهو يرتجف، مترددًا. حولهما تحرَّكت الأوراق مع النسيم، طائرٌ صاحَ برتابة.

امتدَّ الصمت في انتظار ما قد يقولانه. لكن لم يكتشف أيٌّ منهما في الآخر بدايةَ كلمة. كلاهما ذابَ في الهدوء. استعادَ هُدوءه، لم يَعُد يرتجِف، واستقرَّت عيناه بعمقٍ أكبر في جسدِ جوانا، واستحوذتا عليه وعلى تعبه بهدوء. حدَّق بها مُتناسيًا نفسه وخجله. شعرت جوانا أنَّه يخترقها وسمحت له.

عندما نطق، رفعت جسدها على نحوٍ غير مَحسوس. شعرت وكأنَّ وقتًا طويلًا قد مرَّ، ولكن عندما تفوَّه بكلماته الأولى من دون مُحاولة بدء مُحادثة، عرفت أنَّها في الواقع نأت بصورةٍ غير مسبوقةٍ عن البداية.

ـ أسكنُ في تلك الدار، قال.

انتظرَت.

ـ هل ترغبين بالاستراحة؟

أومأت جوانا برأسها ونظر بصمتٍ إلى الهالة المضيئة التي رسمها شعرها المنفوش حول رأسها الصغير. مَضى قدمًا فتبعَته.

غرفةُ الرجل كانت دافئةً بفضل ما تبقَّى من خيوط الشمس. سحبَ الستائر فانتشر الظلُّ عبر الأرضيَّة الخشبيَّة، حتَّى الباب المُغلَق. سحبَ لها كرسيًّا قديمًا ناعمًا، وغرقت فيه، وساقاها مَطويَّتين. جلس هو نفسه على حافَّة السرير الضيِّق، المغطَّى بشرشفٍ مُتجعِّد. جلس هُناك متوتِّرًا، ويداه معًا، ينظر إليها.

أغمضَت جوانا عينيْها. سمعت أصواتًا ناعمةً تمتدُّ بعيدًا عبر المنزل مثل تعجُّب طفلٍ من مُفاجأةٍ خَفيفة. كما لو كان من عالمٍ آخر، وصلها من بعيدٍ صياحٌ طريٌّ لديْك. وخلف كلِّ شيءٍ رقرقةُ المياه الجارية بخفَّةٍ والتنفُّس الإيقاعيُّ للأشجار.

حركةٌ شعرَت بها في مكانٍ قريبٍ جعلتها تفتح عينيْها. لم تلاحظه في البداية، بسبب العتمة في الغرفة. لمحَتهُ راكعًا بجانب السرير، ووجهه يتأرجح في يديْه. رغبت بأن تناديه، لم تعرف كيف. لم تكن تريدُ أن تلمسه. لكنَّ ألمَ الرجلِ بدأ يقتربُ منها، فتحرَّكت جوانا على الكرسيِّ في انتظار نظرته.

رفع رأسه وفوجئت جوانا. لمعَت شفتا الرجل شبه المفتوحتيْن، كما لو أنَّ ضوءًا أنارهما من الداخل. لمعَت عيناه، لكنَّها لم تستطع معرفة ما إذا كان من الألم أو من فرحٍ غامض. توسَّعت جبهته، وبالكاد استطاع جسده الحفاظ على توازنه في مُحاولةٍ منه ألَّا يرتجف.

ـ ماذا جرى؟ همست جوانا مَفتونة.

نظر إليها.

ـ إنَّني خائف، قال أخيرًا.

حَدَّقا في بعضهما بعضًا لثانيةٍ واحِدة. ولم تكن خائفة، لكنَّها شعرت بسعادةٍ كثيفة، أكثر كثافةً من الرُّعب، استحوذت عليها وملأت جسدها بالكامل.

ـ سأعود إلى هذا المنزل، قالت.

واجهَها فجأةً مَرعوبًا، من دون أن يتنفَّس. للحظةٍ توقَّعت منه أن يصرخ أو يخترع حركةً مُختلَّةً لم تستطع حتَّى أن تبدأ في تخمينها. ارتجفت شفتا الرجل لحظة. وبالكاد تحرَّر من نظرة جوانا، وهرب منها مثل رجلٍ مَجنون، أخفى وجههُ بفظاظةٍ في يديْه الطويلتيْن النحيلتيْن.

المأوى في الرجل

جوانا، جوانا، فكَّر الرجل وهو يَنتظر وصولها. جوانا، اسمٌ عارٍ، جوانا الطاهرة، البتول. كم كانت نقيَّةً وبريئة. كان يرى مَلامِحها الطفوليَّة، ويديْها البليغتيْن كيَديْ رجلٍ أعمى. لم تكن جميلة، على الأقلّ منذ صار رجلًا بالغًا لم يحلُم أبدًا بذلك المخلوق، ولم يَنتظرها أبدًا. ربَّما كان هذا هو السَّبب في أنَّه تبعها في الشوارع عدَّة مرَّات، على الرَّغم من أنَّه لم يتوقَّع منها أن تنظر إليه، ربَّما... لم يَكُن مُتأكِّدًا، كان يحبُّ دائمًا رؤيتها. لم تكن جميلة. أم كانت؟ كيف يمكن أن يقول؟ كان من الصَّعب جدًّا معرفة ذلك كما لو أنَّه لم يَرَها من قبل، كما لو أنَّه لم يُعانِقها عدَّة مرَّات. التحوُّل في وجهها، في تحرُّكاتها، لحظةً بلحظة، هو تَهديد. حتَّى وهي تستريح كانت شيئًا على وشكِ الارتقاء. وما الذي فهمه الآن وشعر به بأعجوبة، كما لو أنَّها شرحت له ذلك؟ سأل نفسه. يغمضُ عينيْه ويمدُّ ذراعيْه بجانبه على السرير. ولكن فقط إلى أن يسمع خطوات جوانا في الخارج. لأنَّه لم يكن ليجرؤ أبدًا على السَّماح لنفسه بالاستلقاء في

حضورها. يَنحني عليها، وينتظرها في كلِّ ثانية، ويستوعبها. ومع ذلك، لم يتعب أبدًا، والموقف لا يَسلب طبيعته. بل يدفعه إلى نوعٍ آخر غير معروفٍ حتَّى الآن. صار اثنيْن الآن، لكنَّ كيانه الناشئ الجديد نما ببطء وسيطر على ماضي الآخر.. زمَّ شفتيْه. لقد شعرَ أنَّه كان هناك منطقٌ غامضٌ في تعرُّضه لأنواعٍ معيَّنةٍ من التعذيب، والرذالة الهادئة، وافتقاره غير المبالي إلى التوجيه، لاستقبال جوانا الآن بعد طول انتظار. لا يعني ذلك أنَّ أحدًا دفعَه إلى الوحل أو ضدَّ إرادته، وليس أنَّه اعتبر نفسه شهيدًا. لم يتوقَّع أبدًا حلًّا. حتَّى فيما يتعلَّق بالنساء، اللواتي راقبهنَّ وراقبهنَّ وتخلَّى عنهنَّ. حتَّى تلك المرأة التي نصبَ نفسَهُ في منزلها بتكاسل، على الرَّغم من أنَّه بالكاد كان يَستطيع تحمُّل وجودها، ظلَّ مُرهَقًا ورقيقًا. كان يمشي على قدميْه، وجسده واع، يُجرِّب ويعاني من دون أيِّ عطفٍ تجاه ذاته، وكلُّ شيءٍ يمنح نفسه لفضوله ببرودةٍ وسذاجة. حتَّى أنَّه كان يعتقد أنَّه سعيد. والآن جاءت جوانا، هي، جوانا التي... أراد أن يضيف كلمةً أخرى، الكلمة الحقيقيَّة، الكلمة الصعبة، إلى أفكاره المُشوَّشة، لكنَّه أبحر مرَّةً أخرى بفكرة أنَّه لم يَعُد في حاجةٍ إلى التَّفكير بعد الآن، ولم يكن في حاجةٍ إلى أيِّ شيء، أيِّ شيء... ستصلُ بعد قليل. بعد قليل. لكن اسمع: بعد قليل... وهكذا حصل: لقد حرَّرته جوانا. صار يحتاج كلَّ يومٍ للأقلّ من أجل العيش: كان يفكِّر أقلّ، يأكل أقلّ، بالكاد ينام. هي كانت دائمًا. وستصلُ بعد قليل.

أغمض عينيْه بشدَّة، وعضَّ شفتيْه، وعانى من دون معرفة السَّبب. فتحهما على الفور مرَّةً أخرى وفي الغرفة. الغرفة الفارغة! لم يتمكَّن فجأةً من العثور على دليلٍ على أنَّ جوانا كانت هُناك. كما لو كان وجودها

كذبة... نهض. (تعالي)، صاحَ شيءٌ يحترقُ فيه ويذوي. (تعالي، تعالي)، كرَّر بصوتٍ خفيض، بخوف، بشرود. (تعالي...).

خطواتٌ خفيفةٌ تدوسُ على الأوراق الجافَّة في الخارج. كانت جوانا تصل مرَّةً أخرى... مرَّةً أخرى سمعَتهُ من مسافةٍ بعيدة.

وقفَ بجانب السرير وعيناه غائبتان، رجلٌ أعمى يتأرجح على موسيقى بعيدة. اقتربت، اقتربت... جوانا. كانت خطواتها حقيقةً واقعيَّةً أكثر فأكثر، الحقيقة الوحيدة. جوانا. مثل طعنةٍ مُباغِتة، انفجر الألم في جسده، أضاءه فرحًا وحيرة.

عندما فَتح الباب لجوانا لم يَعُد مَوجودًا. انزلق في أعماقِ أعماقه، حامَ في ظلمةِ غابَتِه المطمئنة. لقد تحرَّك قليلًا الآن وكانت حركاته سهلةً وجديدة. حَدقتاه غامقتان وواسعتان، كحيوانٍ لطيف، خائفٍ كغزال، وبالرَّغم من ذلك أصبح الجوُّ واضحًا إلى درجة أنَّه كان يلاحظ أيَّ حركةٍ يأتي بها أيُّ كائنٍ حيٍّ في محيطه. ولم يكن جسده سوى ذاكرةٍ جديدة، حيث ستتشكَّلُ الأحاسيس كما صار في المرَّة الأولى.

كانت السفينة البيضاء الصغيرة تطفو على أمواجٍ كثيفة، خضراء، مشرقةً وخشنة، رآها مُستلقيةً هُناك، تحدِّق في اللَّوحة الصغيرة على الحائط.

في اليوم الثالث، أكملت جوانا بصوتٍ واضحٍ وخَفيف، بفواصل دائريَّةٍ صغيرة، في الثالث كان هُناك موكبٌ كبيرٌ لأولئك الذين وُلِدوا. كان مُضحكًا جدًّا مَنظرُ الناس وهم يغنُّون ويحملون راياتٍ ملوَّنةً بجميع الألوان. ثمَّ نهض رجلٌ لطيفٌ وسريعٌ مثل النسيم الذي يهبُّ عندما نشعر بالحزن، وقال من بعيد: «أنا». لم يسمعه أحد، لكنَّه كان راضيًا نوعًا

ما. كان ذلك عندما ارتفعت العاصفة العظيمة التي هبَّت من الشمال الغربيّ وداست على الجميع بأقدامها الناريَّة الكبيرة. عادوا جميعًا إلى منازلهم، ذابلين، مُحترقين من الحرّ. خلعوا أحذيتهم، وخفَّفوا أطواقهم. ركضَت جميع الدماء ببطء، بكثافةٍ في جميع الأوردة. وتجرجر «ليس ـ هُناك ـ ما ـ يمكن ـ فعله» على الأرواح. في غضونِ ذلك استمرَّت الأرض في الدوران. كان ذلك عندما ولِد صبيٌّ يُدعى «اسم». كان جميلًا، ذاك الصبيّ. عينان واسعتان تريان، شفتان رفيعتان تشعران، وجهٌ نحيلٌ يشعر، جبينٌ مرتفعٌ يشعر. كان رأسه كبيرًا. مشى مثل شخصٍ يألَفُ المكان جيِّدًا، وانزلق من دون عناءٍ بين الحشد. من تَبِعه لا بدَّ واصِل. عندما يتأثَّر، عندما يتفاجأ، كان يهزُّ رأسه، هكذا، ببطء، مثل شخصٍ يتلقَّى أكثر ممَّا كان يتوقَّع. كان جميلًا. وقبل كلِّ شيءٍ كان على قيد الحياة. وقبل كلِّ شيءٍ كنت أحبُّه. وهكذا كنت أولد، وكان قلبي جديدًا كلَّما رأيته. كنت أُوْلد، أولَد، أولدُ. حان الوقت لبيتِ شِعر: ما أرغب به، يا عزيزي، هو أن أراك دومًا، يا عزيزي. كما رأيتك اليوم، يا عزيزي. حتَّى لو متُّ، يا عزيزي. وها بيتٌ آخر: ذات يومٍ سمعت زهرةً تغنِّي، فرحتُ، اقتربتُ، يا للأعجوبة، لم تكن الزهرة هي التي كانت تُغنِّي، بل عصفورٌ صغيرٌ فوق الزهرة.

كانت جوانا تتكلَّم ناعسةً في النهاية. من خلال عينيْها شبه المغلقتيْن، كانت السفينة تطفو مُلتويةً في اللَّوحة، وكانت الأشياء في الغرفة تمتدّ، مُتوهِّجة، نهايةً واحدةً تُمسِك بيديْها مع بدايةٍ أخرى. لأنَّه ما دامت تعلم فعلًا «أنَّ كلَّ شيءٍ كان واحدًا»، فلِمَ الاستمرار في الرؤية والعيش؟ كان الرجل، وعيناه مُغمضتين، قد غرقَ في كتفها يُصغي إلى

الحلم، حالِمًا من دون نوم. بين الحين والآخر كانت تُسمَعُ من داخل الصمت الشديد لفترة ما بعد الظهيرة الصيفيَّة حركاتٌ بطيئةٌ ومكتومةٌ على الأرضيَّة الخشبيَّة الفضفاضة. كانت المرأة، المرأة، تلك المرأة.

في المرَّات القليلة الأولى التي أتت فيها جوانا إلى الدار الواسعة، أرادت أن تسأل الرجل هذا السُّؤال: هل هي مثل والدتك الآن؟ لم تَعُد حبيبتك؟ أما زالت تريدكَ في المنزل على الرَّغم من وجودي؟ لكنَّها كانت تؤجِّل السؤال. ومع ذلك، كان وجودُ المرأة الأخرى في المنزل قويًّا جدًّا، إلى درجة أنَّ الثلاثة شكَّلوا زوجًا. ولم تشعُر جوانا والرجل بالوحدة تمامًا. أرادت جوانا أيضًا أن تسأل المرأة نفسها: ولكن أين، أين تتفكَّك روحك خلفك؟ ومع ذلك، كانت هذه فكرةً قديمة. لأنَّها ذات يومٍ رأتها بطرفِ عيْنها تدحش ظهرها السَّمين في كتلةٍ لا تَنفصمُ من الألم تحت فُستانها الدانتيل الأسود. لقد لمحتها أيضًا في لحظاتٍ أخرى عابرة، تنتقل من إحدى الغرف إلى الصالة، تبتسم بسرعة، تهرب من الرُّعب. ثمَّ اكتشفت جوانا أنَّها شخصٌ حيٌّ ومظلِم. أذنان سميكتان، حزينتان وثقيلتان، يَتوسَّطهما كهفيْن أسوديْن.. النظرة رقيقةٌ وهاربة ومبتهجة كنظرة عاهرةٍ بلا جاه. شفتان كبيرتان، ذابِلتان، رطبتان، ومصبوغتان. كما ينبغي أن تحبَّ الرجل. كان شعرها الرَّقيق خفيفًا ومُحمرًّا من الصبغ المتكرِّر. والغرفة التي كان ينام فيها الرجل ويستقبلُ جوانا فيها، تلك الغرفة ذات الستائر، الخالية من الغبار تقريبًا، كانت هي من رتَّبتها بلا شكّ. كمن يخيط الكفن لابنه. جوانا، تلك المرأة وزوجة المعلِّم. ما الذي كان يربط بينهنَّ في آخر المطاف؟ النعم الشيطانيَّة الثلاث.

ـ اللوز ... ، قالت جوانا، ملتفّةً على الرجل.

سرُّ الكلمات وحَلاوتُها: اللّوز... استمِعْ، مَلفوظةً بعناية، الصوت في حلقي، صدى في أعماق فَمي. يهتزّ، يتركني طويلة، مرسومًا ومنحنيًا مثل القوس. لوزٌ مرٌّ وسامٌّ ونقيّ.

النِعَم الثلاث المريرة والسامَّة والنقيَّة.

ـ حدِّثيني عن ذلك الشيء...، قال الرجل.

ـ عمَّ؟

ـ عن البحَّار. «إن أحببتَ بحَّارًا، تكون قد أحببتَ العالم بأسره».

ـ هذا فظيع...، ضَحِكت جوانا. أعرفها: قلتُ لنفسي إنَّه يجب أن تكون حقيقيَّةً إلى درجة أنَّها وُلِدت بقافية. لكنَّني لم أَعُد أتذكَّرها .

ـ «كان يوم الأحد، في الساحة. الرصيف في الميناء...»، ساعدها الرجل.

في أحد الأيَّام، كسر هدوئه المعتاد عند وجوده مع جوانا، حاول القول:

ـ لم أكن يومًا أيَّ شيء.

ـ أجل، أجابت.

ـ لكن كلُّ ما حدث لن يجعلك تغادرين..

ـ لا.

ـ حتَّى هذه المرأة... هذا البيت... الأمر مختلف، أتعلمين؟

ـ نعم، أعلم.

ـ أنا أعلم أنَّني كنت دائمًا مثل المتسوِّل. لكنَّني لم أطلب، ولم أتطلَّب، ولم أطالِب بأيِّ شي. فجئتِ أنت، أتعلمين؟ قبلكِ كنت أفكِّر: لا شيء كان سيِّئًا. لكن الآن ... لأنَّك تتفوَّهين دائمًا بمثل هذه الأشياء المجنونة، أقسم، لا أستطيع...

اتَّكأت على مرفقها ونهضت فجأةً بجدِّيَّة، ومالت نحوه:

ـ هل تصدِّقني؟

ـ نعم...، أجاب مُندهِشًا من عنفها.

ـ أنت تعلم أنَّني لا أكذب، وأنَّني لا أكذب أبدًا، حتَّى عندما... حتَّى دائمًا؟ هل تشعر بذلك؟ قل، قل! أمَّا الباقي فلا جِدال فيه، لا شيء يهمّ... عندما أقول هذه الأشياء... هذه الأشياء المجنونة، عندما لا أريد أن أعرف عن ماضيك ولا أريد أن أخبرك عنِّي، عندما أختلقُ الكلمات... عندما أكذب، هل تشعر أنَّني لا أكذب؟

ـ نعم، نعم...

كانت قد ارتمَت مرَّةً أخرى على السرير وعيناها مغمَّضتين ومتعبة. (لا يهمّ، لا يهمُّ إن لن يُصدِّقني لاحقًا، إن هرب منِّي مثلما فعل المعلِّم). ما زالت بقربه قادرةً على التَّفكير. «ما زال» هو وقتٌ أيضًا. فتحت عينيْها وابتسمت له. صبيّ، هذا ما هو عليه. (من الغالب أن كانت لديْه العديد من النساء، أحببنه للغاية، فهو جذَّاب، برموشه الطويلة، وعينيْه الباردتيْن. حتَّى الآن كان مُتماسِكًا، لقد حلَّلتُه قليلًا. تأمَل تلك المرأة أن أغادر يومًا ما. تأمَل أنَّه سيعود).

ـ ماذا كان يَفعل يوم الأحد في الساحة؟ الساحة واسعةٌ ومعزولة، قالت متمهِّلةً محاولةً أن تَتذكَّر وتلبِّيَ طلب الرجل. أجل... الكثير

من الشمس، ملتصقٌ في الأرض وكأنَّ الشمس ولِدَت من الأرض. البحر، بطن البحر، صامت، يلهث. الأسماك في الأحد، تحرَّك بسرعةٍ أذنابها وتمضي قِدمًا. سفينةٌ راسية. الأحد. البحَّارة يَتجوَّلون على طول الرصيف، عبر الساحة. فستانٌ ورديٌّ يظهر ويختفي في زاوية الشارع. تَتبلور الأشجار في يوم الأحد، الأحد يشبه أشجارَ عيد الميلاد، مُشرقةً صَامتة، تحبِس، هكذا، هكذا، أنفاسَها. رجلٌ يمرُّ مع امرأةٍ في ثوبٍ جديد. الرجل يريد ألَّا يكون أيَّ شيء، يَمشي بجانبها ينظر إليها وجهًا لوجهٍ تقريبًا، يسألها، يسألها: قولي، اطلبي، دوسي. لا تجيب، تبتسم، الأحد النقيّ. إنَّه الرضا. الرضا. الحزن الخالص من دون أذى. الحزن الذي يبدو أنَّه يأتي من خلف المرأة باللَّون الورديّ. حزن الأحد على الرصيف في الميناء، وكأنَّ البحَّارة قد أعيروا لليابسة. هذا الحزن الخفيف هو تحقيق العيش. بما أنَّ لا أحد يعرف كيفيَّة استخدام هذه المعرفة المفاجئة، يكون الحزن.

ـ هذه المرَّة كانت القصَّة مُختلفة، اشتكى بعد توقُّف.

ـ كلُّ ما في الأمر أنَّني حكيت فقط ما رأيته وليس ما أراه. لا أعرف كيف أكرِّر، أنا أعرف الأشياء مرَّةً واحدةً فقط، قالت له.

ـ كان الأمر مختلفًا، لكنَّ كلَّ ما ترينه رائع.

حول رقبته كان يرتدي سلسلةً قصيرةً تتدلَّى منها أيقونةٌ صغيرة: على أحد جانبيْها القدِّيسة تيريز، وعلى الجانب الآخر القدِّيس كريستوفر. كان عابِدًا لكليْهما:

ـ لا أعير القدِّيسين الاهتمام. فقط في بعض الأحيان.

أخبرَته أنَّ ذات مرَّة، في صغرها، كان بمقدورها قضاء فترة ما بعد الظهيرة بأكملها في الـ«لالاند» اللعب بكلمة. لذا طلب منها اختراع كلماتٍ جَديدة. كم كانت ترغب به في مثل تلك اللحظات.

ـ أخبريني مرَّةً أخرى، ما الـ «لالاند»؟ توسَّل لجوانا.

ـ يشبه دموع الملاك. هل تعرفُ دموع الملاك؟ نوعٌ من النرجس الصغير، أدنى نسيمٍ يجعله ينحني إلى جهةٍ أو أخرى. لالاند هو أيضًا البحر الليليّ، عندما لا يكون أحدٌ قد وضع عينيْه على الشاطئ بعد، عندما لا تشرِق الشمس. في كلِّ مرَّةٍ أقول: لالاند، عليك أن تشعر بنسيم البحر البارد والمالح، يجب أن تمشي على طول الشاطئ الذي لا يزال مُظلِمًا، ببطء، عاريًا. قريبًا، سوف تشعر بالالاند... صدِّقني، أنا من أكثر العالمين بالبحر.

لم يكن يعرف في بعض الأحيان ما إذا كان على قيد الحياة أو ميِّتًا، إذا كان يملك الكثير أو القليل. عندما تتكلَّم كانت تخترع بجنون، بجنون! كان يَمتلئ وكأنَّه فراغ، وكان عذابه هو وضوح المساحة الواسعة فوق المياه. لماذا كان دائمًا مَذهولًا في حضورها، في حالة ذهولٍ مثل جدارٍ أبيض في ضوء القمر؟ أو كأنَّه سيستيقظ فجأةً ويصرخ: من هذه المرأة؟ إنَّها أكثر من اللَّازم في حياتي! لا أستطيع... أريد أن أعود... لكنَّه لم يستطع أكثر من ذلك، يشعر فجأةً بالخوف والضياع.

ـ حبيبي، قالت قاطعةً أفكار الرجل.

ـ نعم، نعم...، دفن وجهه في ذلك الكتف الناعم وشعرت أنَّ تنفُّسه كان ينتقل عبرها ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا. كانا كائنيْن حَيَّيْن.

هل ثمَّة ما هو أهمُّ من ذلك؟ فكَّرت. تحرَّك، ووضع رأسه على جسدها مثل... مثل طفيليّ، حيوانٍ أوليٍّ يبحث بهوسٍ عن النواة، المركز الحيّ. أو مثل طفل. في الخارج ينزلق العالم، والنهار، والنهار، ثمَّ اللَّيل، ثمَّ النهار. في وقتٍ ما كان عليها المغادرة، الانفصال مرَّةً أخرى. وكذلك هو. عنها؟ نعم، سرعان ما ستصبح ثقيلةً جدًّا عليه من كثرة المعجزة. مثل أيِّ شخصٍ آخر، يخجلُ من نفسه لسببٍ غير مَفهوم، فيتوقُ إلى المغادرة. لكنَّ الثأر: أنَّه لن يتحرَّر كلِّيًّا. سينتهي به الأمر في رهبةٍ من نفسه، مُلتزِمًا بنفسه، مَسكونًا بمسؤوليَّةٍ مؤلمةٍ غير مُحدَّدة. ابتسمَت جوانا. سينتهي به الأمر إلى كرهها، كما لو كانت تطلبُ شيئًا منه. مثل عمَّتها وعمِّها اللذَين احترماها، مُستشعرَين أنَّها لا تحبُّ مَلذَّاتهما. في حيرةٍ من أمرهما افترضا أنَّها متفوِّقةٌ واحتقراها. يا إلهي، كانت تتذكَّر مرَّةً أخرى، تحكي لنفسها قصَّتها، تبرِّر نفسها ... يمكنها أن تسأل الرجل عن الحقائق: هل هذا ما أنا عليه؟ لكن ماذا كان يعرف؟ كان يدفنُ رأسه في كتفها، مُختبئًا، ربَّما سعيدًا في تلك اللَّحظة. هل أهزُّه، أخبِرُه؛ يا رجل، هذا ما كانت عليه جوانا، يا رجل. ومع ذلك، أصبحت امرأةً وشاخت. كانت تعتقد أنَّها عظيمةٌ وتشعر بالتعاسة. قويَّةٌ جدًّا إلى درجة أنَّها توهَّمت أنَّها اختارت مَساراتها قبل خوضها- وفقط في التفكير. تعيسةٌ إلى درجة أنَّها، عندما حكمت على نفسها بأنَّها قويَّة، لم تكن تعرف ماذا تفعل بقوَّتها ورأت نفسها كلَّ دقيقةٍ ضائعة - لأنَّها لم ترشدها نحو هدفٍ ما. هكذا نمت جوانا، أيُّها الرجل، نحيلةً كشجرة صنوبر، شجاعةً جدًّا أيضًا. تطوَّرت شجاعتها في غرفة النوم وتحت ضوءٍ من عوالم متوهِّجةٍ تشكَّلت من دون خوفٍ ولا تواضع. لقد تعلَّمت التَّفكير في سنٍّ مبكرةٍ ولأنَّها لم ترَ أيَّ إنسانٍ عن قربٍ سوى نفسها، فذُهلت، وعانت، وعاشَت

في كبرياء مُؤلمة، خفيفةٍ أحيانًا، وصعبة الحمل غالبًا. كيف تُنهي قصَّة جوانا؟ لو كان بوسعها التراجع، لأضافت نظرةَ ليديا تلك التي أبهرتها: لن يحبَّكِ أحد... أجل، انتهى الأمر على هذا النحو: على الرَّغم من أنَّها كانت واحدةً من تلك المخلوقات التي تتأرجح وحدها في العالم، لم يفكِّر أحدٌ في إعطاء جوانا أيَّ شيء. الحبّ، لا؛ كانوا يعطونها دائمًا بعض المشاعر الأخرى. عاشت حياتها، مُتعطِّشةً كعذراء، وستظلُّ كذلك حتَّى القبر. سألَت نفسها العديد من الأسئلة، لكنَّها لم تحر لها جوابا: كانت تتوقَّف من أجل الاستشعار. كيف ولد المثلَّث؟ كفكرة أوَّلًا؟ أم أنَّه جاء بعد تنفيذ الشَّكل؟ هل كان للمثلَّث أن يولد بأيِّ حال؟ كانت الأمور غنِّيَّة. كانت تريد قضاء بعض الوقت في التساؤل. لكنَّ الحبَّ غزاها. مثلَّث، دائرة، خطوطٌ مَستقيمة... متناغمةٌ وغامضةٌ مثل نغمةٍ سريعة. أين تَذهب الموسيقى عندما لا تُعزَف؟ تتساءل. تستسلم فتجيب: فليصنعوا قيثارةً من أعصابي عندما أموت.

انتهاء بصيرة جوانا ينتهي مُختلطًا بالسفينة الملتوية على الأمواج، تتحرَّك؟ تتحرَّك. كلُّ ما كان ينبغي أن تفعله هو هزُّ رأسها حتَّى ترافقها الأمواج. لكن كانت لديْها أشياء، آه وكم كانت كثيرة: زوج، ثدي، حَبيب، منزل، كتب، شَعْر قصير، عمَّة، معلِّم. يا عمَّتي، اسمعيني، لقد تعرَّفتُ على جوانا، التي أحدِّثك عنها الآن. كانت امرأةً ضعيفةً فيما يتعلَّق بالأشياء. كلُّ شيءٍ كان يبدو لها في بعض الأحيان ثمينًا للغاية، مُستحيل اللَّمس. وفي بعض الأحيان، ما يستخدمه الناس كهواءٍ للتنفُّس، كان ثقيلًا ومميتًا بالنِّسبة إليها. حاولي أن تفهمي بطلتي، يا عمَّتي، اسمعي. إنَّها غامضةٌ وجريئة. إنَّها لا تحبّ، وليست محبوبة.

سينتهي بك الأمر إلى مُلاحظة ذلك مثلما فعلت ليديا، امرأةٌ أخرى (امرأةٌ شابَّةٌ مليئةٌ بمصيرها). لكن ما لدى جوانا بداخلها هو شيءٌ أقوى من الحبِّ الذي يعطيه الناس، وما لديْها بداخلها يتطلَّب أكثر من الحبِّ الذي يتلقَّاه الناس. هل تفهمين، يا عمَّتي؟ لن أسمِّيها بطلة، كما وعدت أبي. لأنَّه كان هناك خوفٌ كبيرٌ فيها. خوفٌ يسبق أيَّ حكمٍ أو فهم. خطرَ ببالي هذا للتوّ: ربَّما، ربَّما يأتي الإيمان بالبقاء في المستقبل عندما ندرك أنَّ الحياة تتركنا دائمًا من دون مساس. هل تفهمين، يا عمَّتي؟ أنسى انقطاع الحياة المستقبليَّة ـ هل تفهمين؟ أرى عينيْك مفتوحتيْن، تنظران إليَّ بخوفٍ، بشكّ، ومع ذلك، أريد، بأنوثتكِ كسيِّدةٍ عجوز، ميِّتةٍ الآن، صحيح، ميِّتةٍ الآن، أن تحبّيني، متجاهلةً سُخريتي. أيَّتها المسكينة، يمكن تلخيص أكبر سخطٍ شعرت به فيك، إلى جانب ما سبَّبته، في تلك الجملة اليوميَّة التي ما زلت أسمعها، ممزوجةً برائحتك التي لا يمكنني نسيانها: «آه، لا يمكنك الخروج في هذه الملابس التي ترتديها!». ماذا يمكنني أن أقول لك؟ شعري قصير، كستنائيُّ اللَّون، وأحيانًا أصفِّفه مع غرَّة. سأموت يومًا ما. لقد وُلِدت أيضًا. كانت هناك غرفةٌ للاثنيْن. كانت جميلة، كانت تدور بعض الشيء. وكان يقترب منديلٌ يصير شفَّافًا ويقترب.. كان الثلاثة يُشكِّلون زوجًا ومَن تُخبر بذلك؟ كانت قادرةً على النوم لأنَّ الرجل لا ينام أبدًا، يظلُّ ساهرًا كالمطر المتساقِط. كان أوتافيو وسيمًا أيضًا، عيناه! كان هذا الرجل طفلًا طُفيليًّا، زهورًا بيضاء ودفئًا، مثل النوم في الوقت الحاليّ، فهو الوقت المناسب الآن، هي الحياة، حتَّى لو كانت في وقتٍ لاحق... كلُّ شيءٍ مثلُ الأرض، طفل، ليديا طفلة، أوتافيو أرضٌ من الأعماق...

الأفعى

...أنَّني تغلَّبت بهدوءٍ على شيءٍ ما ...

كان أوتافيو يقرأ بينما كانت الساعة تدقُّ الثواني وتمزِّق صمت الليل بـ 11 دقَّة.

أنَّني تغلَّبت بهدوءٍ على شيءٍ ما... هذا هو الانطباع. تأتي هذه الخفَّة لا أدري من أين. تتدلَّى الستائر على خصورها بتراخ. والبقعة السوداء أيضًا، غير المتحرِّكة، عينان تحدِّقان، غير قادرتين على قول أيِّ شيءٍ. يحطُّ الله في شجرةٍ تُزقزق وخطوطٍ مستقيمةٍ تسير غير مُكتمِلة، أفقيَّةٍ وباردة. هذا هو الانطباع... تستمرُّ اللحظات في التنقيط، وما إن تنهار واحدةٌ حتَّى ترتفع أخرى، إلى حدٍّ ما، وجهها شاحبٌ وصغير. فجأةً تنتهي اللحظات أيضًا. يتدفَّق اللَّاوقت فوق جدراني، مُتعرِّجًا، أعمى. يَتجمَّع ببطءٍ في بركةٍ مظلمةٍ وهادئةٍ وأصرخ: لقد عشت!

أسكتَ الليل الأشياءَ في الخارج، وكان الضفدع ينعقُ بين الحين والآخر. وكانت كلُّ شجيرةٍ ظلًّا ساكنًا منطويًا.

في البعيد، أضواءٌ حمراء صغيرةٌ تتلألأ، ترتجف، عيونٌ ساهرة. في الظلام مثل الماء.

أضاء عبَّاد الشمس الطويل الرَّقيق الحديقة على فتراتٍ متقطِّعة.

ماذا تفكِّر في تلك اللحظة؟ كانت نقيَّةً حرَّةً إلى درجة أنَّها تستطيع الاختيار ولم تكن تعرف ذلك. كانت ترى شيئًا ما، لكنَّها لم تكن قادرةً على قوله أو التَّفكير فيه على الإطلاق، لانحلال الصورة في ظلام جسدها. لقد شعرت به للتوِّ ونظرت بترقُّبٍ من خلال النافذة كما لو كانت تنظر إلى وجهها في العتمة. هل كان هذا أقصى ما ستحقِّقه؟ يقترب، يقترب، تشعر خلفها بموجةٍ تمتصُّها في انحسارٍ قويٍّ ناعم، تشربها، تاركةً لها بعد ذلك ذاكرة هلوسةٍ غير ملموسةٍ أو مفهومة.... حتَّى في تلك اللحظة، مدركةً الليل وأفكارها غير الواضحة، ظلَّت منفصلةً عنها، دائمًا ككتلةٍ صغيرةٍ مُغلقة، تراقب، تشاهد. الضوء الصغير يتلألأ بصمتٍ، وحيد، غير مهزوم. لا يستسلم.

نظرت حولها، غرفة الجلوس تلهث قليلًا، بإضاءةٍ ضعيفةٍ كما لو كانت في حالة إغماء. رفعَت رأسها قليلًا، وفحصت المساحة وكانت على درايةٍ ببقيَّة المنزل الذي ضاع في الظلام، والأشياء الخطيرة والغامضة التي تطفو عبر الزوايا. كان عليها أن تتحسَّس طريقها بمجرَّد دخولها من الباب. وخاصَّةً إذا كانت طفلة، في منزل عمَّتها، تستيقظ في الليل فمها جافّ، تبحث عن الماء. مع العلم أنَّ كلَّ شخصٍ كان معزولًا داخل نومه السرِّيِّ الذي لا يُمكن اختراقه. خاصَّةً إذا كانت تلك الطفلة ومثل تلك اللَّيلة أو تلك اللَّيالي، عندما عبرت المطبخ، فصادفَت ضوء القمر بلا حراكٍ في الفناء وكأنَّه في المقبرة، الهواء حرٌّ ومتردِّد...

خاصَّةً إذا اصطدمت الطفلة الخائفة، بأشياءٍ غير دقيقةٍ في الظلام ومع كلِّ لمسةٍ تَتكثَّف فجأةً في الكراسي والطاولات، في الحواجز، بعيونٍ مفتوحةٍ وباردةٍ وعنيدةٍ ولذا مسجونةٍ أيضًا. بعد الضربة، الوجع، فيكشف ضوء القمر الشرفة الأسمنتيَّة، والعطش يرتفع في جسدها مثل الذكرى. المنزل في هدوءٍ عميق، أسطحُ المنازل المجاورة بلا حراك، مُختنقة...

مرَّةً أخرى، حاولت جوانا العودة إلى غرفة الجلوس، إلى حضرة أوتافيو. كانت منفصلةً عن الأشياء، عن أشيائها الخاصَّة، التي خلقتها بنفسها وكانت حيَّة. يمكن أن تُترك في الصحراء، في عزلة الأنهار الجليديَّة، في أيِّ مكانٍ على الأرض، وستظلُّ لديْها اليدان البيضاوين الساقطتين نفسهما، والانفصال الهادئ نفسه تقريبًا. أن تأخذ بعض الملابس وتغادر ببطء. الذهاب، لا الهرب. هذا كلُّ شيء، حلوٌ جدًّا: لا الهرب، الذهاب فحسب... أو الصراخ بصوتٍ عالٍ، عالٍ، مستقيمٍ ولانهائيّ، بعينيْن مغلقتيْن وهادئتيْن. المشي حتَّى الوصول إلى الأضواء الحمراء الصغيرة، المرتجفة كما لو كانت في البداية أو النهاية. هل كانت تموت أيضًا أم تُولد؟ لا، لا للذهاب: البقاء مقيَّدةً باللحظة تمامًا كنظرةٍ مندهشة، متشبِّثةٍ بالفراغ، هادئة، ثابتةٍ في الهواء...

قعقعةُ عربة ترام بعيدةٍ عبرتها كما في نفق. قطارٌ ليليٌّ في نفق. الوداع. لا، أولئك الذين يسافرون ليلًا ينظرون فقط من خلال النافذة ولا يقولون وداعًا. لا أحد يَعرف مكان الأكواخ، والأجساد القذرة مظلمةٌ ولا تتطلَّب الضوء.

ـ أوتافيو، قالت لأنَّها تاهت.

صوتُ جوانا خربش الغرفة، خفيفًا، مباشرةً من دون تعبير. رفع أوتافيو عينيْه:

ـ ماذا؟ سأل. وكان صوته مَليئًا بالدم واللحم، فقد جمع الغرفة في الغرفة، والأشياء المخصَّصة والمحدَّدة. نسمةٌ من الهواء تؤجِّج النيران. كان الحشد قد دخل الساحة الخالية.

تَململت لبرهة، اهتزَّت، استيقظت. أشرق كلُّ شيءٍ مرَّةً أخرى في ضوء المصباح، هادئًا ومبهجًا كما لو كان في البيت. في أعماق جسدها المعتَّم، مرَّ الانتظار غير المجدي ماشيًا في نومه، مثل طيرٍ في اللَّيل.

ـ أوتافيو، كرَّرت.

كان ينتظر. وعندما أدركت أنَّها في الغرفة في حضور الرجل ونفسها، نمت فيها ألسنة اللَّهب، أيقنَت أنَّها يجب أن تمضي على نحوٍ منطقيّ، وأنَّ الرجل كان ينتظر منها الاستمرار. بحثَت عن إنذار، عن طلب، أو عن كلمةٍ صحيحة:

ـ لديَّ انطباعٌ أنَّك أتيت فقط لتهبَني طفلًا، قالت. والآن فقط أتيحت لها الفرصة للوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسها لليديا. حتَّى الاستمرار في الرَّغبة بالطفل يعني الارتباط بالمستقبل.

حدَّق أوتافيو في وجهها للحظةٍ بفظاظة، مذعورًا.

ـ لكن، تمتم بعد فترةٍ وكان صوته مُتردِّدًا وخجولًا وأجشًّا ـ لكن ألا تعتقدين أنَّ كلَّ شيءٍ بيننا على وشك الانتهاء؟ ومنذ البداية تقريبًا... ، غامر بالقول.

ـ سينتهي الأمر فقط عندما أنجبُ طفلًا، كرَّرت غامضةً وعنيدة.

فتح أوتافيو عينيْه عليها، بدا وجهه شاحبًا ومتعبًا فجأةً تحت مصباح المكتب، حيث كان كتابه مفتوحًا.

ـ إنَّها لفكرةٌ مفتعلةٌ قليلًا، ألا تعتقدين ذلك؟ سأل بسخريَّة.

لم تنتبه لقوله:

ـ ما كان بيننا لا يكفي في حدِّ ذاته. إذ إنَّني لم أهبك كلَّ شيءٍ بعد، قد ترتبط فيَّ يومًا ما أو قد أفتقدك. بينما بعد الطفل لن يتبقَّى لنا سوى الانفصال.

ـ وماذا عن الطفل؟ سأل. ماذا سيكون دور المسكين في هذا الترتيب الحكيم كلِّه؟

ـ آه، سوف يعيش، أجابت.

ـ هل هذا كلُّ شيء؟ قال محاولًا السخريَّة.

ـ ماذا يمكنك أن تفعل غير ذلك؟ أطلقت السؤال في الهواء، بخفَّة، من دون انتظار الردّ.

قال أوتافيو مُتردِّدًا، ظانًّا أنَّها كانت تنتظر ردًّا على الرَّغم من خجله وغضبه من إطاعته لها:

ـ أن أكون سعيدًا، على سبيل المثال.

رفعت جوانا عينيْها ونظرَت إليه من بعيدٍ بدهشةٍ وشيءٍ من الفرح ـ لماذا؟ تساءل أوتافيو خائفًا. احمرَّ خجلًا كما لو أنَّه تفوَّه بنكتةٍ سخيفة. رأته ساخطًا ومُنكمِشًا في مقعده، مستاءً مَسحوقًا كما لو أنَّ شخصًا ما

بصقَ في وجهه. مالت نحوه بسكونٍ مليئةً بالشفقة وبأكثر من الشفقة ـ زمَّت شفتيْها، مُرتبكة. حبٌّ مليءٌ بالدموع. أغمضت عينيْها للحظة، تحاول ألَّا تراه، وألَّا تشعر برغبةٍ نحوه بعد الآن. ما زال إمكانها الترابط مع أوتافيو، من دون عِلمٍ منه. ربَّما كان كلُّ ما يتطلَّبه الأمر هو التحدُّث معه عن مخاوفها الخاصَّة، على سبيل المثال، أن تلخِّص بالكلمات ذلك الشعور بالخجل والخفر عندما نادت النادل بصوتٍ عال، كلُّهم انتبهوا إلَّا هو. ضحكت. يودُّ أوتافيو أن يعرف ذلك. يمكنها أيضًا الارتباط به من خلال إخباره عن رغبتها في الفرار كلَّما وجدت نفسها حول أناسٍ مُبتهجين، ولم تكن تعرف كيف تضع نفسها بينهم وتثبت وجودها. أو ربَّما كانت مخطئةً فلن يُقرِّب الاعتراف بينهما. تمامًا كما كانت في صغرها، اعتادَت تَخيُّل أنَّه إذا كان بإمكانها إخبار شخصٍ ما بـ «سرِّ القاموس»، فستظلُّ مرتبطةً به إلى الأبد... كالتالي: بعد حرف اللَّام، كان من غير المجدي البحث عن الياء... حتَّى اللَّام، كانت الحروف أليفة، مُتناثرةً مثل الفاصوليا فوق طاولة المطبخ. ولكن بعد اللَّام كانت تستعجل بجدِّيَّة، مكبوسةً إلى درجة أنَّه لا يمكنك أبدًا العثور بينها على حرفٍ سهلٍ مثلًا كالألف. ابتسمت، وفتحت عينيْها ببطء. والآن هادئة، ضعيفة، تمكَّنت من رؤيته من دون عاطفة.

ـ أنت تعرف جيِّدًا أنَّ الأمر لا يتعلَّق بذلك. آه، يا أوتافيو، يا أوتافيو... تمتمَت بعد لحظة، وعادت ألسنةُ اللهب فجأة، ما الذي يحدث لنا بالضبط، ماذا يحدث لنا؟

كان صوت أوتافيو قاسيًا وسريعًا عندما أجاب:

ـ لقد تركتني دائمًا بمفردي.

لا... قالت مذهولة، الأمر أنَّ كلَّ ما لديَّ لا يُمكن إعطاؤه. ولا أخذه. حتَّى أنا، يمكنني الموت من العطش في حضور نفسي. العزلة ممزوجةٌ بجوهري...

لا ـ كرَّر، بعناد، شاحبَ العينيْن ـ لقد تركتني دائمًا بمفردي لأنَّك أردتِ ذلك، لأنَّك أردتِ ذلك.

صرخَت جوانا: الذنب ليس ذنبي، صدِّقني... إنَّه محفورٌ في داخلي أنَّ العزلة تأتي من حقيقة أنَّ كلَّ جسدٍ له نهايته الخاصَّة متعذِّرة الإصلاح، ومحفورٌ في داخلي أنَّ الحبَّ ينضبُ عند الموت... لقد كان وجودي دائمًا هذه العلامة...

قال ساخرًا: لقد انجذبتُ إليك أوَّلًا، مُعتقِدًا أنَّك ستُعلِّميننني أكثر من ذلك. كنتُ في حاجةٍ، وأكمل بصوتٍ خفيض، إلى ما شعرتُ به فيكِ والذي أنكرته دائمًا.

قالت بهشاشةٍ: لا، لا ...، صدِّقني، يا أوتافيو، إنَّ أصدق الأشياء التي أعرفها قد مرَّت عبر بشرتي، وصلتني على نحوٍ غادِرٍ تقريبًا... كلُّ ما أعرفه لم أتعلَّمه أبدًا ولم أستطع أبدًا تعليمه لأحد.

صمتا للحظة. في لمح البصر، رأت جوانا نفسها جالسةً بجانب والدها، شعرُها معقوصٌ بشريطة، في غرفة انتظار. شعر والدها مشعَّث، ومتَّسخٌ قليلًا، تفوح منه رائحة العرق، ومزاجه مبتهج. كانت تظنُّ أنَّ الشريطة أعلى من كلِّ شيء، ولأنَّها كانت تلعب بقدميْها في التراب، وسرعان ما لبست حذاءها من دون غسلهما، فقد شعرَت بحبَّات التراب تثور بين أصابعها. كيف يمكن لوالدها أن يكون غير مُبال،

وكيف لم يلاحظ أنَّهما الأكثر بؤسًا، وأنَّ أحدًا لم ينظر إليهما؟ لكنَّها أرادت أن تثبِت للجميع أنَّها ستبقى هكذا، وأنَّ الوالد والدها، وأنَّها ستحميه، وأنَّها لن تغسل قدميْها أبدًا. رأت نفسها جالسةً بجانب والدها ولم تعرف ما حدث قبل لحظةٍ من المشهد أو بعده بلحظة. مجرَّد ظلٍّ انسحبت إليه وهي تسمع موسيقى الارتباك تتمتمُ في أعماقها، غير ملموسة، عمياء.

وتابع أوتافيو، قائلًا: مع ذلك، وكما قلتِ أنتِ نفسك: هناك لحظةٌ معيَّنةٌ داخل فرح القوَّة التي تتغلَّب على الخوف من الموت. شخصان يعيشان معًا، تابع بصوتٍ خفيض، ربَّما يَسعيان للوصول إلى هذه اللحظة. أنتِ لم ترغبي بذلك.

لم تُجِب. وعندما لا تجيبه، يشعر بالفزع، مُتذكِّرًا طفولته، حيث كان الناس غاضبين وكان عليه أن يَعِدهم، ليرضيهم مُتأسِّفًا. تذكَّر شعورًا قديمًا بالذنب تجاه جوانا وسعى إلى تخليص نفسه منه على الفور، خشية أن يُثقِل كاهله مرَّةً أخرى. وعلى الرَّغم من أنَّه كان يعلمُ أنَّه سيقول شيئًا في غير مكانه، إلَّا أنَّه لم يستطِع مُساعدة نفسه، فنطق:

ـ أنتِ على حقّ، يا جوانا: كلُّ ما يأتي إلينا هو مادَّةٌ خامّ، لكن لا شيء يتفلَّت من التجلّي. باشر وقد انتشر الخجل على الفور على وجهه أمام حاجبي جوانا المرتفعيْن. أجبر نفسه على الاستمرار. ألا تتذكَّرين أنَّك قلتِ لي ذات مرَّة: «ألمُ اليوم سيكون فرحك غدًا. لا شيءَ يتفلَّت من التجلّي. ألا تتذكَّرين؟ ربَّما لم تكن هذه الكلمات بالضبط...».

ـ نعم، أذكر.

ـ حسنًا... في ذلك الوقت لم أكن أعتقد أنَّ كلماتك كانت بسيطة. أظنُّ أنَّني غضبتُ..

قالت جوانا: أعرف. وقتها أخبرتني أنَّه إذا كان لديْكِ ألمٌ في كبدك، فسأتي لأعلنَ عند قدميْك الروعة العبثيَّة نفسها.

ـ أجل، أجل، كان هذا كلُّ شيء، قال أوتافيو بسرعة، خائفًا. ولكنَّك لم تَهتمِّي على الإطلاق، أعتقِد. لكن... انظري، لا أعتقد أنَّني أخبرتك: في وقتٍ لاحقٍ فهمت أنَّه لا توجد ثروةٌ زائدةٌ فيما قلتِه... لا أعتقد أنَّني اعترفت لك بذلك، أم فعلت؟ انظري، إنَّني أفترض في الواقع أنَّ هذه الجملة هي الحقيقة. لا شيء يتفلَّت من التجلِّي... احمرَّ خجلًا. ربَّما هذا هو السرّ، ربَّما هذا ما شعرت به فيك... ثمَّ حضورٌ يسمح بالتجلِّي.

ولأنَّها ظلَّت صامتة، دفع نفسه مرَّةً أخرى.

«أنتِ تعِدين بالكثير... بكلِّ الاحتمالات التي تقدِّمينها للناس داخل أنفسهم، بنظرة... لا أدري».

ومثلما لم تتصرَّف بغرورٍ أو تقليلٍ من شأنها عندما مزح في المرَّة الأولى بصدد العظمة عديمة الفائدة، فهي الآن لم تسعَد بتواضع أوتافيو. نظر إليها. مرَّةً أخرى لم يكن يعرف كيف يتعاطى مع تلك المرأة. مرَّةً أخرى انتصرت.

ساد الصَّمت في الغرفة واستقرَّ الضوء والفراغ على المفاتيح البيضاء للبيانو المفتوح. لقد مات شيء، بطيءٌ وحقيقيّ. لعلَّه من غير المجدي إعادة ربط فرحة العيش بتلك اللحظة.

ـ ماذا بعد ذلك؟ تمتم أوتافيو، وهذه المرَّة مُستسلمًا لقاع الأشياء، وقد جُرَّ إلى حقيقة جوانا.

ـ لا أعرف.

درسها أوتافيو. ما الذي كانت تفكِّر فيه، وكان بعيدًا جدًّا؟ بدت وكأنَّها تحوم وسط شيءٍ مُتحرِّك، جسدها عائم، غير مدعوم، غير موجودٍ تقريبًا. كتلك المرَّة عندما تحدَّثت عن أحداثٍ ماضيةٍ وكان يشعر بأنَّها كانت تكذب. هامَ رأس جوانا بخفَّة، مالت جبهتها بهدوء، رفعتها، تلعثمت، كانت هناك نواةٌ صلبةٌ وذكيَّةٌ في البدء، ولكن سرعان ما صار كلُّ شيءٍ سائلًا وبريئًا. كان الإلهام يوجِّه تحرُّكاتها. ونَسِيَ أوتافيو نفسه وهو يُحدِّق فيها. أوجعَ العذاب قلبه، لأنَّه لو أراد أن يلمسها فلن يتمكَّن من ذلك، كانت هناك دائرةٌ حول ذلك المخلوق، تعزله، لا يمكن تجاوزها ولا التغلُّب عليها. استحوذت عليه المرارة آنذاك لأنَّه لم يشعر بها كامرأةٍ وأصبحت طبيعته الرجوليَّة عديمة الفائدة ولا يمكن أن يكون أيَّ شيءٍ آخر سوى رجل. في حديقة ابنة العمِّ إيزابيل، نمت مرَّةً ورودٌ بيضاء. كان ينظر إليها في كثيرٍ من الأحيان في حيرة، ولا يعرف كيف يمتلكها، في حضورها، كانت قوَّته الوحيدة، قوَّة المخلوق الحيّ، عديمة الفائدة. كان يدسُّ وجهه وشفتيْه فيها ويستنشقها. وكانت لا تتوقَّف عن الارتعاش بنعومةٍ بَليلة. ليت بتلاتها سَميكة، كان يفكِّر ـ ليتها صلبة... لسقطت على الأرض وتحطَّمت مُصدرةً صوتًا جافًّا.... يشعر أنَّ جاذبيَّة الزهور المتزايدة تغزوه، مثل جوانا، مثل جوانا عندما كانت تكذب، فيصير فريسةً لغضبٍ عاجز: يسحقُ الورود، يمضغها، يدمِّرها.

ناظرًا إليها الآن، غير قادرٍ على تعريف هذا الوجه، أراد إعادة تشكيل ذلك الشعور القديم، والعودة إلى حديقة ابنة العمّ إيزابيل.

ولكن بدلًا من أيِّ تفكيرٍ آخر، فَهِم فجأةً أنَّ جوانا ستغادر. أجل، وهو سيستمرّ، كانت هناك ليديا، الطفل، نفسه. كانت ستغادر، كان يعرف ذلك... لا يهتمُّ فهو لا يحتاج إلى جوانا. لا، ليس «لا يحتاج»، ولكن «لا يستطيع». وفجأةً، لم يستطع حقًّا أن يفهم كيف عاش بجانبها لفترةٍ طويلةٍ وبدا له أنَّ بعد رحيلها، سيتعيَّن عليه ببساطةٍ ربط الحاضر بذلك الماضي البعيد، بمنزل ابنة العمّ إيزابيل، بليديا، الخطيبة، بتخطيطه لكتابٍ جادّ، بتعذيبه الدافئ والحلو والبغيض مثل الإدمان، بذلك الماضي الذي قطعته جوانا. سيكون من الجيّد التخلُّص منها، التجهيز لكتابٍ عن القانون المدنيّ. بدأ يشعر فعلًا بأنَّه قادرٌ على التجوُّل بين أغراضه بحميميَّة.

لكنَّه رأى أيضًا نفسه، بوضوحٍ غريبٍ ومُباغِت، في فترة ما بعد الظهر ربَّما، يشعر بألمٍ حادٍّ في صدره، تضيقُ عيناه، مُدركًا خواء يديْه من دون النظر إليهما. الشعور الذي لا يُمكن تحديده بالخسارة عندما ستتركه جوانا... سوف تبرز فيه، ليس في فكره مثل ذاكرةٍ عاديَّة، ولكن وسط جسده، غامضةً وواضحة، تقاطع حياته مثل القرع المفاجئ لجرس. سيعاني كما لو كانت تقول أكاذيب مجنونة، وكأنَّه لا يستطيع طرد الهلوسة واستنشاقها أكثر فأكثر مثل الهواء الذي يمكن أن يتحوَّل داخل الجسم إلى ماء. سيشعر بالمساحة المفتوحة والواضحة في قلبه، والتي لم تتمكَّن بذور جوانا من تغطيتها بغابة، لأنَّها كانت غير ممتلكةٍ مثل الفكر المستقبليّ. ومع ذلك، كانت له، أجل، بعمق، منتشرةً مثل أغنيةٍ سُمِعت ذات مرَّة. أنتِ لي، لي، لا تغادري! يتوسَّل من أعماق كيانه.

لكنَّه لم ينطق بمثل هذه الكلمات لأنَّه يريدها أن تغادر، ولا يعلم ماذا يفعل بجوانا إذا بقيت. كان سيعود إلى ليديا، الحامل والرحبة. أدرك ببطءٍ أنَّه اختار التخلِّي عن أثمن شيءٍ في كيانه، ذلك الجزء الصغير من المعاناة الذي كان يمكنه أن يَحيا مع جوانا. وبعد لحظةٍ من الألم، كما لو كان يتخلَّى عن نفسه، وعيناه تلمعان بالتعب، شعر بالعجز عن الرَّغبة في شيءٍ آخر للمستقبل. في حيرةٍ من أمره، شاهد أخيرًا تَطهيره العنيف والغريب، كما لو كان يدخل ببطءٍ إلى عالمٍ غير عضويّ.

ـ هل ترغبين حقًّا بطفل؟ سألها، لأنَّه، خوفًا من العزلة التي تتقدَّم نحوه، أراد فجأةً الارتباط بالحياة، الاتِّكاء إلى جوانا حتَّى يتمكَّن من الاعتماد على ليديا، مثل شخصٍ من أجل عُبور الهاوية يتمسَّكُ بالصخور الصغيرة كي يتمكَّن من تسلُّق الصخور الأكبر.

ـ نحن لن نعرف كيف نجعله يعيش...، جاء صوت جوانا.

ـ أجل، أنتِ على حقّ...، قال خائفًا. وكان يتوق بعنفٍ إلى وجود ليديا. للعودة، أن يعود، أن يعود إليها إلى الأبد. وأدرك أنَّ هذه ستكون ليلته الأخيرة مع جوانا، الأخيرة، الأخيرة...

ـ لا... ربَّما أنا على حقّ، تابعت جوانا. ربَّما لا ينبغي التَّفكير في هذه الأمور قبل إنجاب طفل. يكفي تشغيل ضوءٍ قويّ، فيصبح كلُّ شيءٍ مُشرِقًا وآمنًا، مثل احتساء الشاي بعد ظهر كلِّ يوم، التطريز، وقبل كلِّ شيءٍ تأمين ضوءٍ أكثر إشراقًا من هذا. فيعيش الطفل. هذه هي الحقيقة... لدرجة أنَّك لم تخف على حياة طفل ليديا...

لم تتحرَّك عضلةٌ في وجه أوتافيو، ولم ترمش عيناه. لكنَّه تكثَّف بأكمله وأشرق شحوبه مثل شمعةٍ مُضاءة. واصلت جوانا حديثها ببطء، لكنَّه لم يسمعها لأنَّه شيئًا فشيئًا، ومن دون تفكيرٍ تقريبًا، تصاعد الغضب من قلبه الثقيل، وصمَّ أذنيه، وغيَّم عينيْه. ماذا...؟ يتعارك الغضب فيه، مذهلًا لاهثًا، (إذن هي تعلم عن ليديا، عن الطفل...، كانت تَعلم ولم تقل أيَّ شيء... كانت تخدعني... ـ كان الحِمْل الخانق يَثقُل أعمق وأعمق بداخله. تقبَّلت عيبي بهدوء... استمرَّت في النوم بجانبي، وتحمَّلتني... مذ متى؟ لماذا؟ لكن يا إلهي لماذا؟!...).

ـ شائنة.

مذهولة، رفعت جوانا رأسها بسرعة.

ـ حقير.

حلقُهُ المتورِّم بالكاد يمكن أن يحتوي صوته، والأوردة في رقبته وجبهته تنبض سميكة، متشابكة، في انتصار.

ـ هي عمَّتكِ من وصفتكِ بالأفعى. أفعى، أجل. أفعى! أفعى!

صرخَ بهستيريَّةٍ خارج نطاق السيطرة. أفعى. ما إن تحرَّر كلُّ صراخٍ من مَصدره المتشنِّج حتَّى اهتزَّ في الهواء مُبتهجًا تقريبًا. راقبته يضرب بقبضتيْه على المكتب بسخط، يبكي مُغتاظًا. كم سيدوم ذلك؟ لأنَّ جوانا كانت تُدرك، كما لو كانت موسيقى بعيدة، أنَّ كلَّ شيءٍ سيستمرُّ في الوجود وأنَّ الصرخات لم تكن سِهامًا معزولة، بل مندمجةٌ مع ما هو موجود. حتَّى استنفد فجأةً قواه وفرغ فجلس على كرسيٍّ ببطء. وجهُ رخو، عينان ميِّتتان، وأخذ يُحدِّق في نقطةٍ ثابتةٍ على الأرض.

غرق الاثنان في صمتٍ انفراديٍّ وهادئ. ربَّما مرَّت سنوات. كان كلُّ شيءٍ ضعيفًا مثل نجمٍ أبديٍّ وهما يحومان بهدوءٍ شديدٍ إلى درجة أنَّهما تمكَّنا من الشعور بالوقت المستقبليّ يتدحرج بوضوحٍ داخل جسديْهما بسمك الماضي الطويل الذي عاشاه لحظةً بلحظة.

إلى أن بدأ ضوء الفجر بإذابة الليل. في الحديقة، تحوَّل الظلام إلى حجابٍ ينحلّ، وارتجف عبَّاد الشمس من النسيم الذي بدأ بالهبوب. بَيْد أنَّ الأضواء الصغيرة ظلَّت تتلألأ في البعيد مثل البحر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رحيلُ الرجال

في اليوم التالي، تلقَّت رسالةَ وداعٍ من الرجل:

«لقد اضطررتُ للابتعاد لفترةٍ من الوقت، كان عليَّ أن أذهب، جاؤوا لأخذي بعيدًا، جوانا. سأعود، سأعود، فانتظريني. أنتِ تعرفين أنَّني لا شيء، سأعود. لولاكِ لما تمكَّنتُ من الرؤية ولا حتَّى من السمع. إن تخلَّيْتِ عنِّي، سأعيشُ قليلًا، بقدر حاجة العصفور الصغير من الوقت للبقاء في الهواء من دون أن يرفرف بجناحيْه، ثمَّ سوف أسقط، سأسقط وأموت. جوانا. السَّبب الوحيد لعدم موتي الآن هو أنَّني سأعود، لا أستطيع أن أشرح، ولكن يمكنني أن أرى من خلالك. فليُساعدني الربُّ ويساعدك. أنتِ الوحيدة، سأعود. لم أتحدَّث معك كثيرًا، لكن أرجوك: أنا لا أخالف وعدي، أليس كذلك؟ أنا أفهمكِ كثيرًا، كلُّ ما تحتاجيه منِّي يجب أن أفعله. فليباركك الربّ، أتركُ لك ميداليَّة القدِّيس كريستوفر والقدِّيسة تيريز».

طوَت الرسالة ببطء. تذكَّرت وجه الرجل، خلال الأيَّام القليلة الماضية، عيناه رطبتان كعينيْ قطٍّ مَريض. والبشرة من حولهما غامقةٌ

بَنفسجيَّة، مثل الشفق. أين ذهب؟ كانت حياته بالتَّأكيد في حالةٍ من الفوضى. فوضى من الحقائق. وبطريقةٍ ما بدا لها غير مرتبطٍ بهذه الحقائق. المرأة التي دعمته، من شتَّتته عن نفسه، مثل شخصٍ لا بداية له ولا يتوقَّع نهاية... أين ذهب؟ لقد عانَت كثيرًا خلال الأيَّام القليلة الماضية. كان يجبُ أن تُخبره، لقد قصدت ذلك بالفعل، لكنَّها نسيت من شدَّة انذهالها وأنانيَّتها. نظرت إلى الورقة، كان الخطُّ رفيعًا ومرتبكًا، وكانت الجمل مكتوبةً بعنايةٍ وصعوبة. تذكَّرت وجه حبيبها وأحبَّت ملامحه العادلة بدقَّة. أغمضت عينيْها للحظة، واستنشقت مرَّةً أخرى الرائحة التي جاءت من الممرَّات المُظلمة لذلك المنزل غير المكتشف، سوى غرفةٍ واحدة، حيث عرفت الحبَّ مرَّةً أخرى. رائحة تفَّاحٍ قديم، حلوٍ وقديم، يجيء من الجدران، من أعماقها. لقد تذكَّرت السرير الضيِّق الذي استُبدِل بسريرٍ عريضٍ ومريح، وتذكَّرت الخجل المُبهج الذي فتح به الرجل الباب في ذلك اليوم ونظر إلى وجه جوانا مفاجئًا دهشتها. السفينة الصغيرة على الأمواج الخضراء جدًّا، مغمورةٌ تقريبًا. تغلق جفونها قليلًا فتتحرَّك السفينة. لكنَّ كلَّ شيءٍ ينزلق فوقها، لم يمتلكها شيء... باختصارٍ مجرَّد وقفة، نغمةٍ واحدة، ضعيفةٍ وواضحة. كانت هي التي انتهكت روح ذلك الرجل، وملأتها بنورٍ لم يكن يدرك شرَّه بعد. هي نفسها بالكاد لُمست. وقفة، نغمةٌ خفيفة، من دون رنين...

مرَّةً أخرى تنغلق دائرة الحياة. وهناك كانت في منزل أوتافيو الهادئ والصامت، تشعر بغيابه في كلِّ مكانٍ حيث كانت أغراضه في الأمس موجودة، يحتلُّه الآن فراغٌ مغبرٌّ قليلًا. من الجيِّد أنَّها لم تره يغادر. ومن الجيِّد أنَّه في اللَّحظات الأولى، عندما لاحظت رحيله بألم، كانت لا تزال تعتقد

أنَّ لديْها حبيبًا. (عندما لاحظت رحيل أوتافيو...؟)، فكَّرت. لكن لماذا الكذب؟ إنَّ الشخص الذي غادر كانت هي، وكان أوتافيو يعلم ذلك أيضًا.

خلعَت الملابس التي ارتدتها للقاء الرجل. لا شكَّ من أنَّ المرأة ذات الشفاه الرَّطبة والمتراخية تعاني وحيدةً وتشيخُ في الدار الواسعة. لم تكن جوانا تعرف حتَّى اسمه... لم تكن تريد أن تعرف ذلك، قالت له: أريد التعرُّف عليك من خلال مصادر أخرى، اقتفاء روحك من طرقٍ أخرى. لا أرغب في شيءٍ من حياتك الماضية، ولا حتَّى بمعرفة اسمك، ولا حتَّى أحلامك، ولا حتَّى قصَّة مُعاناتك. الغموض يفسِّر أكثر من الضوء. لن تسأل أيَّ شيءٍ عنِّي أيضًا. أنا جوانا، أنتَ جسدٌ حيّ، أنا جسدٌ حيّ، لا شيء أكثر من ذلك.

أيَّتها الحمقاء، الحمقاء! لربَّما عانيتِ وأحببتِ لو أنَّك عرفت اسمه وآماله وآلامه. الحقُّ يُقال إنَّ الصمت بينهما كان أكثر كمالًا. ولكن ما الجدوى... مجرَّد جسدين على قيد الحياة. لا، لا، كان الأمر أفضل هكذا: لكلٍّ منهما جسد، يدفعه إلى الأمام، ويريد بفارغ الصبر أن يعيشه. يسعى جشعًا لتسلُّق الآخر، طالبًا برعشةٍ محنَّكةٍ ومؤثِّرةٍ أن يوجدَ بصورةٍ أفضل وأفضل. قاطعَت نفسها وهي تمسك الفستان، منتبهة، خفيفة. أدركت العزلة التي كانت فيها، في وسط منزلٍ فارغ. شعرت أنَّ أوتافيو كان مع ليديا، وقد لجأ إلى تلك المرأة الحامل المليئة بالبذور للعالم.

اقتربَت من النافذة، وشعرت بالبرد على كتفيْها العاريتيْن، نظرت إلى الأرض حيث كانت النباتات تعيش بهدوء. تتحرَّك الكرة الأرضيَّة وهي واقفةٌ عليها. بجانب النافذة، السماء فوقها، مشرقة، لانهائيَّة. لم تكن هناك جدوى من اللُّجوء إلى مرارة كلِّ أمر، أو الغضب من الأشياء التي

حدثت، لأنَّ الحقائق كانت مجرَّد شِقٍّ في ثوبها، يشير السَّهم الصامت إلى قاع الأشياء مرَّةٍ أخرى، نهرٌ يجفُّ ويكشف عن الوادي العاري.

اقشعرَّت بشرة جوانا من برودة الظهيرة، ولم تستطع التَّفكير بوضوح، كان هناك شيءٌ ما في الحديقة يرميها خارج المركز متسبِّبًا في تعثُّرها... بقيت في حالة تأهُّب. كان هناك شيءٌ ما يحاول التحرُّك بداخلها، وبالإجابة، وعلى جدران جسدها المُظلمة، ارتفعت موجاتٌ قديمةٌ باردة. كانت خائفةً نوعًا ما، أرادت أن تقابل الإحساس بالوعي، ولكنَّ أصابع ناعمةً ظلَّت تجرُّها نحو إغماءٍ حلو. كما لو كان الصباح. تفحَّصت نفسها، تأهَّبت كما لو كانت قد غامرت بعيدًا. الصباح؟

الصباح. أين كانت ذات مرَّة، على أيِّ أرضٍ غريبةٍ عجيبةٍ حطَّت لكي تشمَّ عطرها الآن؟ الأوراق الجافَّة على الأرض الرَّطبة. انقبض قلبها على مهلٍ ثمَّ انفرج، ولم تتنفَّس للحظةٍ وانتظرت... كان ذلك في الصباح، عرفت أنَّه في الصباح... تراجعت كما لو كانت تشدُّها يد طفلٍ هشَّة، سمعت، مكتومةً كما لو كانت في حلم، دجاجاتٍ تنقر الأرض. أرضٌ حارَّةٌ وجافَّة... الساعة ترنُّ تِن دْلِن... تِن... دْلِن... والشمس تمطر على المنازل، ورودًا صغيرة، صفراء وحمراء... يا الله، ما هذا كلُّه إن لم تكن هي نفسها؟ لكن متى؟ ليس دائمًا...

كانت الأمواج الورديَّة تغمقّ، وكان الحلم ينزلق بعيدًا. ما الذي فقدته؟ ما الذي فقدته؟ لم يكن أوتافيو، الذي صار بعيدًا، ولم يكن حبيبها، الرجل التعيس الذي لم يكن موجودًا أبدًا. خطر لها أنَّهم قد قبضوا عليه، دفعت الفكرة بعيدًا من دون صبر، هاربةً متهوِّرة... كما لو كان كلُّ شيءٍ يشارك في الجنون نفسه، سمعت فجأةً صيحةً عنيفةً

ووحيدةً أطلقها ديكٌ قريب. لكنَّه ليس فجرًا، قالت، وهي ترتجف، وتمسح جبهتها الباردة بكفِّها... لم يكن الديك يَعلم أنَّه سيموت! لم يكن الديك يعلم أنَّه سيموت!

نعم، نعم: أبي، ماذا أفعل؟ آه، لقد تخطَّت شريطَ دقيقةٍ... نعم... كانت الساعة قد دقَّت تن ـ دلن، نهضَت على رؤوس أصابعها وكان العالم يدور ببطءٍ أكثر في تلك اللحظة. هل كانت هناك زهورٌ في مكانٍ ما؟ ورغبةٌ كبيرةٌ في الذوبان حتَّى تندمج غاياتها مع بدايات الأشياء. لتشكيل مادَّةٍ واحدة، ورديَّةٍ ومعتدلة ـ تتنفَّس على مهلٍ مثل بطنٍ يرتفع وينخفض، يرتفع وينخفض... أم أنَّها كانت مُخطئةً وكان هذا الشعور حاليًّا؟ إنَّ ما وَجد في تلك اللحظة البعيدة كان شيئًا أخضر وغامضًا، توقَّع الاستمراريَّة، براءةٌ متلهِّفةٌ أو لا؟ مساحةٌ فارغة... أيُّ كلمةٍ يمكنها أن تُعبِّر عن ذلك الشيء الذي لم يتكثَّف آنذاك وعاش بحرِّيَّة؟ عيونٌ مفتوحةٌ تطفو بين الأوراق الصفراء والسحب البيضاء وتحتها الحقل المنبسط، وكأنَّها تغلِّف الأرض. والآن... ربَّما تعلَّمت الكلام، كان هذا كلُّ شيء. لكنَّ الكلمات، غير القابلة للذوبان، الصلبة، تطفو على سطح بحرها. من قبل، كانت البحر النقيّ. وكلُّ ما تبقَّى من الماضي، يَتقاطر بداخلها، سريعًا ومرتعِشًا، كان القليل من الماء القديم يجري بين الحصى، الظلّ، البارد تحت الأشجار، الأوراق البنِّيَّة الميِّتة التي تصطفُّ على الضفاف. يا الله! كم غرقت بلطفٍ في عدم فهم نفسها. وكيف، أكثر من ذلك، كانت قادرةً على السماح لنفسها بالذهاب مع المدِّ والجزر الناعم الثابت. والعودة. كانت ينبغي أن تجتمع مع نفسها يومًا ما، بدون الكلمات القاسية المنعزلة... كانت لتلحم نفسها وتكون مرَّةً أخرى البحر الحيَّ الأعمى القويَّ الصامت غير المتحرِّك. الموت سيربطها بالطفولة.

لكنَّ قضبان البوابة كانت من صنع الرجل. وهناك كانت تتلألأ تحت الشمس. تنبَّهت إليها وفي صدمة إدراكها المفاجئ صارت امرأةً مرَّةً أخرى. ارتجفَت، لقد فقدت حلمها. أرادت العودة، العودة. بمَ تفكِّر؟ آه، بأنَّ الموت سيربطها بالطفولة. الموت سيربطها بالطفولة. ولكنَّ عينيْها اللَّتيْن تحدِّقان الآن في الخارج، قد بردتا. الآن كان الموت مُختلفًا، لأنَّ قضبان البوابة كانت من صنع الرجل ولأنَّها كانت امرأة... الموت... وفجأةً كان الموت مجرَّد انقطاع... لا! صرخت بنفسها خائفة: لا، لا للموت!

كانت تركض أمام نفسها الآن، بعيدةً عن أوتافيو وعن الرجل الذي اختفى. لا للموت. لأن... في الواقع أين كان الموت فيها؟ سألت نفسها ببطءٍ وبدهاء. وسَّعت عينيْها، غير قادرةٍ على تصديق السُّؤال الجديد والمليء بالسحر الذي سمحت لنفسها باختراعه. سارت إلى المرآة، ونظرت إلى نفسها ـ لا تزال على قيد الحياة! رقبتها الشاحبة تنبتُ من بين كتفيْها الرَّقيقيْن، لا تزال على قيد الحياة! تبحث عن نفسها. كلا، اسمعي! اسمعي! بداية الموت لم تكن موجودةً فيها! وكأنَّها تعبر جسدها نفسه بعنف، ساعية، شعرت بزفيرٍ من العافية يرتفع من داخلها، كلُّ شيءٍ ينفتح للتنفُّس...

لذلك لم تستطع الموت، ثمَّ فكَّرت ببطء. شيئًا فشيئًا، أخذ الفكر الهشُّ نفَسًا طويلًا، ونما، وأصبح مضغوطًا وصلبًا مثل كتلةٍ تتكيَّف داخل محيطها. لم يكن هناك مجالٌ لوجودٍ آخر، للشكّ. قلبها ينبض بقوَّة، استمعت إلى نفسها باهتمام. ضحكت بصوتٍ عال، ضحكةً مرتجفة، مرتجفة. لا... لكنَّ الأمر كان واضحًا جدًّا... لن تموت، لأن... لأن لا يجوز أن تنتهي. أجَل، أجَل. رؤيةٌ سريعة، لرجلٍ عجوز، ربَّما امرأة، مزيجٌ من الوجوه غير الواضحة في وجهٍ واحد، يهزُّ رأسه، يرفض، يشيخ. لا،

قالت بهدوءٍ من أسفل حقيقتها الجديدة، لا... فتحوَّلت الوجوه إلى دخان، ولأنَّها كانت دائمًا، ولأنَّ جسدها لم يكن في حاجةٍ إلى أيِّ شخصٍ كانت حرَّة. لأنَّها تسير في الشوارع. تشرب الماء، ولأنَّها ألغت الله، العالم، كلَّ شيء. لن تموت. سهلٌ جدًّا. مدَّت يديْها، لا تعرف ماذا تفعل بهما الآن بعد أن أيقنت. ربَّما تداعب نفسها، وتقبِّل نفسها، وتتعرَّف على نفسها مليئةً بحبِّ الاستطلاع والامتنان. لم تَعُد مهتمَّةً بالتَّفكير، بدا الموت لها غير منطقيّ، إلى درجة أنَّها توقَّفت الآن مذهولة، مليئةً بالرعب. أبديَّة؟ هذا عنيف... انعكاساتٌ سريعةُ البرق ومشرقةٌ حيث تطاير الشرر في كلِّ اتِّجاهٍ كهربائيًّا، واندمج في المشاعر أكثر منها في الأفكار. تتغيَّر من دون أيِّ عبور، تقفز بخفَّة، من مستوى إلى آخر، أعلى من أيِّ وقتٍ مضى، أكثر وضوحًا وتوتُّرًا. ومع كلِّ لحظةٍ كانت تغوص أعمق وأعمق في نفسها، في كهوفٍ من الضوء الحليبيّ، تنفسُّها نابضٌ بالحياة، مليءٌ بالخوف والسعادة في الرحلة، ربَّما مثل السقوط في النوم. حدسُها بأنَّ تلك اللحظات كانت هشَّةً جعلها تتحرَّك بخفَّة، خائفةً من لمس نفسها، من خضِّ تلك المعجزة وحلِّها، الكائن الرَّقيق من الضوء والهواء الذي كان يحاول العيش بداخلها.

انزلقت مُجدَّدًا إلى النافذة، تتنفَّس بحذر. منغمسةً في فرحٍ رائعٍ وحادٍّ يشبه برودة الجليد، يشبه إدراك الموسيقى. ارتعشت شفتاها بجدِّيَّة. أبديَّة، أبديَّة. توالت أراضٍ بُنِّيَّةٌ واسعة، وأنهارٌ خضراء متلألئة، تجري بهديرٍ ونغم. سوائل دريَّةٌ كنيران تتسرَّب داخل جسدها الشفَّاف من جِرارٍ ضخمة... هي نفسها تنمو فوق الأرض المختنقة، وتنقسم إلى آلاف الجسيمات الحيَّة، المليئة بتفكيرها، وقوَّتها، ولا وعيها... تعبر النقاء من دون ضبابٍ خفيف، ماشيةً، طائرةً...

طار طائرٌ في الخارج بصورةٍ مائلة!

اخترق الهواء النقيَّ واختفى في كثافة شجرة.

خفق الصمت خلفه في همساتٍ صغيرة. كم من الوقت مضى وهي تراقبه، من دون أن تشعر!

(آه، إذن سوف تموت).

أجل، ستموت بالفعل. ببساطةٍ مثل طيران الطائر. مالت رأسها إلى جانبٍ برقَّةٍ مثل امرأةٍ معتوهةٍ سهلة الانقياد: إنَّه سهل، سهلٌ للغاية.. وليس ذكيًّا حتَّى.. إنَّه الموت الذي سيأتي، والذي سيأتي... كم ثانيةً مرَّت؟ واحدةٌ أو اثنتان. ربَّما أكثر. البرد. أدركت أنَّها بمعجزةٍ أصبحت الآن على درايةٍ بتلك الأفكار، وأنَّ لعمقها مرَّت تحت موادٍّ أخرى، سهلة، في الوقت ذاته... بينما كانت تعيش حلمها تراقب الأشياء من حولها، وتستخدمها عقليًّا وعصبيًّا، كمن يفتح ستارةً أثناء التَّحديق في المناظر الطبيعيَّة. أغمضت عينيْها، ساكتةً ومُتعبة، ملفوفةً بحجابٍ رماديٍّ طويل. للحظةٍ كانت لا تزال تشعر بخطورة عدم الفهم يتصاعد من أعماق جسدها مثل تدفُّق الدم. الأبديَّة هي عدم الوجود، والموت هو الخلود ـ لا تزال تطفو هناك بحرِّيَّة، بقايا من العذاب. لشدَّة إرهاقها، لم تَعْلم ما الذي سيربطها.

لقد اختفى يقين الخلود إلى الأبد. مرَّةً أو مرَّتيْن في حياتها ـ ربَّما في وقتٍ متأخِّرٍ من بعد ظهر أحد الأيَّام، في لحظة حبّ، في برهة الموت ـ كانت تملك اللَّاوعي الإبداعيَّ السامي، الحدس الحادَّ الأعمى بأنَّها كانت خالدةً حقًّا إلى أبد الآبدين.

الرِّحلة

يَستحيل التَّفسير. كانت تبتعد ببطءٍ عن تلك المنطقة حيث يكون للأشياء شكلٌ وحوافٌّ محدَّدة، حيث لكلِّ شيءٍ اسمٌ صلبٌ غير قابلٍ للتغيير. كانت تغرق أعمق في المنطقة السائلة الهادئة التي لا يُسبر غورها، حيث كان الضباب مُعلَّقًا غامضًا وباردًا مثل ضباب الفجر. انتهضت من بزوغ الفجر في الريف. في مزرعة عمِّها استيقظت في منتصف الليل. ألواح الأرضيَّة في المنزل القديم صرصرت. من الطابق الأوَّل، طافت في الفضاء المُظلم، وأغرقتْ عينيها في الأرض، بحثًا عن النباتات التي التفَّتْ والتفَّتْ حول بعضها بعضًا مثل الأفاعي. شيءٌ ما يومض في الليل، يراقِب، يراقِب، عينا كلبٍ مستلقٍ، يقظ. ينبضُ الصمت في دمها فتخفق معه. ثمَّ اندلع الفجر فوق المروج الورديَّة الرَّطبة. كانت النباتات مرَّةً أخرى خضراء وساذجة، وسيقانها ترتجف، تحسُّ بأدنى هبَّةِ ريحٍ فتخرج من الموت. لم يَعُد هناك كلبٌ يحرس المزرعة، فصار كلُّ شيءٍ واحدًا، فارغًا، من دون وعي. كان هناك

حصانٌ طليقٌ في المرج الهادئ، ولم تكن حركة ساقيه سوى مخمَّنة. كلُّ شيءٍ غير واضح، ولكن فجأةً في حالةٍ من عدم الوضوح وجدت وضوحًا خمَّنته، ولكنَّها لم تكن قادرةً على امتلاكه بالكامل. فكَّرت منزعجة: كلُّ شيء، كلُّ شيء. الكلمات حصى تتدحرج في النهر. لم تكن سعادةً ما شعرت به آنذاك، بل شيءٌ سائلٌ، غير متبلور، جميل، لحظةٌ متألِّقة، لحظةٌ كئيبة. كئيبةٌ مثل البيت على حافَّة الطريق، مغطًّى بالأشجار المورقة والغبار، كان يسكنه رجلٌ عجوزٌ حافي القدميْن برفقة ابنيْه، فَحْلين ضخمين ووسيمين. كان لأصغرهما عينان، قبل كلِّ شيءٍ، عينان، قبَّلها مرَّةً واحدة، وكانت من أفضل القبلات على الإطلاق، وثمَّ شيءٌ كان يبرز في مؤخِّرة عينيْه كلَّما أعطته يدها. اليد نفسها التي كانت ترتكز الآن على ظهر الكرسي، مثل جسمٍ صغيرٍ منفصل، راضٍ، مُهمَل. عندما كانت صغيرةً كانت ترقِّص يدها، وكأنَّها صبيَّةٌ يافعة. حتَّى أنَّها رقَّصتها للرجل الذي كان هاربًا أو محبوسًا، لعشيقها ـ لأنَّ كان لديْها عشيق ـ فَفُتِن بيدها وانتهى به الأمر إلى الضغط عليها وتقبيلها كما لو كانت تلك اليد امرأةً حقًّا. آه، لقد عاشت كثيرًا، المزرعة، الرجل، الانتظار. صيفٌ بأكمله ولياليه الأرقة التي خلَّت وجهها شاحبًا وعينيْها مُظلمتيْن. وداخل الأرق، أرقٌ يلفُّ أرقًا. كانت تعرف العطور. رائحة الخضار الرَّطبة، الخضرة المضاءة بالأضواء، أين؟ كانت قد داست الأرض الرَّطبة في أحواض الزهور، على غفلةٍ من الحارس. أضواءٌ تتدلَّى من الأسلاك، تتأرجح، تتأمَّل غير مبالية، على موسيقى الفرقة التي تعزف وسط الساحة، سودٌ يرتدون أزياء رسميَّة. الأشجار كلُّها مضاءة، وأجواء البغايا الباردة والمتكلِّفة. وقبل كلِّ شيءٍ كان هناك ما لا يمكن التحدُّث به: عينان وفمٌ من وراء الستار تتلصَّص ـ عينا كلبٍ تلمعان

على فترات، نهرٌ يتدحرج في صمتٍ من دون أن يعلم. وأيضًا: النباتات تنمو من البذور وتموت. وأيضًا: بعيدًا في مكانٍ ما، عصفورٌ على غصنٍ وشخصٌ نائم. كلُّ شيءٍ يذوب. كانت المزرعة موجودةً أيضًا في اللَّحظة ذاتها وفي اللَّحظة ذاتها كان عقرب الساعة يتحرَّك إلى الأمام، بينما يجد الإحساس بالحيرة نفسه وقد تجاوزته الساعة.

في أعماقها شعرَت أنَّ الوقت الذي عاشته أخذ يتراكم مرَّةً أخرى. كان الشعور عائمًا مثل ذكرى منزلٍ سكنه أحدهم. ليس المنزل بذاته، ولكنَّ موقع المنزل بداخلها، فيما يتعلَّق بوالدها الذي يضرب على الآلة الكاتبة، فيما يتعلَّق بفناء الجيران وشمس الظهيرة، غامض، بعيد، صامت. لحظة... لقد انتهى. ولم تكن لديْها أيُّ طريقةٍ لمعرفة ما إذا كان بعدَ الوقت الذي عاشته سيكون هناك استمرارٌ أو تجديدٌ أو لا شيء، مثل الحاجز. لم يمنعها أحدٌ من الإتيان بعكس أيٍّ من الأشياء التي كانت ستفعلها تمامًا: لا أحد، لا شيء... لم يكن عليها أن تتبع بدايتها... هل سبَّب ذلك لها الألم أم البهجة؟ مع ذلك لم تشعر أبدًا أنَّ تلك الحرِّيَّة الغريبة التي كانت أيضًا لعنتها، والتي لم تربطها أبدًا حتَّى بنفسها، هذه الحرِّيَّة ذاتها هي التي أضاءت مادَّتها. وعرفت أنَّ حياتها ولحظات مجدها جاءت منها، وأنَّ ابتداع كلِّ لحظةٍ مستقبليَّةٍ جاء منها.

لقد نجت مثل بذرةٍ لا تزال رطبةً بين الصخور الحارقة والجافَّة، فكَّرت جوانا. في تلك الظهيرة، وقد هرمَتْ (دائرة الحياة مغلقة، والعمل قد انتهى). في تلك الظهيرة حينما استلمت رسالة الرجل، اختارت طريقًا جديدًا. ليس للفرار، ولكن للذهاب. استخدام مال والدها الذي لم يمسَّه أحد، الميراث

الذي تخلَّت عنه حتَّى الآن، للسَّير والسَّير وأن تكون متواضعة، وأن تعاني، وأن تهتزَّ بأكملها، من دون آمال. قبل كلِّ شيءٍ من دون آمال.

لقد أعجبَت باختيارها وأخذ الصفاء يداعب وجهها، ممَّا سمح للحظات الماضي الميِّتة بالوصول إلى وعيها؛ أن تكون واحدةً من هؤلاء الأشخاص الذين لا يتحلَّون بالأنفة ولا الحشمة ويهبون أنفسهم إلى الغرباء من دون سابق إنذار. هكذا قبل الموت ستتواصل مع الطفولة، من خلال التعرّي. وأخيرًا التواضع. (كيف يمكنني أن أُعاقَب بشدَّة، وكيف أنفتحُ للعالم وللموت؟).

عامَت السفينة بخفَّةٍ على البحر مثل الأيدي المفتوحة اللطيفة. انحنت على الدرابزين وشعرت بالحنان يرتفع ببطء، ويغمرها بالحزن.

على سطحِ السفينة، كان الركَّاب يتحرَّكون ذهابًا وإيابًا، قلقين، ينتظرون العشاء، حريصين على لمِّ شمل الوقت والوقت. قال أحدهم بخفوت: انظُر إلى المطر! كان الضباب الرماديُّ يقترب حقًّا، عيونٌ مُغلقة. سرعان ما رأوا قطرات المطر العريضة تسقط على ألواح سطح السفينة، وصوت سقوط الإبر فوق المياه، تخترق وجهه على نحوٍ خفيّ. صقعت الريح، ورُفعت أطواق المعاطف، وأصبحت النظرات فجأةً مضطربة، وتجنَّبتْ هي الكآبة مثل أوتافيو في توجُّسه من المعاناة. من الأعماق...

من الأعماق؟ شيءٌ ما أراد الكلام... من الأعماق... أراد سماع نفسه! اغتنام الفرصة العابرة التي رقصت بخفَّةٍ على حافَّة الهاوية. من الأعماق. إغلاق أبواب الوعي. في البداية، إدراك الماء الفاسد، والعبارات التافهة، ولكن بعد ذلك وسط الارتباك، ارتعاش الماء النقيِّ فوق الجدار الخشن. من الأعماق. الاقتراب بعناية، السماح

للموجات الأولى بالتدفُّق. من الأعماق... أغمضَت عينيْها، فلم ترَ سوى العتمة. تعمَّقت في أفكارها، ورأت شخصيَّةً نحيلةً غير متحرِّكةٍ ومؤطَّرةً باللَّون الأحمر الفاتح، شكلٌ رُسمَ بإصبعٍ ملطَّخةٍ بالدم على قطعةٍ من الورق، عندما جرحَت إصبعها وكان والدها يبحث عن اليود. في ظلامِ حدقتيْها، كانت الأفكار متناسقةً بطريقةٍ هندسيَّة، متراكبةً واحدةً فوق الأخرى مثل قرص العسل، وبعض الخلايا فارغة، بلا شكل، من دون مكانٍ للتفكير. أشكالٌ ناعمةٌ ورماديَّة، مثل الدماغ. لكنَّها لم ترها حقًّا، حاولت أن تتخيَّلها ربَّما. من الأعماق. (أرى حلمًا راودني ذات مرَّة: مسرحٌ مظلمٌ مهجور، خلف بعض الأدراج. لكن في اللحظة التي أفكِّر فيها «مسرحٌ مظلمٌ» بالكلمات، ينضَب الحلم وتترك الشرنقة فارغة. الشعور يذبل فيصير ذهنيًّا فحسب. حتَّى أنَّ الكلمتَيْن «مسرحٌ مظلمٌ» عاشتا بما فيه الكفاية في داخلي، في ظلامي، في عطري، إلى درجة أنَّهما أصبحتا رؤيةً غامضة، مهترئةً وغير قابلةٍ للتلمُّس، ولكن خلف الأدراج. ومن ثمَّ سأتوصَّل إلى حقيقةٍ مرَّةٍ أخرى، حُلْمي. من الأعماق. لماذا لا يأتي ذلك الذي يريد أن يتكلَّم؟ أنا مستعدَّة. أغمض عينيَّ، مليئة بالزهور التي تتحوَّل إلى ورودٍ بينما يهتزُّ الوحش ويتقدَّم نحو الشمس تمامًا كما أنَّ الرؤية أسرع بكثيرٍ من الكلمات، أختار ولادة الأرض لـ... هراء. من الأعماق، بعد ذلك سيأتي خيطٌ من الماء النقيّ. رأيت الثلج يرتجفُ مليئًا بالغيوم الورديَّة تحت الوظيفة الزرقاء للأحشاء التي تزحف مع الذباب في الشمس، والانطباع الرماديّ، والضوء الأخضر والشفَّاف والبارد الموجود خلف الغيوم. أغمض عينيَّ وأشعر بالإلهام يتدحرجُ مثل شلَّالٍ أبيض. من الأعماق. يا إلهي، إنَّني بانتظارك، تعال إليَّ، يا إلهي، أزهِرْ على

صدري، أنا لا شيء، البلوى تقع على رأسي ولا أعرف سوى استخدام الكلمات، والكلمات كاذبةٌ وما زلت أعاني، في النهاية خيط الماء فوق الجدار المظلم، يأتي الربُّ إليَّ وأنا بلا فرحٍ وحياتي مظلمةٌ مثل الليل الخالي من النجوم. ويا ربّي، لماذا لا توجد في داخلي؟ لماذا جعلتني منفصلةً عنك؟ يا ربّي، تعال إليَّ، فأنا لا شيء، أنا أقلّ من التراب وأنتظرك في النهار وفي الليل، ساعدني، فلست أملكُ سوى حياةٍ واحدةٍ وهي تنزلقُ من بين أصابعي وتسير إلى الموت بهدوءٍ ولست قادرةً على أيِّ شيء، كلُّ ما أفعله هو مشاهدة استنفادي مع كلِّ دقيقةٍ تمرّ، أنا وحيدةٌ في العالم، من يحبُّني لا يعرفني ومن يعرفني يخشاني وأنا صغيرةٌ ومسكينة، ولن أعرف في غضون بضع سنواتٍ أنَّني كنت موجودة، كلُّ ما تبقَّى لي لأعيشه هو القليل ومع ذلك كلُّ ما تبقَّى لي لأعيشه سيبقى كما هو وعديم الفائدة، لماذا لا تشفقُ عليَّ؟ أنا التي لا شيء، أعطني ما أحتاج، يا ربّ، أعطني ما أحتاجه وأجهله، خرابي عميقٌ مثل البئر ولا أخطئ لا أمامي، لا أمام الآخرين. تعال إليَّ عند البلوى والبلوى اليومَ، والبلوى دومًا، أقبّل قدميْك وتراب قدميْك، أريد أن أذوب في الدموع، من الأعماق أدعوك، تعال لنجدتي، لم أرتكِب الخطايا، من الأعماق أدعوك وأنت لا تجيب ويأسي يجفُّ مثل رمال الصحراء وحيرتي تخنقني، حقِّرْني، يا إلهي، فهذه الكبرياء بالبقاء على قيد الحياة تلْجمني، أنا لا شيء، من الأعماق أدعوك، من الأعماق، أدعوك من الأعماق أدعوك...).

هنا، ترسَّخت أفكارها وأخذت تتنفَّس مثل شخصٍ عليلٍ عانى من الهلاك. كان هناك شيءٌ ما لا يزال يتلعثم بداخلها، لكنَّ تعبها كان

كبيرًا، وعلى الرَّغم من ذلك وضعَت على وجهها قناعًا ناعمًا وعينيْن فارغتيْن. من الأعماق، كان الاستسلام النهائيّ. النهاية...

لكن من الأعماق كاستجابة، أجل، كاستجابة، هواءٌ تسلَّل إلى جسدها أعاد إليها الحياة، ارتفعت الشعلة متَّقدةً واضحةً نقيَّة... من الأعماق الكئيبة، اشتعلت النيران بدفعةٍ لا ترحم، وارتفعت الحياة مرَّةً أخرى فوضويَّة، جريئة، بائسة. أطلقت صرخةً جافَّةً كما لو أحدًا هزَّها، والفرح شعَّ في صدرها بشدَّة، لا يُطاق، الزوبعة، الزوبعة! قبل كلِّ شيء، أصبحت تلك الحركة المستمرَّة في الجزء السفليّ من كيانها أكثر وضوحًا ـ الآن تنمو وتنتفض. تلك الحركة لشيءٍ ما حيٍّ يسعى للخروج من الماء والتنفُّس. أيضًا مثل الطيران، أجل، مثل الطيران... المشي على الشاطئ وتلقِّي الريح في وجهها، والشعر يرفرف، والمجد فوق الجبل... ترتفع، ترتفع، جسدها ينفتح للهواء، يستسلم لخفقان دمها الأعمى، نغماتٌ بلَّوريَّة، تطنطن، تتلألأ في روحها... لم تكن هناك حتَّى الآن خيبة أملٍ في مواجهة أسرارها الخاصَّة، يا الله، يا الله. يا ربِّي، تعال إليّ، لا لإنقاذي، لأنَّ الخلاصُ موجودٌ داخلي، ولكن لكتم صوتي بيدك الثقيلة، بالعقاب، بالموت، لأنَّني عاجزةٌ وخائفةٌ من تحقيق ضربةٍ صغيرةٍ من شأنها أن تحوِّل كلَّ جسدي إلى هذا المركز الذي يتوق إلى التنفُّس والذي يرتفع، يرتفع.. الدافع نفسه مثل المدِّ والجزر والتكوين، التكوين! تلك اللَّمسة الخفيفة التي تحرِّك في المجنون فقط الفكر المجنون، الجرح المضيء ينمو، يطفو، يهيمن. آه، كيف انسجمَت مع أفكارها وكم كانت أفكارها قاتلةً للغاية. إنَّني، يا إلهي، أحتاجك، لكي تسحبني مثلما يُسحب الكلب عندما يصير كلُّ شيءٍ صلبًا وممتلئًا مرَّةً

أخرى، عندما تكون حركة خروج رأسي من المياه مجرَّد ذكرى وعندما يكون داخلي معرفةً لا غير، اِستُخدِمَت وتُستخدَم ومن خلالها يحدُث تلقّي الأشياء ومنحها مرَّةً أخرى، يا إلهي.

أمَّا الذي ارتقى فيها فلم تكن الشجاعة، كانَ كيانًا فحسب، أقلَّ من بشريّ، كيف يمكن أن تكون بطلةً وتريد قهر الأشياء؟ لم تكن امرأة، كانت موجودةً فقط وما تحتويه في داخلها ليست إلَّا حركاتٍ ترفعها دائمًا في مرحلةٍ انتقاليَّة. ربَّما في مرحلةٍ ما، كانت قد عدَّلت بقوَّتها الجامحة الهواء من حولها ولم يلاحظها أحدٌ أبدًا، ربَّما اخترعت بأنفاسها مادَّةً جديدةً ولم تكن تعرف ذلك، فقط شعرت بما لا يمكن للعقل الصغير للمرأة أن يفقهه أبدًا. نبتت حشودٌ من الأفكار الدافئة وانتشرت في جسدها الخائف والجدوى منها أنَّها أخفَت دافعًا حيويًّا، والجدوى منها أنَّه في لحظة ولادتها كانت هناك مادَّةٌ عمياء حقيقيَّةٌ تخلق نفسها، ترتفع، على سطح الماء مثل فقاعة هواء، تكاد تنفطر... لاحظت أنَّها لم تَغفُ بعد، وفكَّرت أنَّه ما زال ينبغي عليها أن تفرقع كالحطب المشتعل. فكَّرت أنَّ حِمل طفولتها الثقيل سيزول، ومن عدم نضجها المؤلم سينفجر كيانها، حرًّا وأخيرًا، وأخيرًا حرًّا! لا، لا، لا أريد إلهًا، أريد أن أكون وحدي. وفي يومٍ من الأيَّام ستأتي، أجَل، في يومٍ من الأيَّام، ستأتي تلك القدرة الحمراء والإيجابيَّة كما والواضحة والناعمة. سيأتي يوم، كلُّ ما أفعله فيه سيكون حقًّا أعمى من دون وعي، يدوس عليَّ، على حقيقتي، المصبوبة تمامًا في ما أفعله إلى درجة أنَّني لن أكون قادرةً على الكلام، وقبل كلِّ شيءٍ سيأتي يومٌ تكون فيه كلُّ حركةٍ منِّي خَلقًا وولادة، وسأكسر كلَّ اللاءات الموجودة في داخلي، سأثبِت

لنفسي أنَّه لا داعيَ للخوف، وأنَّ كلَّ ما سوف أكونه سيكمن دائمًا حيث توجد امرأةٌ في البدء، سأبني داخلي ما سأكونه يومًا ما، بإيماءةٍ واحدةٍ منِّي، سترتفع أمواجي عاتية، ماءً نقيًّا يُغرقُ الشكَّ والوعيَ؛ سأكون قويَّةً مثل حيوان، وعندما أتكلَّم ستكون كلماتي من دون تفكير، بطيئة، غير محسوسةٍ بخفَّة، لا تَوْق فيها إلى الإنسانيَّة. لا للماضي الذي يفسد المستقبل! ما أقوله سوف يبدو قاطعًا كاملًا! لن يكون هناك مكانٌ في داخلي لإدراك أن لا وجود للزمان وللإنسان وللأبعاد، ولن يكون هناك مكانٌ في داخلي حتَّى لإدراك أنَّني سوف أُبدعُ حالةً حالةً، وليس لحظةً لحظةً: في انصهارٍ دائم، لأنَّني حينها فقط سأعيش أعظم ممَّا عشته في طفولتي، سأكون متوحِّشةً ومشوَّهةً مثل صخرة، سأكون خفيفةً وغامضةً مثل شيءٍ محسوسٍ وغير مفهوم، سأتجاوز نفسي بأمواج، آهٍ، يا إلهي، فليأتِ كلُّ شيءٍ وليسقطْ عليّ، حتَّى عدم فهمي لنفسي، في لحظاتٍ بيضاء معيَّنةٍ لأنَّ كلَّ ما عليَّ فعله هو الامتثال لنفسي وعندها لن يعترض شيءٌ طريقي حتَّى إلى الموت ـ بلا ـ خوف، ومن كلِّ صراعٍ أو راحةٍ سوف أنهض قويَّةً وجميلةً مثل حصانٍ صغير.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

قريبًا من القلب المتوحِّش، أوَّل روايةٍ كتبتها كلاريس ليسبكتور، في عام 1943 وكانت في العشرين من عمرها. فاجأت كلاريس النقَّاد بروايتها الافتتاحيَّة ونالت على إعجابهم وشبَّهوا أسلوبها الأدبيّ بأسلوب فرجينيا وولف وجيمس جويس.

تتبع القصَّة رحلة جوانا الداخليَّة منذ الطفولة حتى الكبر، مستكشفةً تأمُّلاتها في الهويَّة والوحدة والاتِّصال بالعالم من حولها.

تعبّر جوانا ذاتها عن حياتها الجوَّانيَّة وتقارن تجاربها كفتاةٍ بتجارب شخصٍ بالغ، وتغرق أحيانًا في الماضي، وأحيانًا في الحاضر، وفقًا لخيط الذاكرة. أمَّا الفتاة جوانا فليست مجرَّد بنتٍ يتيمة الأمّ، تعيش مع والدها ولاحقًا مع عمَّتها ومن ثم في مدرسةٍ داخليَّة. والمراهقة جوانا ليست مجرَّد شابَّةٍ لا تتقن التعايش مع الناس من حولها والمنبهرة باكتشاف أنوثتها. والمرأة جوانا ليست مجرَّد زوجةٍ حسب القالب الأبويّ، والمتوقَّع منها أن تتوافق مع الروتين، من دون اندهاشٍ أو اضطراب، وليست أيضًا العشيقة التي تحتفظ بالشغف مكتفيةً بلحظاتٍ موقَّتةٍ من الابتهاج.

من خلال تيَّارات الوعي، تغوص هذه الرواية الحميمة والانعزاليَّة في تعقيدات العقل البشريّ، مسلِّطةً الضوء على البحث عن فهم "القلب المتوحِّش" الذي ينبض داخل كلّ إنسان.

دار الآداب

مكتبة
t.me/soramnqraa